الجامعة الاسلامية
بالمدينة المنورة
الإهداء

مهدى من المؤلف إلى مكتبة
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

سورة الفرقان

وموقفها

من الألوهية والنبوة وعباد الرحمن

رسالة مقدمة

من

منيع عبدالحليم محمود
المدرس المساعد بكلية أصول الدين

باشراف

الدكتور أحمد السيد الكومي
أستاذ ورئيس قسم التفسير بجامعة الأزهر

الجامعة الإسلامية
المكتبة العامة
رقم التسجيل العام
رقم التسجيل الخاص
التاريخ / / ١٤

الجامعة الاسلامية
بالمدينة المنورة
الإهداء

الجامعة الإسلامية
المدينة المنورة
المكتبة المركزية - قسم المخطوطات
رقم التسجيل العام
رقم التسجيل الخاص
التاريخ / / ١٤

الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عمادة شؤون المكتبات - قسم المخطوطات
رقم التسجيل العام
رقم التسجيل الخاص
التاريخ / / ١٤هـ

" بسم الله الرحمن الرحيم "

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا ومولانا محمد سيد الخلق أجمعين

" تبـــارك الذى نزّل الفرقـــــــان
على عبده ليكون للعالمين نذيـــــرا "

" مدخـــــل الرســـالـــة "

سـورة الفرقان عرض عـــام

الجمهور على أنها مكيـــة .

والرواية عن ابن عباس ، وقتـادة : أنها مكية ، الا قوله تعالـــى " والذين لايدعون مع الله الهـا آخر ... " الى قوله سبحانه : " وكـان الله غفورا رحيما " (١)

وذكر الضحاك أنها مدنية ، الا الآيات الأولى ، الى قوله :

" ولا نشورا " (٢) فمكيـــة .

والظاهر أن رأى الضحاك غير موافق ، لأن السورة تناولت التوحيـد ، ونقاش المشركين ، وهذا اللون لا يستأثر بالكلام فى القسم المدنى ، وآياتها سبع وسبعون آية اتفاقا ، كما نص عليه الطبرى .

" صلة سورة الفرقان بسورة النور التى قبلها "

عند ما نتأمل فى سورتى النور ، والفرقان ، من حيث وجه صلـــة احداهما بالأخرى نرى أن هناك ربطا قويا ، ومناسبة ظاهرة ، بين هـــذه السورة والتى قبلها ، وذلك بادٍ فى ثلاثة مواضع :

١ = المطـلع ،

٢ = الأثنـاء ،

٣ = الختام .

١ ـ اننا عند ما نقارن بين صدر سورة النور ، التى يقول فيها الله سبحانه وتعالى :

---

(١) أى من آية ٦٨ ـ ٧٠ من السورة (٢) أى آية : ١ ـ ٣

" سورة أنزلناها وفرضناها ، وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون " ، وبين صدر سورة الفرقان :

" تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا " ،

وجدنا بينهما تناسبا أكيدا يتضح فيمايلى : ـ

١ = فقد ذكر فى الأولى مدحا لجزأين من القرآن من حيث مافيه من الآيات البينات وفى الثانية : مدح نفسه تعالى بانزال القرآن الذى هو نعمة عظيمة ، وهداية للناس ، وفى هذا مدح للقرآن كله ضرورة أن الله مدح نفسه بتنزيله ، فهنا مدح لكل القرآن ، والممدوح : السورة .

٢ = التصريح فى كلا الموضعين بأن هذا القرآن من عند الله سبحانه :

قال فى الأولى : " سورة أنزلناها " ،

وقال فى الثانية : " تبارك الذى نزل الفرقان " .

٣ = تعرضت كل من الآيتين لبيان الغاية والسبب الذى من أجله نزل القرآن :

ففى الأولى : " لعلكم تذكرون " ،

وفى الثانية : " ليكون للعالمين نذيرا " ،

وبين الانذار والتذكر مناسبة ، وهى : أن الثانى ناشىء من الأول ؛ فالانذار سبب ، والتذكر مسبب .

٢ ـ وفى الأثناء :

أ ـ تعرض كل من السورتين لذم الزنا ، وبيان قبحه ، ومدح من تجنبه ، وذكرت السورة الأولى العقوبة الدنيوية المادية والمعنوية للزانى : من جلده مائة ، وعدم قبول الشفاعة

فيه ، وحضور طائفة من المؤمنين عذابه ، وتحريم نكاحه للمؤمنة .

وذكرت السورة الثانية العقوبة الأخروية للزانى ، قال تعالى :

" والذين لايدعون مع الله الها آخر ، ولايقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ، ولايزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا " (١)

٢ ـ ذكر فى السورة الأولى آداب البيوت من الاستئذان والسلام قبل دخولها اذاكانت مملوكة للغير .

وذكر فى السورة الثانية بعض هذه الآداب المتعلقة بصاحب البيت نفسه ، وهو الاعتدال فى النفقة من غير ترف ولا تقتير .

قال تعالى :

" والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما " (٢)

٣ ـ فى السورة الأولى ذكر الآداب المتعلقة بالمنازل ، وفى السورة الثانية ذكر الآداب التى من شأنها أن تكون خارج البيت .

قال الله تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون " (٣)

وقال تعالى :

" وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما "

---

(١) آية : ٦٨ ، ٦٩ (٢) آية : ٦٧

(٣) النور آية : ٢٧ (٤) الفرقان آية : ٦٣

وقال تعالى :

" والذين لايشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما "(١)

٤ ـ أمر فى السورة الأولى الذين لايجدون نكاحا بالاستعفاف والصبر حتى يغنيهم الله من فضله ؛ وذكر فى السورة الثانية مدحه لأولئك أولمن يكونوا أولى أزواج بقولهم :

" ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين اماما "(٢)

فالمناسبة ظاهرة ،سواء قال هذه المقالة المتزوجون أوغيرهم .

٥ ـ طلب من المؤمنين والمؤمنات فى السورة الأولى غض الأبصار وحفظ الفروج ، وعدم ابداء الزينة ، والضرب بالأرجل .

وفى السورة الثانية : مدح التاركين للزنا الذى ينشأ من ترك التماليم السابقة التى مرت فى السورة الأولى .

٦ ـ بيّن فى كل من السورتين أن الله تعالى واحد قادر .

ففى السورة الأولى :

" ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض "(٣)

" ولله ملك السموات والأرض "(٤)

" ألم تر أن الله يزجى سحابا "(٥)

" والله خلق كل دابة من ماء "(٦)

---

(١) الفرقان : ٧٢ (٢) الفرقان : ٧٤

(٣) النور : ٤١ (٤) النور : ٤٢

(٥) النور : ٤٣ (٦) النور : ٤٥

وفى الثانية :

" ألم تر الى ربك كيف مدّ الظلّ " (١)

" وهو الذى جعل لكم الليل لباسا " (٢)

" وهوالذى أرسل الرياح " (٣)

" وهو الذى مرج البحرين " (٤)

" وهو الذى خلق من الماء بشرا " (٥) .... الآيات "

٣ ـ الانتهـــاء :

أ = ختمـت السورة الأولى بقوله تعالى :

" ألا انّ لله مافى السموات والأرض ، قد يعلم ما أنتـم عليه ، ويوم يرجعون اليه فينبئهم بماعملوا ، والله بكل شىء عليم " (٦)

واختتمت الثانية بقوله تعالى :

" قل ما يعبأ بكم ربى ، لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسـوف يكون لزاما " (٧) أى العذاب .

ب = كلا الآيتين فيهما ذكر الله بصفات العظمة والقدرة تمهيدا الكافرين ومخوفا لهم من سوء الحساب يوم القيامة .

---

(١) الفرقان : ٤٥ (٢) الفرقان : ٤٧

(٣) الفرقان : ٤٨ (٤) الفرقان آية ٥٢

(٥) الفرقان آية ٥٣ (٦) النور آية ٦٤

(٧) الفرقان آية ٧٧

" عرض عام لسورة الفرقـــان "

تعرض سورة الفرقان ، وتركيز شديد لأربع أصول تعتبر من الأسس الهامة التى تقوم عليها شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ هـــذه الأصول الأربعة هى :

١ ــ الألوهية ،

٢ ــ النبـــوة ،

٣ ــ البعث ،

٤ ــ الأخلاق .

تبدأ السورة أولا بقوله تعالى :

" تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا "(١)

فتعرض لنا فى هذه الآية ثلاثة أصول من الأصـول الأربعـــة ، التى تكلمنا عنها ، ففيها : بيان للتوحيد ،والنبوة ،والجزاء ،فتؤكدهـــا فى وضوح لا لبس فيه ،وطريقة قاطعة ،كأنها أمر مفروغ منه لايحتاج لنقاش .

ثم تأتى الآيات التالية بعـــد ذلك لتفصيل تلك العقائد ، ولتبـين بها تراث الضالين من المشركين ،وكيف أنهم ينكرون أمورا هى من الوضـــوح بمكان .

ويبـــدأ ذلك التفصيل بالنسبة للأصل الأول : وهو الألوهيـــــة بقوله تعالى :

" الذى له ملك السموات والأرض ،ولم يتخذ ولدا ،ولم يكن لـــه شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا "(٢)

فنجد فى هذه الآيات : صفات الألوهية بمعناها الواسع ، وهـى

---

(١) آية رقم ١ منها (٢) الآية رقم ٢ منها

الملك ،والخلق ،والتقدير ، والاستغناء عن الولد والشريك ،

على أن المقارنة بين هذه الآية ، والآية التى تتلوها تظهر لنا مدى روعة الأسلوب القرآنى فى مناقشة المشركين ومحاجتهم فكأنه يريد أن يقول فى هذه الآيات : كيف ــ مع كل هذه الخصائص التى لله سبحانه وتعالى ــ يعبدون غيره ؟ :

" واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون ،ولايملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ،ولا يملكون موتا ولا حياة ولانشورا " (١)

ثم تمضى بنا السورة الى المقيدة الثانية وهى : النبوة ،فى تفصيل كبير ،تبلغ احدى وأربعين آية ، تبين لنا أهم اعتراضات المشركين على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ،وعلى رسالته التى جاء بها ، وعلى دليل هذه الرسالة ، وهو القرآن الكريم ، وتبين لنا رد القرآن على هذه الشبه والاعتراضات بما يقضى عليها ، ويبين زيفها .

على أن أهم هذه الشبه قولهم عن القرآن : انه افك افتراه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأعانه عليه قوم آخرون .

ويرد عليهم القرآن فى تحديد واضح لالبس فيه ،بأنهم جاءوا بذلك ظلما وزورا :

" فقد جاءوا ظلما " أى يجعل الصدق افكا ، والبرىء من الاعانة معانا ،"وزورا " أى باطلا لا مصداق له يعلمون من أنفسهم أنه باطل وبهتان " (٢)

ثم الشبهة الثانية ،وهى قول الكافرين : انها أساطير الأولين اكتتبها ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا .

---

(١) الآية رقم ٣ منها

(٢) محاسن التأويل للقاسمى جـ ١٢ صـ ٢٥ سورة الفرقان الآية : ٣و٥

وهذه قرية عظيمة من الكافرين، كبرت كلمة تخرج من أفواههم، فانهم يعلمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أميا لايقرأ ولا يكتب، وهم يعرفون مدى صدقه وأمانته، وبعده عن الكذب، وعن كل الصفات المهينة.

وأيضا يعلمون أن القرآن الكريم ليس فيه شيء من الأمور المعروفة لمروجي الأساطير والخرافات، بل هو ملىء بالأسرار التي لم يطلع عليها أحد الا من ارتضى من رسول.

وبه من البلاغة والفصاحة وحسن تبيان بل وبه من العقائد والتشريع مالايستطيع بشر الاتيان به.

ولذلك يرد عليهم القرآن بصورة لاتحتاج لكثير أدلة، باعتبار أن باطل شبهتهم واضح:

" قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض، انه كان غفورا رحيما " (١)

وتتوالى اعتراضات المشركين سخفا بعد سخف، وتزداد تهافتا بعد تهافت فيقولون:

" مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا؛

أويلقى اليه كنز، أوتكون له جنة يأكل منها، وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا؛

أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا " (٢)

ويجيب القرآن الكريم على الجزء الأول من هذه الشبهة بأنه: ما أرسل قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من المرسلين الا انهم ليأكلون

---

(١) الآية رقم ٦ منها (٢) الآيات رقم ٧و٨و٩ منها

الطعام ويمشون فى الأسواق .

وأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل فى ذلك .

ثم يجيب على الجزء الثانى من الشبهة بقوله :

" تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا " (١)

على أنه فى أثناء الرد على جزئى الشبهة تحدثنا السورة عن أمر الساعة ،وأنهم كذبوا بها ، وهو قد يكون اضرابا انتقاليا بعد أن وبخهم على حكايتهم السابقة الى توبيخهم على تكذيبهم بالساعة ،وبيان ما أعد لهم من العذاب .

وقد يكون عطفا على ماحكى عنهم ،على معنى بل أتوا بأعجب من ذلك وهو تكذيبهم بالساعة ،وأننا اعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ، فان تكذيبهم بها وعدم خوفهم منها أعجب من القول السابق .

على أنه من المسلم به أنه يقصد بأن الجواب على شبهتهم لن يدخل قلوبهم ،لأنهم يكذبون بالآخرة ،فينتهز هذه الفرصة ليصف لنا أمر الساعة وجزاء المكذبين بها ،وجزاء المؤمنين .

ثم تمضى بنا السورة الكريمة فى استعراض الشبه ونقضها وبيان كذبها :

" وقال الذين لايرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة ،أونرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا " (٢)

شبهة أحقر من كل الشبه التى سبقتها ،فلم يكتفوا بالأدلة من الرسول صلى الله عليه وسلم ،على نزول الوحى ،بل طلبوا أن يروا الملك النازل بالوحى ،أويروا الله سبحانه وتعالى الذى بعثه .

ولم يكن هناك أبلغ من رد القرآن عليهم :

---

(١) الآية رقم ١٠ منها (٢) الآية رقم ٢١ منها

" لقد استكبروا فى أنفسهم وعتو عتوًا كبيرا "

انها جرأة كبيرة منهم أن يعتبروا الله سبحانه وتعالى مثل بقية الماديات ،يمكن رؤيته بالعين ،وهو الذى لاتدركه الأبصار ،ولا تثبت أمام رؤيته السموات والجبال .

وأيضا بالنسبة للملائكة : فانهم يوم يرونهم لابشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون حجرا محجورا :

" ويوم يعض الظالم على يديه ،يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ،ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا .

لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا "(١)

ولكن هل ينفع الندم بشىء بعد أن أصبح كل ماعملوا من عمل : هباء منثورا ؟ .

ثم تمضى بنا السورة الكريمة تبين لنا شكوى الرسول صلى الله عليه وسلم ،من الكافرين :

" يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا "(٢)

ولكن الله سبحانه وتعالى يطمئنه ،ويبين له أنه سينتقم منهم ، ويهديه وينصره :

" وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ،وكفى بربك هاديا ونصيرا "(٣)

فكذلك انتقم الله سبحانه من قوم موسى ،وهارون ،ونوح .

وانتقم من قوم عاد وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك ،ودمر قوم لوط .

---

(١) الآيات رقم : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ منها (٢) الآية رقم ٣٠ منها

ثم تعود بنا السورة مرة أخرى الى بيان اعتراضات المشركين بقولهم :

" لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة "(١)

يريدون أن يشككوا فى القرآن لنزوله منجما فى سنين عديدة بأنه نزل مفرقا هكذا نظرا لصناعة الرسول صلى الله عليه وسلم ،ووضعه له ،ولكن الله سبحانه وتعالى ردّ عليهم وعكس قصدهم ، وبين لرسوله صلى الله عليه وسلم أن نزول القرآن كذلك أثبت لقلبه وأنفع له ،وللدعوة ،وأن التحدى يقع به سواء كان جملة ،أو آحادا فتكون حجة القرآن أكبر ،وأن يكون هناك تدرج وترقى فى العقائد ، والتشريع ،والأخلاق :

كذلك لنثبت به فؤادك ،ورتلناه ترتيلا "(٢)

ويستمر المشركون فى شبههم على رسول الله صلى الله عليه وسلم باتخاذه هزوا وقولهم :

" أهذا الذى بعث الله رسولا ؟

ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها "(٣)

كبرت كلمة تخرج من أفواههم : أيسمون ضلال الشرك وعبادة الأصنام هداية ،ونور الوحدانية ضلالا ؟

انّ التمرد على الضلال وعلى الاثم ،يصل فى النهاية بصاحبه الى استمرائه والى الايمان به ،ثم الدفاع عنه ؛

لقد وصل بهم الأمر الى أن اتخذوا الههم هواهم ، لقد أصبحوا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ،وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا :

" أرأيت من اتخذ الهه هواه ،أفأنت تكون عليه وكيلا ؟

---

(١) الآية رقم ٣٢ منها (٢) الآية ٣٢ منها (٣) الآية رقم ٤١ ، ٤٢ منها

" أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أويعقلون ،ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا " (١).

ولكن بعد هذه الحجج التى ساقها لنا القرآن الكريم ، على العقائد الثلاث :

التوحيد ـ النبوة ـ الجزاء فى الآخرة .

هل اقتنع المشركون بها ؟ أم استمروا على عنادهم الفارغ ،واستكبارهم المتمكن من نفوسهم ؟

ان المشركين استمروا على هذا العناد ،وهذا الاستكبار رغم أن القرآن كان واضحا كل الوضوح فى دلائله وفى انارة العقائد التى جاء بها .

وهذا ما تظهره لنا الآيات التالية :

" ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس الا كفورا ؛

ولوشئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا ؛

فلاتطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا ؛

وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات ،وهذا ملح أجاج ،وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ؛

وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ؛

ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولايضرهم ،وكان الكافر على ربه ظهيرا ؛

وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا ؛

قل ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا ؛ وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده ،وكفى به بذنوب عباده خبيرا ؛

الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسئل به خبيرا ؛

---

(١) الآيات رقم ٤٣ ، ٤٤ منها

واذا قيل لهم أسجدوا للرحمن ،قالوا : ومالرحمن ؟ أنسجد لمـــا تأمرنا وزادهم نفورا "(١)

لقد ألقت الينا تلك الآيات بالضوء الواضح على نفسية المشركين :

" ألم تر الى ربك كيف مدّ الظلّ ،ولوشاء لجعله ساكنا ، ثـــم جعلنا الشمس عليه دليلا ؛ ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا ؛

وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا ،وجعل النهار نشورا ، وهوالذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ،وأنزلنا من السماء ماء طهـــورا ؛ لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا "(٢)

لقد أعاد الله سبحانه وتعالى على الناس هذا القول ليذكروا ،فأبى أكثر الناس الا كفورا .

ومع ذلك : فان الآيات تطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم ،ألا يساير الكافرين ولايستسلم لهم ولايركن الى اليأس لمعاندتهم وكبرهم :

" فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا "(٣)

" وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا "؛

قل ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا ؛

وتوكل على الحىّ الذى لايموت وسبح بحمده ،وكفى به بذنوب عباده خبيرا "(٤)

أربع آيات تحدد لنا الموقف الذى طلبه الله سبحانه وتعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم ،أن يتخذه من المشركين فى دعوتهم الى الاسلام ،وترســـم له منهجا لمحاجتهم وهدايتهم .

وبعد هذه الافاضة فى بيان ماعليه المشركون وذكر شبههم وتقرير الـــرد عليها ،ترسم لنا السورة صورة مثلى لعباد الله المخلصين ،وتجعلها الغايـــة من الايمان ومن نزول القرآن الكريم .

---

(١) الآيات من رقم ٥٠ حتى ٦٠ منها
(٢) الآيات من رقم ٤٥ حتى ٤٩ منها
(٣) الآية رقم ٥٢ منها
(٤) الآيات رقم ٥٦ ــ ٥٨

فتمضى بنا السورة الى صفات عباد الله الحقيقيين ، وما يجب أن يتحلوا به من قيم ، هى تطبيق عملى لعقائد الاسلام التى سبق ذكرها مما لا يجعل من الاسلام مجرد فلسفة نظرية ، بل علم وعمل يؤثر على الفرد وعلى الجماعة .

وأول هذه الصفات التواضع ومقابلة السيئة بالحسنة :

" وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما "(١)

ثم تأتى العبودية لله سبحانه وتعالى وهى أشرف صفات المخلوقين :

" والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما "(٢)

ثم يأتى بعد ذلك الخوف من الله سبحانه وتعالى ، ومن عذابه على الرغم من اجتهادهم فى عبادة الله سبحانه وتعالى :

" والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، ان عذابها كان غراما ، انها ساءت مستقرا ومقاما "(٣)

ثم النهى عن الاسراف والبخل مما يكون فيه صلاح الدنيا وعمارتها ، وصلاح المجتمع والفرد :

" والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما "(٤)

ثم انهم لا يشركون مع الله أحدا حيا أو ميتا ، لأن كل ماعداه لا يضر ولا ينفع :

" والذين لا يدعون مع الله الها آخر "(٥)

وفى نفس الآية : وضع قتل النفس ، والزنا ، بجوار الكفر بالله ، مما يدل على عظم تأثير ضرر القتل والزنا على الفرد وعلى الجماعة ، يكاد يبلغ تأثير الكفر بالله ؛ فان هذه ليست من شيم العباد الخلص للرحمن ، فان من يفعل

---

(١) الآية رقم ٦٣ منها (٢) الآية رقم ٦٤ منها (٣) الآية رقم ٦٥ و ٦٦ منها
(٤) الآية رقم ٦٧ منها (٥) الآية رقم ٦٨ منها

ذلك يلق أثاما ،ويضاعف له العذاب :

" ولايقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولايزنون ،ومن يفعل ذلك يلق أثاما ،يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا "(١)

على أن السورة الكريمة رغم ذلك تفتح لنا باب المغفرة بثلاث شروط هى :

التوبة ـ والايمان ـ والعمل الصالح :

" الا من تاب وآمن وعمل صالحا ،فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما " .

" ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا "

ومن صفات عباد الرحمن أيضا : أن لايحضروا باطلا ولايساعدوا عليه ، وأن ينكروه حتى لايكون له أبلغ الأثر على المجتمع ، وحتى الأمر الذى يكون فى نفوسهم قليل الأهمية فعليهم أن يجتنبوه ويتعاونوا فيما بينهم على الحق ،ولايكون الزور أساس حياتهم .

واذا اتفق مرورهم بأهل اللغو مروا معرضين عنهم ،ولايخوضون معهم فيه ؛ كما قال الله تعالى فى سورة القصص :

" واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ،وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلين "(٢)

" والذين لايشهدون الزور ،واذا مروا باللغو مروا كراما "(٣)

ثم تستطرد السورة الكريمة فى وصف عباد الرحمن بمايناقض وصفها للمشركين بما قيل ، فتصفهم بأنهم اذا ذكروا بآيات ربهم أقبلوا عليها وانتبهوا لها ،واهتموا بها أبلغ اهتمام :

" والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا "(٤) .

---

(١) الآية رقم ٦٩ منها
(٢) سورة القصص آية : ٥٥
(٣) الآية رقم ٧٢ من الفرقان
(٤) الآية رقم ٧٣ منها

ثم تقول السورة الكريمة في صفات عباد الرحمن :

" والذين يقولون ربنا هب لنا من أزوا جنا وذرياتنا قرة أعين ،واجعلنا للمتقين اماما "(١)

فمن الطبيعي أن تكون من صفات عباد الرحمن أن يدعوا الله سبحانه وتعالى أن يرزقهم ذرية صالحة ،وأزواجا صالحات قانتات حافظات للغيب ، وأن يطلبوا من الله سبحانه وتعالى أن يساعدهم على تقواهم ويجعلها في درجات عالية بحيث تكون قدوة لغيرهم ،فان الصالح يحب أن تعيش في بيته صالحة خاصة مع أقرب الناس من ولد وزوج ،ويحب أيضا أن تزيد رفعته ودرجته عند الله بكثرة عبادته وصلاحه .

ثم تمضي الى ختام صفات عباد الرحمن التي ذكرتها السورة وهي الجزاء المنتظر للعباد الموصوفين بهذه الصفات :

" أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما "(٢)

ثم يختتم الله سبحانه وتعالى السورة بأبلغ عبادة ،تعد دستورا يجب أن يقال في كل مناسبة تستدعي الانذار والتبشير .

فانه لولا الايمان وطاعة الله سبحانه وتعالى ،واللجوء اليه في الشدائد لما أكترث الله سبحانه باي فرد ؛

فالعبادة هي لمصلحة العابد نفسه ،ولاتغني الله شيئا :

" قل مايعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم ،فقد كذبتم فسوف يكون لزاما "(٣)

---

(١) الآية رقم ٧٤ منها (٢) الآية رقم ٧٥ ،٧٦ منها .

(٣) الآية رقم ٧٧ منها ،والى هنا تكون السورة قد أتت على مقاصد دعوة الاسلام كاملة : من العقيدة بأجزائها الثلاثة : التوحيد ، والنبوة ،والبعث ، والعبادة وهي علاقة الفرد بربه ،والمعاملة ،وحتى علاقة الفرد بأخيه ،ورسمت السورة الفاضلة لما عليه المؤمن : عقيدة ،وعبادة ،وعملا .

مقدمة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين .

" ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيئ لنا من أمرنا رشدا "

وبعد : فيقول الله تعالى :

" انا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها ، باذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر "(١)

فى ليلة مباركة هى ليلة القدر ، والشرف والرفعة ، من شهر مبارك هو شهر رمضان المعظيم نزل جبريل عليه السلام ، مبشرا بابتداء فجر جديد للانسانية ، وقد ابتدأ هذا الفجر بقوله تعالى :

" اقرأ باسم ربك الذى خلق .... "

وبهذه الآيات المباركة فى هذه الليلة التى تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر ، والتى سلام هى حتى مطلع الفجر ، كانت رسالة وكان رسول : كانت رسالة هى خاتمة الرسالات ، وكان رسول هو خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم .

وعن هذه الرسالة الشريفة ، وعن هذا الرسول صلى الله عليه وسلم ، تتحدث سورة الفرقان : انها تتحدث عن الرسالة من حيث الالهية ، ومن حيث الأخلاق ، ومن حيث البعث ، ومن حيث الاطار الذى احتواها ، وهو كتابها المقدس : القرآن الكريم .

وتتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتثنى عنه صلوات الله وسلامه عليه ، مزاعم المنحرفين التى واجهوه صلى الله عليه وسلم بها .

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منذ أن بدأ الوحى فى غار حراء ،

أخذ فى الدعوة الى الله ،وبدأ بها فى صورة طبيعية .

لقد تحدث بها الى من يثق فى طهارة قلوبهم ، وكان أولهم استجابة تلك الطاهرة النقية التى تعرفه عن قرب ،وتحبه على بينة من أمره : السيدة خديجة رضوان الله عليها ؛ لقد استجابت بمجرد سماع النبأ وقالت فى فورية لاتباطؤ فيها :

" كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ،وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ،وتعين على نوائب الحق "

وكانت بذلك أول المسلمين ،وكانت أول المسلمات ،وكانت جديرة بالمستوى الذى أنزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه من قلبه : ثقة وحبا .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد آمنت بى حين كفر الناس ، وأشركتن فى مالها حين حرمنى الناس ،ورزقنى الله ولدها وحرمنى ولد غيرها "(١)

وأسلم أبوبكر رضى الله عنه بمجرد أن أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بخبر نبوته .

لم يتلجلج ولم يتشكك ،ولم يطلب معجزة أو آية ، وكان أول من أسلم من الرجال ،يقول صلوات الله وسلامه عليه : " ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت عنده كبوة وتردد ونظر ،الا أبابكر ، ماعكم عنه حين ذكرته ولاتردد فيه "(٢)

وأسلم سيدنا على وهو مازال بعد غلاما لم يلوث قلبه شرك ، ولم تستعبده عادات الجاهلية .

وهؤلاء لم يطلبوا دليلا ولامعجزة ولا آية ، وانما كانت معرفتهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ،أوثق دليل على صدق مايقول .

ومرت هذه الفترة الأولى للدعوة هادئة .

---

(١) سير اعلام النبلاء

(٢) عكم ،أى تلبث ،والحديث ذكره ابن اسحاق عن محمد بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن الحصين التميمى .

ولكن الصراع بدأ منذ أن أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة وجهر بالدعوة وكان الصراع فى جميع ميادين المجتمع ومجالاته الروحية .

انه صراع الايمان ضد الشرك ، وصراع الحق ضد الباطل ، وصراع النور لتتقشع سحب الظلمة ، وصراع اليقين ليقتلع جذور الشك .

وكانت أولى نقط الخلاف والأساس الجوهرى للصراع هى مادعا اليه الرسول صلى الله عليه وسلم من عقيدة التوحيد .

لقد قال المشركون فى سذاجة عنيدة :

" أجعل الآلهة الها واحدا ؟ ان هذا لشىء عجاب " .

وقالوا فى بلادة ذهنية واضحة :

" ان نتبع الا ما وجدنا عليه آباءنا " .

ويقول لهم القرآن فى صورة من التهكم المنطقى اللاذع :

" أولوكان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون "

ولقد استفاض القرآن استفاضة لاتكاد تحد فى اثبات التوحيد وتحدث عنه فى صور مختلفة من الأساليب :

لقد استعمل أسلوب الاخبار التقريرى المسوق ، وأسلوب السخرية الضاحكة من الشرك ، وأسلوب المنطق الاقناعى ، وأسلوب المنطق البرهانى ، وأسلوب الأخبار التاريخية ، وأسلوب الردع الذى يبين الجزاء العنيف الذى أصاب من كذب بالتوحيد .

والاسلام دين التوحيد ، والقرآن يثبت أن التوحيد هو مركز الدائرة فى رسالات الأنبياء السابقين :

ان لا اله الا الله عقيدة خالدة ثابتة قبل خلق الكون ، وباقية بعد أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؛ وقد تحدثت عنها سورة الفرقان

في قوة ، وتحدثت عنها منذ الآية الثانية مباشرة ؛ ان الله سبحانه وتعالى يقول :

" تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ،

الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا ،

واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرّا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا "(١)

وتتحدث عنه السورة الكريمة فيما بعد :

" ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ، فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ؟ أم هم ضلّوا السبيل ؟ ،

قالوا سبحانك : ماكان ينبغى لنا أن نتّخذ من دونك من أولياء ، ولكن متّعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ،

فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ، ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا "(١)

ويقول سبحانه أيضا :

" ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ، وكان الكافر على ربه ظهيرا "(٣)

ويذكر سبحانه أن من صفات عباد الرحمن أنهم :

لا يدعون مع الله الها آخر .

ومع كل ذلك فان الكثير من آيات السورة الكريمة تشير الى التوحيد من قرب أو من بعد ، فمثلا :

---

(١) الآية رقم : ١ ، ٢ ، ٣ منها (٢) آية رقم ١٧ ، ١٨ ، ١٩ منها
(٣) آية : ٥٥ منها

" وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات ،وهذا ملح أجاج ،وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ".

وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا ،وكان ربك قديرا "(١)

ألا يشبه ذلك مثلا :

" أمن جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ،وجعل لها رواسى ،وجعل بين البحرين حاجزا ،أإله مع الله ؟"(٢)

واذا تحدث الناس عن التوحيد ،فان ذهنهم ينصرف مباشرة الى نفى التعدد فى الذات الالهية ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وهذا المعنى هو من معانى التوحيد ،بيد أن التوحيد فى التوجيه القرآنى أوسع دائرة ،وأعمق أثرا :

فالتوحيد الحق : هو القاء العنان كلية الى الله تعالى .

القاء العنان فى الأمر : عملا ،وأداء ،واستجابة فورية ،وأعلى مراحل حسبما يقتضيه الأمر .

والقاء العنان فى النهى : الامتناع الراضى عن كل ما نهى الله تعالى عنه .

ان مما يصور التوحيد الحق فى النظرة الاسلامية قوله تعالى :

" اياك نعبد ،واياك نستعين "

ان العبادة لله وحده ،واذا كانت العبادة لها معناها المعروف ،فان فى مفهوم هذا المعنى ،اذا نظرنا اليه بصورة أعم وأشمل ،أن كل ما يستعبد الانسان فيخضع له الانسان ويطيع ، فهو معبود ،والخضوع له عبادة ،ان الله سبحانه وتعالى يقول :

" أرأيت من اتخذ الهه هواه ؟ فأنت تكون عليه وكيلا ؟"(٣)

---

(١) الآية : ٥٢ ، ٥٣ منها (٢) الآية : ٦١ من سورة النمل
(٣) الآية : ٤٣ منها

فالهوى اذا أطاعه الانسان اله ؛

ومن الناس من يستعبده حب الثروة ، أو حب الشهرة ، أو حب الجاه والمنصب ، أو حب الملذات ، فتكون الها ، ويكون هذا الحب والخضوع ، والطاعة ، والجرى وراء هذه الألوان من الشهوات عبادة ؛ ونعود فنقول :

انها عبادة بالمعنى العام الشامل ، ولكن التوحيد الحق هو أن يقتضر الخضوع لله وحده ، وأن يسلم الانسان وجهه لله وحده ، ورسوله الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به "(١)

أما " واياك نستعين فهي تقصر الاستعانة على الله وحده ، وما يفسر ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه وذلك فيما أخرجه الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم يوما فقال : ياغلام ، انى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ،

اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف "(٢) ،

وفى رواية أخرى :

" احفظ الله تجده أمامك ، تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا " ،

---

(١) رواه فى شرح السنة وصححه النووى فى أربعينه وقال : رويناه فى كتاب الحجة باسناد صحيح .

(٢) أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

ولقد تحدث الاسلام فى مجال التوحيد ، عن الشرك الأصغر ، والله سبحانه وتعالى يقول : فى حديث قدسى :

" فيما رواه أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله عز وجل :

" أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو للذى أشرك "(١)

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن شداد بن أوس رضى الله عنه :

" من صام يرائى فقد أشرك ، ومن صلى يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك "(٢)

ومن هنا كان الاخلاص هو الفضيلة التى تنبثق مباشرة عن التوحيد ، عن : لا اله الا الله ، عن " اياك نعبد واياك نستعين " ، والله سبحانه وتعالى يقول :

" الا لله الدين الخالص "

ولعلنا اذا تأملنا فى معنى كلمة الدين هنا ، نجد أنها كذا تكون العقيدة تكون الأعمال ، فما لم تكن الأعمال خالصة فليس لله فيها نصيب ، انه سبحانه لايثيب عليها ولا يتقبلها ، وانما تلف وتطرح فى وجه صاحبها غير مقبولة .

عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ان الله تعالى لايقبل من العمل الا ماكان له خالصا وابتغى به وجهه "(٣)

والله سبحانه وتعالى — كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم —

---

(١) رواه ابن ماجه واللفظ له ، وابن خزيمة فى صحيحه والبيهقى ، ورواه ابن ماجه بقات .

(٢) رواه البيهقى (٣) أخرجه النسائى وقال حديث حسن .

" لاينظر الى صوركم وأموالكم ولكن انما ينظر الى أعمالكم وقلوبكم "(١)

وفى رواية أخرى :

" ان الله لاينظر الى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم "

ويبتدىء التوحيد الخالص ،ويبتدىء الاخلاص مباشرة من البدء الأول فى الأعمال ، وهو النية ؛ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمارواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

" انما الأعمال بالنيات ،وانما لكل امرىء مانوى ،فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ،ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أوامرأة ينكحها فهجرته الى ماهاجر اليه "(٢)

واذا فهم التوحيد على حقيقته هذه العامة الشاملة ،آمن الانسان بأنه لا رازق الاالله ، ولامعطى ولامانع الا الله ،ولانافع ولا ضار الا الله ، النعم كلها منه ،انه مالك الملك ،كل الملك ،فى جملته وفى تفاصيله :

" قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ،وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعزّ من تشاء ، وتذلّ من تشاء بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير "(٣)

واذا آمن الانسان بذلك تحرر من كل استعباد لبنى البشر ،ان المؤمن الصادق الايمان هو الحر ، انه حرّ من الشهوات فلا سيطرة لها عليه ،وهو حرّ من الاستعباد للآخرين : الطغاة والجبارون ،لايملكون مع الله شيئا ، الله إ يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

" ليس لك من الأمر شىء "

ويقول سبحانه :

" اليه يرجع الأمر كله "

---

(١) حديث صحيح أخرجه الامام مسلم وابن ماجه فى سننه

(٢) رواه البخارى ومسلم ،وأبوداود والترمذى والنسائى . (٣) آل عمران ٢٦

وعقيدة البعث من العقائد التى لها أثرها الكبير فى المجتمع ،فهى سلوى للمؤمنين بها اذا مرت بهم ساعات من الضيق والشدة فى هذه الحيـــاة ، وهى باعث قوى للتخلى عن الشرور ،وهى حافز من أعظم الحوافز لتوجيه الناس الى العمل الصالح ،مرضاة لله تعالى حين لقائه ،وللجزاء الحسن الذى ينتظر المتقـــين .

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون كتابتى عن البعث اسهاما فى نشر الخير فى المجتمع .

وتحدثت سورة **الفرقان امتزاجا** بعضهما أحيانا ،فكانا كأنهما شـــىء واحد ،وتحدثت عنهما أحيانا أخرى كل على حده ،وهما : القرآن الكريـــم ، والرسول صلى الله عليه وسلم :

انها بدأت بقوله سبحانه وتعالى :

" تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا "

انه الثناء الجميل على الله سبحانه وتعالى ،لانزاله للقرآن الذى يهـدى للتى هى أقوم ، لانزاله لهذا الكتاب العزيز المبارك الذى لايأتيه الباطـــل من بين يديه ولا من خلفه ،والذى من تركه من جبار قصمه الله ،ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ؛

انه حبل الله المتين ؛ والصراط المستقيم ؛ لن يضل من اهتـــدى به ،ولا يهتدى من انحرف عنه ؛ أنزله الله هداية للعقل ،وللانسانية ،مبشـــرا ونذيرا ،فتبارك سبحانه على هذا الفضل العظيم .

وتتحدث السورة الكريمة عما قال المشركون فى الرسول صلى الله عليـــه وسلم ، والقرآن الكريم :

" وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا "

وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا "(١)

ويرد الله سبحانه وتعالى عليهم بآية كريمة تتمثل فيها عظمة الربوبية ، ويتجلى فيها جلال الألوهية ؛ انه يرد بقوله :

" قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض "

ثم يضيف سبحانه فاتحا الأبواب للتائبين المنيبين فيقول :

" انه كان غفورا رحيما "(٢)

واثبات النبوة من المسائل التى استفاض فيها القرآن كثيرا ، لأن التصديق بها أساس الهداية ، وقد بدأ باثباتها الرسول صلى الله عليه وسلم لأول جهره بالدعوة .

انه صلوات الله وسلامه عليه لم يبدأ الا باثبات صدقه ، وتحدى السامعين بالصدق .

والسورة الكريمة تتحدث عن نظرات المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى نظرات كلها مادية انها لاتتجه الى السمو الروحانى ، ولا الى الأفق الأعلى ، وانما تنظر الى الأرض ، وتتجه الى المادة .

انهم لاينظرون الى الدعوة فى ذاتها ، لاينظرون الى ما أتت به من فضائل ومن خير ، ومن صلاح ، وانما :

" وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ؛

أويلقى اليه كنز أوتكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا "(٣)

ويرد الله سبحانه وتعالى عليهم بعدة ردود منها :

---

(١) الفرقان آية ٤ ، ٥ (٢) الآية رقم ٦ منها

(٣) الآية رقم ٧ ، ٨ منها .

" أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا "(١)

ومنها :

" تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ،ويجعل لك قصورا "(٢)

ولكنه يرد عليهم فى حسم فيقول :

" وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا "(٣)

ويتحدث المشركون عن القرآن الكريم فتكون نظرتهم أيضا هى النظرة السطحية انهم لاينظرون الى الموضوع والجوهر ،وانما :

" وقال الذين كفروا لونزل عليه القرآن جملة واحدة "

ويرد الله سبحانه وتعالى عليهم فيقول مبينا ومفسرا :

" كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا "(٤)

وتتجلى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله هذه العناية الكريمة التى أحاطت الرسول عليه الصلاة والسلام منذ ميلاده بل من قبل ميلاده الى أن انتقل الى الرفيق الأعلى ،تتجلى فى قوله تعالى :

" ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا "(٥)

وفى اثبات النبوة تثبيت للايمان وتقوية له ،وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يجعل حديثى عن النبوة مساهمة فى هذا الاتجاه .

ولقد ركزت السورة الكريمة على صفات عباد الرحمن ،وامتزجت فى هذه الصفات : العقائد بالأخلاق ،بالسلوك ، وكونت وحدة جميلة فى اتحاد هذه الزوايا من السلوك والعقائد والخلق .

والأساس الأصيل أنهم لايدعون مع الله الها آخر ،بيد أن هذا

---

(١) آية ٩ منها
(٢) آية ١٠ منها
(٣) الآية رقم ٢٠ منها
(٤) آية ٣٢ منها
(٥) الآية : ٣٢ منها .

الأساس لم يبتدىء الله سبحانه وتعالى فى مفتتح الحديث عن صفاتها ، وانما بدأ ارتباط عباد الله بالمادة ، انما هو ارتباط هون : هين ضعيف ؛

انهم يمشون على الأرض هونا ، أما غيرهم فانهم يرتبطون بالأرض وكأنهم مصفدون فيها ؛ ومن أجمل مايفسر ارتباط الماديين بالمادة وبالأرض قوله تعالى :

" واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ،ولوشئنا لرفعنا بها ،ولكنه أخلد الى الأرض ، واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث ،أوتتركه يلهث ،ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون "(١)

ومادام عباد الرحمن يمشون على الأرض هونا ،فان قلوبهم متفتحة الى كل خير متطلعه الى السماء ؛

ان قلوبهم تهفو الى الله ،تحبه لاتدعو سواه ،انهم لايدعون مع الله الها آخر ،من ولد ،أوندّ ، تعالى الله عن ذلك ،أوثروة ،أوجاه ، أومنصب ، ولكنهم يعيشون لربهم سجّدا وقياما .

وهم لايطمحون فى الأدنى من المراتب أوالأقل منها ،بل ولايطمحون فى الوسط منها ،وانما يطمحون فى امامة المتقين ،فى الذروة من المتقين ،ويدعون ربهم قائلين :

" واجعلنا للمتقين اماما "

وتكون نهايتهم ماتحدث الله سبحانه وتعالى عنهم :

" أولئك يجزون الغرفة بماصبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ،خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما "(٢)

وهذا الامتزاج فى صفات عباد الرحمن بين العقيدة ،والسلوك ،والأخلاق

---

(١) الآية : ١٧٥ ، ١٧٦ من سورة الأعراف (٢) الآية : ٧٥ ، ٧٦ منها .

والنظرة الى هذه المسائل كوحدة واحدة ، هو مايجب أن يسود المجتمعات الاسلامية من نظرات فى التعليم ،وفى التشريع ،وفى الثقافة على وجه العموم ،الأساس هو :

" لا آله الا الله "

واذا ماوجد هذا الأساس لايرتبط الانسان بالمادة ارتباط الجسد المستعبد ،ولايشهد الزور على أى وجه كان هذا الزور ، وبأى صورة تشكل ، والمطمح هو :

" واجعلنا للمتقين اماما " .

وبعد : فهذه المسائل تحدثت عنها السورة الكريمة مبينة وجه الحق فيها وعالجت بذلك أمراضا وانحرافات فى مجتمع الجاهلية لتخرجه بها من الظلمات الى النور من الجاهلية الى الاسلام.

وأمراض الجاهلية الأولى هى نفس الأمراض عند بعض الناس الذين تأثروا بالثقافة اللادينية التى يتسم بها الغرب ،والتى يصدرها متعمدا الى شرقنا الاسلامى فى صورة تيارات فكرية أوثقافية ـ زعموا ـ متقدمة ،أوتقدمية ـ كما يتوهمون ـ لابد منها .

وعندنا أقلام مأجورة ،وأموال مبذولة ،وخداع مرئى ومسموع ،وأباطيل على كل لون ،تريد أن تغشى على أعين المسلمين ،فلايرون الحق فى وضوح .

والهدف من كل ذلك لدى أعداء الاسلام ،انما هو تحويل المسلمين عن مصادر الحق والخير والعدالة :

المصادر الالهية من قرآن وسنة ،ولو أمكنهم أن يزيلوا القرآن الكريم من الجو الاسلامى لأزالوه ،غير مترددين ،ولكن الله تعالى ضمن حفظه منارة

خالدة تشع بالنور الدائم لمن أحب الهداية وأراد الطريق المستقيم :

" انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون "(١)

ولقد حاولت ماستطعت الى ذلك سبيلا أن ألقى بعض الأضـــواء من خلال هذه السورة الكريمة مهتديا بأنوارها على أنوار المشاكل التى يفكـــر فيها كثير من الشباب فى العصر الحاضر ،والتى تكون عادة مصدر قلق وحيرة لهم .

وأرجو أن يكون عملى حصنا من الحصون التى يهيئها الأزهر الشريـــف للوقوف فى وجه الغزو الفكرى الذى يجتاح :

فى تخطيط وتصميم غربى ـ الأقطار العربية لاخراجها من نـــور القرآن الكريم وهدايته ،الى ظلمة الانحراف ، وماتوفيقى الا بالله .

وانى لأشكر أستاذنا الجليل الكبير فضيلة الشيخ أحمد الكومـــى ، فقد عاوننى معاونة صادقة ،فى التوجيه ،والارشاد ،والتنبيه الى المراجـــع ، وتصحيح ماعساه أن يكون من خطأ .

فشكر الله له وجزاه الله عنى خير الجزاء .

---

(١) آية : ٩ من سورة الحجر .

البـــــــاب الأول

١ = العقيـــــــدة الوثنيـــــة

٢ = التوحيد جوهر الشريعـــة الاسلامية

٣ = فضل الله على العباد وتنزهه عن المماثلة

الفصـــــل الأول

العقيـــدة الوثنيـــة

الفصـــــل الأول

" العقيدة الوثنيـــــة "

تبتدئ السورة الكريمة ـ أول ماتبتدئ ـ ببيان عقيدة التوحيـــد وتوضيحها توضيحا لا لبس فيه ،مبينة خصائص الألوهية ،وهى : الملك ،والخلق والتقدير ،والاستغناء عن الولد والشريك .

" تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، الـذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شـــىء فقدره تقديرا "(١)

ثم تقارن السورة هذه الخصائص بعقيدة الشرك ، والوثنية مبنيـــة فساد هذه العقيدة .

" واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون ،ولايملكون لأنفسهم ضرا ولانفعا ولايملكون موتا ولاحياة ولانشورا "(٢)

ومع أن عقيدة الشرك والوثنية ، المذكورة فى الآية جاءت بعد عقيدة التوحيد فى الترتيب فاننا نقدم هذا الفصل عن عقيدة الوثنية حتى تتضح الصورة وضوحـا كاملا بالنسبة لعقيدة التوحيد ،ويظهر لنا فساد عقيدة الوثنية فتأتى بعد ذلك عقيدة التوحيد كالنتيجة لموقف سورة الفرقان من الألوهية .

تعريف العقيدة الوثنية :

هل العقيدة الوثنية تدخل فى نطاق التعريفات لكلمة دين ؟

وهل هى تعتبر دينا من الأديان ؟

عند ما نستقرئ أشهر التعريفات للدين ، وقد عدّدها الدكتـور محمد عبدالله دراز فى كتابة الدين ونذكر أهمها ،يقول :

" أما الاسلاميون فقد اشتهر عندهم تعريف الدين بأنه : " وضع

---

(١) الآية رقم ١ ، ٢ منها (٢) الآية رقم ٣ منها

الهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم الى الصلاح فى الحال والفلاح فى المال ، ويمكن تلخيصه بأن تقول :

الدين وضع الهى يرشد الى الحق فى الاعتقادات ،والى الخير فى السلوك والمعاملات .

وأما الغربيون فلهم فى ذلك تعبيرات شتى ، وهذه نماذج منها :

يقول سيسرون فى كتابة " عن القوانين " :

" الدين هو الرباط الذى يصل الانسان بالله "

ويقول كانت فى كتابه (الدين فى حدود العقل) :

" الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر الهية "

ويقول سلاير ماخر فى (مقالات عن الديانة) .

" قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة " .

ويقول الأب شافل فى كتاب (قانون الانسانية)

" الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق ؛

واجبات الانسان نحو الله ، وواجباته نحو الجماعة ، وواجباته نحو نفسه .

ويقول تايلور فى كتاب (المدينات البدائية) :

" الدين هو الايمان بكائنات روحية "

ويقول اميل برنوف فى علم الديانات :

" الدين هو العبادة ، والعبادة عمل مزدوج ، فهى عمل عقلى به يعترف الانسان بقوة سامية ، وعمل قلبى ،أوانعطاف محبة يتوجه به الى

رحمة تلك القوة "

ويقول اميل دوركايم :

" الدين مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة (أى المعزولة المحرمة) اعتقادات وأعمال تضم أتباعها فى وحدة معنوية تسمى الملة (١)

عند ما نستقرئ هذه التعريفات ، نجد أنها حصرت تعريف الدين فى نطاق الأديان السماوية ذات الآلـه الواحد ،ولم تشمل تعريف الديانـات الوثنية وغيرها ، من الديانات الناتجة عن الخرافات والأساطير ،بل ان منهـا من لم يتعرض للألوهية فى تعريفه على الاطلاق كما فعل اميل دوركايم فى تعريفـه عن الدين .

فاننا اذا نظرنا فى تعريف الاسلاميين نجد أنه لايضم سوى الاعتراف بعقيدة الآلـه الواحد ،وبأنه وضع الهى ،أى آت من عند الآلـه الواحد مساند لـذوى العقول السليمة باختيارهم الى الصلاح فى الحال ،والفلاح فى المآل .

وهو مما لاينطبق بحال على العقيدة الوثنية .

واذا نظرنا الى تعريفات الغربيين وتعبيراتهم الشتى ، نجد تعريف (سيسرون) :

" الدين هو الرباط الذى يصل الانسان بالله "

نجد أيضا أن العقيدة الوثنية تخرج من نطاق هذا التعريف ، فانه اشترط الرباط الذى يصل الانسان بالله الواحد .

وكذلك تعريف كانت (الدين هو الشعور بواجباتنا :

" من حيث كونها قائمة على أوامر الهية " اشترط التعريف وجود

(١) كتاب الدين للدكتور محمد عبدالله دراز ص٢٦ الى ص٢٨

آدمى الهى فقط للقيام بواجباتنا .

أما تعريف سلاير مانر :

" قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة "

فانه يقرب بعض الشيء من التعريف الذى نريده ، ولكن ينقصه الكثير لتحديد المطلوب وينقصه الكثير حتى بالنسبة لتعريف ديانات التوحيد .

وبالنسبة لتعريف الأب شاتل :

" الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق : واجبات الانسان نحو الله ، وواجباته نحو الجماعة ، وواجباته نحو نفسه .

نجد أن هذا التعريف يبعد فى أساسه عن التعريف الذى نريده فانه لم يحدد لنا مدى انطباق هذه الواجبات نحو الخالق على واجبات عابد الوثن ؟ ، وهنا أيضا يحدد التعريف : الاله بأنه الخالق ، وهذا ينطبق على الاله الواحد .

أما تعريف تايلور : " الدين هو الايمان بكائنات روحية" ، فهو لاينطبق على الاطلاق على مرادنا من شمول التعريف للعقيدة الوثنية بل قد لاينطبق تمام الانطباق فى الأساس ولا فى التفاصيل على ديانة التوحيد .

أما تعريف اميل برنون : " الدين هو العبادة ،والعبادة عمل مزدوج " ،فهى عمل عقلى به يعترف الانسان بقوة سامية وعمل قلبى أوانعطاف محبة يتوجه به الى رحمة تلك القوة "

فانه لايحدد لنا مفهوم تلك القوة السامية التى بها يعترف الانسان بصورة واضحة تجعل العبادة مجرد عمل عقلى أوانعطاف محبة .

واذا جئنا الى تعريف الملحدين ،وأشهر من يمثلهم اميل دوركايم :

" الدين مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء

المقدسة (أي المعزولة المحرمة ـ اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة) .

نجد أنه يعرف الدين على أساس الوثنية أو الطوطم فقط ، ولا يذكر الألوهية على الاطلاق ، ونحن نريد تعريفا يشمل المقيدتين مما بحيث تنطبق عليهما كلمة دين .

وبعد أن استقرأنا التعريفات السابقة وجدنا أنها حصرت تعريف الدين في نطاق الأديان السماوية ، ذات الاله الواحد ، ولم تشمل الديانات الوثنية ، وغيرها من الديانات الناتجة عن الخرافات والأساطير بل ان منها من لم يتعرض للألوهية على الاطلاق في تعريفه .

التعريف الذي نرتضيه :

اذا قرينا من نطاق التعريفات الوضعية للدين ونظرنا في القرآن نجده يعبر عن جميع المعتقدات غير الاسلام بلفظ دين :

" ومن يبتغ غير الاسلام دينا " (١)

بل انه يخاطب الكافرين بلفظ دين :

" لكم دينكم ولي دين " (٢)

وفي الآية التي نحن بصدد دراستها تعبير عن معبودات الكافرين بلفظ آلهة :

" واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا " (٣)

ويؤيد كل ذلك : أن هذه المعبودات التي كان يتخذها المشركون لم تكن تعبد لذاتها ، بل كانت واسطة بينهم وبين الاله المعبود :

---

(١) آل عمران : آية ٨٥ (٢) الكافرون آية : ٦

(٣) الفرقان : آية : ٣

" ومانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى "(١)

بل ان معظم أبحاث العلماء فى نفسيات وطبائع الشعوب البدائية أظهرت أنهم لايقدسون الأشياء المعبودة الظاهرة المحسوسة لهم ،أويعبدونها ، لذاتها بل انهم يقدسونها لكونها رمزا لشىء عظيم ،ومقدس عندهم ، أو لأنها تعويذة تبعد عنهم شرورا ،أوتجلب لهم نفعا ،وأنهم جميعا يؤمنون بقوة أعلى ،وأن هذا الشىء المحسوس ليس الا مظهرا لها .

ومن هذا المنطلق : فاننا نرتضى تعريف الدكتور محمد عبدالله دراز ، لأنه يشمل كل ما من شأنه أن يسمى دينا .

" الدين هو الاعتقاد بوجود ذات أوذوات غيبية ،علوية ، لها شعور واختيار ، ولها تصرف وتدبير للشئون التى تعنى الانسان اعتقادا من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية ،فى رغبة ورهبة ،وفى خضوع وتمجيد .

وبعبارة موجزة هو الايمان بذات الهية ، جديرة بالطاعة والعبادة "(٢)

هذا اذا نظرنا الى الدين من حيث هو حالة نفسية ،بمعنى التدين

أما اذا نظرنا اليه من حيث هو حقيقة خارجية فنقول :

" هو جملة القوامس النظرية التى تحدد صفات تلك القوة الالهية وجملة القواعد العملية التى ترسم طريق عبادتها ، ونحن نرتضى هذا التعريف لأنه نظر الى الدين من ناحيتين :

١) المعنى المصدرى القلبى ،

٢) مجموعة التكاليف التى جاءت فيه .

فاذا كلمة الدين لها اطلاقان : الخلق بالمعنى المصدرى ،واطلاق بمعنى التكاليف التشريعية .

وعلى هذا فلايمكن جمع المعنيين فى تعريف واحد .

---

(١) الزمر : آية ٣ (٢) كتاب الدين للدكتور محمد عبدالله دراز ص ٤٠

نشأة العقيدة الوثنية

اختلف العلماء فى نشأة العقيدة الوثنية ، هل كانت سابقة على ديانات التوحيد ، ثم تطورت حتى وصلت الى تلك الديانات ؟

أم أن التوحيد كان هو الأصل ، ثم كانت تنحدر حالته بتقادم العهد به ، وتأتى عبادة الأوثان حتى يبعث الله رسولا يبين معالم التوحيد من جديد ، وهكذا .

أما الفريق الذى ذهب الى أن الدين بدأ فى صورة الخرافة والوثنية فهو يرى :

أن هناك ثلاثة أطوار عامة ، مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب .

وهى دور التعدد ؛

ودور التمييز والترجيح ،

ودور الوحدانية .

ففى دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابا تتعدد بالعشرات وقد تتجاوز العشرات الى المئات .

وفى الدور الثانى — وهو دور التمييز والترجيح — تبقى الأرباب على كثرتها ويأخذ رب منها فى البروز والرجحان على سائرها .

وفى الدور الثالث : توحد الأمة تجتمع الى عبادة واحدة ، ولكنها بجنسها مع تعدد الأرباب فى كل اقليم من الأقاليم المتفرقة (١)

ثم ينتهى الأمر بالأستاذ عباس محمود العقاد الى أن يقرر أن :

ديانة المصرى كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح ، لأنها

(١) كتاب الله للأستاذ عباس محمود العقاد ص ٤٠ .

أكبر ما تقع عليه العين ، وتقل به الخليقة والحياة ، فاذا دخلت في أيدنا ضمن مدار المعلومات فقد أدين الكون كله في حاجة الى خالق موجد للأرض والسماء ، والكواكب والأقمار .

وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على دعوى قصة ابراهيم في القرآن الكريم :

« فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال : هذا ربي ؛ فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ؛ فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين .

فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي هذا أكبر ؛

فلما أفلت قال : ياقوم اني بريء مما تشركون ؛

اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ؛

وحاجه قومه قال : أتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون »(١)

ويبدو : أن الأستاذ العقاد يميل الى هذا الرأي ، ناظرا لتأييده له بالآية الشريفة واستدلاله بها — رغم بعدها في ظاهرها ومجموعها ، عن التفسير الذي ارتآه لها يكون سيدنا ابراهيم عليه السلام كان هو المتحير والطالب للاهتداء في أمر الألوهية .

— الرد على شيخنا : الأستاذ عباس محمود العقاد : —

قال المحققون من العلماء :

انه لا يجوز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات الا وهو لله تعالى موحد عارف ومن كل معبود سواه بريء ، وقد نفى

---

(١) الآيات : ٧٦ — ٨٠ من سورة الأنعام .
كتاب « الله » الأستاذ عباس محمود العقاد ص ٢٢

الله تعالى ، من عاز ابراهيم عليه السلام خصوصا في صغره مالايتسوهم معه عاقبة مما يناقض ذلك (١)

وقد ساق الفخر الرازى من الحجج على فساد رأى من قال بأن سيدنا ابراهيم عليه السلام ، هو الذى كان طالبا للهداية ؛ يقول :

١ = ان ابراهيم عليه السلام ، كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة بالدليل ، والدليل على صحة ماذكر : أنه تعالى أخبر عنه أنه قال قبل هذه الواقعة لأبيه آزر :

" أتتخذ أصناما آلهة ؟ " (٢)

٢ = دعا عليه السلام أباه الى التوحيد ، وترك عبادة الأصنام بالوجه حيث قال :

" ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئا " (٣)

وحكى في هذا الموضع : إنه دعا أباه الى التوحيد ، وترك عبادة الأصنام بالكلام الحسن واللفظ الموجز .

ومن المعلوم : أن من دعا غيره الى الله تعالى فانه يقدم الرفق على العنيف ولايخوض في التعنيف والتغليظ ، الا بعد المدة المديدة ، واليأس التام ، فدل هذا : على أن هذه الواقعة ، انما وقعت بعد أن دعا أباه الى التوحيد مرارا وأطوارا .

ولانك أنه : انما امتنع بدعوة أبيه بعد فراغه من نفسه فثبت أن هذه الواقعة انما وقعت بعد أن عرف الله بمدة .

٣ = قال الله تعالى قبل هذه الآيات :

" وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين " (٤)

---

(١) رى المعانى جـ ٧ صـ ١٧٣ (٢) الأنعام آية : ٧٤

(٣) مريم آية : ٤٢ (٤) الأنعام آية : ٧٥

أى : وليكون بسبب تلك الارائة من الموقنين .

ثم قال بعد :

" فلما جن عليه الليل "

والفاء تقتضى الترتيب فثبت أن هذه الواقعة انما وقعت بعد أن صار ابراهيم من الموقنين العارفين بربه .

٤ = ان هذه الواقعة : انما حصلت بسبب مناظرة ابراهيم عليه السلام مع قومه ، والدليل عليه : أنه تعالى لما ذكر هذه القصة قال :

" وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه "(١) ولم يقل : على نفسه :

فعلم أن هذه البا[illegible] انما جرت مع قومه ، لأجل أن يرشدهم الى الايمان والتوحيد ، لا لأجل أن ابراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه .

٥ = ان الرواية التي ذكرها الطبري عن ابن اسحاق تفيد : أن ابراهيم عليه السلام ، انما استدل بالنظر فى الكواكب والقمر والشمس ، حال ما كان فى الدار وهذا باطل ، لأنه لو كان الأمر كذلك فكيف يقول :

" ياقوم انى برئ مما تشركون "(٢) ، مع أنه ما كان فى الدار قوم ولا صنم .

٦ = قال الله تعالى بعد هذه الآيات :

" وحاجه قومه قال : أتحاجونى فى الله ؟ "(٣)

وكيف يحاجونه وهم بعد ما رأوه وهو طرأهم(٤) أحد

من هذه الأدلة يتضح الرد على الشبهة والواقع أننا أفضنا فيها لئلا يلتبس على القارئ الأمر بالنسبة لأدلة القائلين بأسبقية الديانات الوثنية على ديانات التوحيد .

حتى زعم بعضهم أن عقيدة الاله الواحد عقيدة حديثة وأنها وليدة

---

(١) ٨٣ الأنعام (٢) ٧٨ الأنعام (٣) ٨٠ الأنعام
(٤) التفسير الوازى جـ ٤ صـ ٧٥

عقلية خالصة بالجنس السامي (١)

القائلون بأن أصل الدين التوحيد :

أما الفريق القائل بأن أصل الدين التوحيد ، وأنه الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فانها وجدت لها كثيرا من الموحدين مستدلين عليها بكثير من الأدلة العلمية .

ومن أشهر هؤلاء الفريق :

لانج : الذي أثبت وجود عقيدة " الاله الأعلى " عند القبائل البدائية في استراليا وافريقيا وأمريكا .

وشميدت رئيس الذين أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة ،

وبيرو كلمان وجدها عند الساميين قبل الاسلام ،

ولوواه وكانه عثر عليه أقزام أواسط افريقيا ،

وشميدت عند الأقزام وعند سكان أستراليا الجنوبية الغربية ،

وقد انتهى بحث شميدت هذا الى أن فكرة الاله الأعظم توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الانسانية (٢)

على أنه يبقى — تكملة لهذا الموضوع — اضافة رأي عربي قديم في نشأة العقيدة الوثنية ، وهذا الرأي هو رأي أبوالمنذر هشام بن السائب الكلبي في كتابة الأصنام .

رأي أبوالمنذر هشام بن السائب الكلبي : (٢)

" أول ما عبدت الأصنام " أن آدم عليه السلام لما مات جعلته بنو " شميث " ابن آدم في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه آدم بأرض الهند .

---

(١) كتاب الدين للدكتور محمد عبدالله دراز ص ١٠٣

(٢) كتاب الأصنام ص ٥٠ أبوالمنذر هشام بن السائب الكلبي
كتاب الاديان في القرآن للدكتور محمود بن الشريف .

وكان بنو شيث يأتون جد آدم في المغارة فيحادثونه ويترحمون عليه ،

فقال رجل من بني قابيل بن آدم :

"يابني قابيل ، ان بني شيث دوارا يدورون حوله ويحادثونه ، وليس لكم شيء"

فنحت لهم صنما فكان أول من عبد الأصنام ، ثم قال أبو المنذر :

"كان ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، كانوا قوما صالحين"

ماتوا في شهر فجزع عليهم ذوو آثارهم ، "

فقال رجل من بني قابيل :

" ياقوم ، ألا لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم ، غير أني لا أقدر

أن أجعل فيها أرواحا ؟ "

قالوا : نعم ،

فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم ، فكان الرجل يأتي

أحدها وحده ، وابن عمه فيحادثه ويسمر حوله ، حتى ذهب ذلك القرن الأول ،

ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول ،

ثم جاء من بعدهم القرن الثالث ، فقالوا :

" ماعظم أولونا هؤلاء الا ولهم يرجون شفاعتهم عند الله ، فعبدوهم

وعظم أمرهم ، واشتد تقربهم ، فبعث الله اليهم ادريس عليه السلام ، فدعاهم

فكذبوه فرفعه الله اليه مكانا عليا (١)

ولم يزل أمرهم يشتد في بعض من عليه السلام ، فبعثه الله اليهم نبيا

وهو يومئذ ابن أربعمائة وثمانين سنة ، فدعاهم الى الله في نبوته مائة وعشرين سنة ،

فعصوه وكذبوه ، فأتوه الله : بصنع الفلك ، ففرغ منها وركبها ، وهو ابن

ستمائة سنة ، وفرق من غرق ، ومكث بعد ذلك ٣٥٠ سنة ، فمات الطوفان

---

(١) يقول الله سبحانه : " واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا ، ورفعناه

مكانا عليا ، أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم .. " مريم ٥٦/٥٨

وطبق الأرض فكلها وكان بين آدم ونوح ٢٢٠٠ سنة فأحيط ماء الطوفان هذه الأصنام بعدة من جبل نود بالهند الى الأرض وجمع الماء يشتد جريه ويجابه من أرض الى أرض حتى قذفها الى أرض جدة ، ثم نضب الماء وبقيت على الخط فصفت التي عليها حتى وارتها "أ هـ" (١)

تقييمنا لآراء السابقة في نشأة العقيدة الوثنية :

اذا قيمنا آراء العلماء الغربيين سواء منها القائل : بأسبقية الوثنية على التوحيد ، أو بأسبقية التوحيد على الوثنية ، نخلص بالنتائج التالية :

١ ـ اننا لانستطيع أن نؤكد ـ في ثقة ويقين ـ نشأة الوثنية وتاريخها ، فان تحديد تاريخها ونشأتها يعود بنا الى أزمان سحيقة لايستطيع أي باحث الوصول الى أبعادها ، فكل هذه النظريات ليست الا فروضا ظنية وتخمينات عقلية .

٢ ـ ان العلماء يبنون افتراضاتهم على أساس ترقي الانسان من البهيمية والغرائز الى العقيدة السليمة بالتدريج ، وهذا فيه شيء نظر لأن بعض علماء الانسان الآخرين ، وعلماء الآثار ، ذكروا ـ في كثير من تقييم ـ استدلالات على أن الشعوب التي نراها بدائية الآن سبقتها حضارات كان لها أثر كبير في الماضي ، وأن كثيرا من الشعوب التي نراها متقدمة قد سبقتها في أطوار بعيدة من الزمن فترة من الظلام ، والجهل ، والتخلف

٣ ـ ان منهج هؤلاء العلماء قائم على استقراء أحوال الأمم الموجودة في عصرنا ، ولكنها متخلفة ، وبدائية ، ومنعزلة عن العالم المحيط بها ، فهي في نظرهم تمثل الحالة التي كان عليها الانسان في

(١) وتوفي نوح بسورة هو فاندارها .

بدايته ، وهذا مبني على الفرض والتخمين ، فقد تكون هذه الحالة سبقتها مدنية عظيمة ، وكثير من القبائل البهمجية فقد مرت بأدوار شتى وتطورات بعيـــدة المدى .

٤ = ان العلماء وضعوا فروضهم تلك على أساس تماثل أبناء كل عصر في تفكيرهم ، ونوعية عباداتهم ، ونحن نلاحظ أن في كل عصر وكل أمـــة يكون بعض الأفراد المستنيرين وبعضهم تغشاه الظلمة ، ولعل المثل الموجود بين أيدينا هو موقف الحنفاء في المجتمع القرشي .

٥ = قاس العلماء التطور والدين على التطور الحضاري مع أن التاريخ يثبت عكس ذلك ، فغالبا تكون الأمة غاية في الحضارة ، وفي الفكـــر الديني غاية في التأثر والجهل كحال الامبراطوريات الفارســـية والرومانية والهندية .

فمع تقدم هذه الأمم الحضاري الكبير كانت في غاية الانحـــدار في عبادة الأوثان .

تقييم رأي أبو المنذر هشام بن السائب الكلبي :

اذا قيمنا رأي أبو المنذر هشام بن السائب الكلبي ، نجد أنـــه اعتمد في مصادره على هذا الرأي على أقوال الاخباريين من العرب ولم يكـــن في يده نص أو نصوص ثابتة تصلح أن تكون أدلة مؤكدة على رأيه ذلك صحيح أن رأيه هذا له أساس اسلامي ، الا أن التفاصيل التي جاء بها لم توجـــد لها مصادر تؤكدها .

النتيجة التي نخلص بها من تقييمنا لهذه الآراء :

بعد تقييمنا للآراء السابقة في نشأة العقيدة الوثنية نخلص بالنتيجة التالية ، وهي أن جميع الفروض والنظريات السابقة لا تصلح أساسا لتاريـــخ

العقيدة الوثنية وبيان نشأتها ؛

ويعود التساؤل مرة أخرى ، فلا نجد الا أن نسترشد بنصوص الكتب السماوية المحفوظة والقرآن بصفة رئيسية فهو الوحي المعصوم ، والنور الهدى في ظلمة التساؤل .

والواقع أن القرآن يقدم لنا البيان الشافي في هذا الموضوع بعد أن ثبت عجز وسائلنا البشرية عن الوصول اليه ،

ويؤيدنا في هذا الرأى الدكتور محمد عبدالله دراز في كتابه " الدين " يقول بعد أن استقرأ أقوال العلماء في هذا الموضوع :

هكذا عجزت وسائل العلوم ، أن تقدم لنا بيانا شافيا يهدأ سمعن اليه القلب من ديانة الانسان الأول ؛ أما من أحب أن يسترشد بنصوص الكتب السماوية ، فانه سوف يجد فيها ما يشد أزر القائلين بأدلية العقيدة الالهية الصحيحة ، لا في الغريزة فحسب :

" فطرة الله التي فطر الناس عليها " ،

بل في التطور الزماني كذلك ،

فهذه النصوص تنادي بأن الناس بدؤا حياتهم مستقيمين على الحق وتلقين عليه ، وأن الانحراف والاختلاف انما جاء عرضا طارئا بعد ذلك .

" وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا "(١)

وان استقرار هذا المنطق ، واتضاح سمته ، انما كان بتأثير الوراثة ، وتلقين كل جيل عقيدته للناشئين فيه :

" كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه "(٢)

والى ذلك كله فان الكتب السماوية متفقة على أن البداية الانسانية الأولى ، لم تترك وشأنها ، تتعلمهم غرائزها وحدها بغير مرشد ومذكر من

---

(١) ١٩ يونس . (٢) حديث صحيح أخرجه أبو يعلى في مسنده ، والطبراني في المعجم الكبير ، والبيهقي في السنن عن الأسود بن سريع .

تعهدتها السماء بنور الوحي من أول يوم ، فكان أبو البشر هو أول الأنبياء المسلمين ، وأول المؤمنين الموحدين ، وأول المشرعين الأولين .

لكن الالتجاء الى هذه النصوص اعتراف ضمني بأن وسائل العلم البشري وحدها عاجزة عن أن تصل بنا من طريق يفضي الى نقطة البدء الحقيقي للدين .

والواقع أن الحل النهائي لهذه المسألة ، انما يكون عن طريق الوحي ، لأنها داخلة في نطاق الغيب التي هي موضع الايمان ، وليست من شأن العلوم الاستقرائية ، ولا العلوم الاستنتاجية .

وجملة القول : أن كل النظريات التي حاولت تحديد ديانة الانسان الأول ، بالتطبيق على ديانات القرون الماضية ، أو الأمم البدائية فصورتها لنا تارة سليمة ، وتارة سقيمة ، وتارة ملفقة ، انما هي افتراضات مبنية على افتراضات ، فهي لا تمس الحق الثابت الذي هو مطلب العلم الصحيح ، وانما تعرض احتمالا تشبه الحق قليلا أو كثيرا (١) .

نشأة الوثنية في الجزيرة العربية :

تقرر علماء الملل والنحل المسلمين ، وكتاب السير ، على أن أول من غير دين اسماعيل عليه السلام - نصب الأوثان وسبب السائبة ووصيلة الوسيلة وحمى البحيرة وحمى الحامية - هو (عمرو بن ربيعة) ، وهو لحي ابن حارثة بن عامر الأزدي .

ويؤكد ذلك : ما روي في مسند الامام أحمد .

وأول من سيب السيائب وبدل الأصنام عمرو بن لحي الخزاعي (٢)

وفي صحيح الامام البخاري عن ابن عباس : ان ودا ، وسواعا ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا ، كانت أسماء أناس من علماء قوم نوح وصالحيهم ، فلما

---

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز كتاب الدين ص ٨٠ .
(٢) فتح الباري جـ ٧ ص ٣٥٩ ـ ص ٣٦٠

ماتوا صنعوا لهم هذه التماثيل ،لتكون تذكارا لهم ،ومثلة واعتبارا لغيرهم ،
ليفعل مثل فعلهم ؛ ويتوالى الزمن تنوسي هذا المعنى ،وعبدت من دون الله ،
ثم نقلها عمرو بن لحي الى العرب .

وقال أبوهريرة رضي الله عنه : ان النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" ان عمرو بن لحي أول من غير دين اسماعيل ،وبحر البحيرة ،وسيب
السائبة ،ووصل الوصيلة ،وحمى الحامي "

ذكر ابن اسحاق أن عمرو بن لحي الغزاعي مضى الى الشام ، وهناك
يومئذ العماليق ،وهم يعبدون الأصنام فاستوهبهم واحدا منها وجاء به الى
مكة فنصبه الى الكعبة ،وهو هبل وكان قبل ذلك في زمن الجراهمة قد فجر
رجل يقال له اساف بامرأة يقال لها : " نائلة " في الكعبة فمسخهما الله
بحجرين ثم يعتبر بهما الناس ويتعظوا ، فأخذهما عمرو بن لحي فنصبهما
حول الكعبة ،فصار من يطوف يتمسح بهما (١)

ويؤيد هذه الروايات جميعا ما جاء في كتاب الأصنام لأبي المنذر
الكلبي مما يماثل ذلك ويقاربه ،فقد ذكر : أن أول من غير دين اسماعيل ،
فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ،ووصل الوصيلة ،وبحر البحيرة ،وحمى الحامي ،
" عمرو بن ربيعة " وهو لحي بن حارثة بن عامر الازدي ،وهو الذي قاتل جرهم
حتى أخرجهم من حرم مكة ،واستولى عليها ، وتولى حجابة البيت . (٢)

هذا من نشأة الديانة الوثنية في جزيرة العرب التي تثق بحسن
مصادرها باعتبار أنها جاءت من الحديث الشريف ، ومن كتاب السير
المعتمدين ، والرواة الموثق بهم ، كابن عباس .

ويؤيد أيضا أن عمرو بن لحي ،أول من أدخل الأصنام في جزيرة العرب ،

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ص ٧٠ دكتور محمد أبوشهبة وطبقات
ابن سعد (٢) الأصنام أبوالمنذر الكلبي ص ٦

صاحب كتاب أديان العرب فى الجاهلية فيقول :

وأول من أدخلها (أى الأصنام والأوثان) الى مكة ومجاورهـــا " عمرو بن لحى " سيد خزاعة .

ذلك : أن جرهما كانوا قد طغوا فى الحرم وظلموا واستحلـوا منه أمورا عظاما فأرسل الله اليهم " خزاعة " حين أبطأهم سيل العرم من بلادهم فطاردوا " بسوحها " منه وقتلوا من قتلوا منهم فمضى ذلك بعيدور أهـل الحرم وفرحوا بانتصار خزاعة على بسوحهم .

وربما ظنوا أن الله قد أرسلهم اليهم ليطهر أهل حرمه من جرهم وكان رئيس خزاعة " عمرو بن لحى " فتولى سدانة البيت وداتت له العرب واتخذوه ربا لا يبتدع لهم بدعة الا اتخذوها شريعة .

وكان فوق ذلك قد ملكهم باحسانه فربما نحر فى الموسم عشرة آلاف بدنة ، وكما عشرة آلاف حلة وكان يطعم الحجيج السويق .

فدعاهم لعبادة الأوثان ، وكانت نفوسهم مستعدة لعبادتها بما كانوا يعظمونه من حجارة الحرم فأجابوه .

ثم يقول المؤلف :

وقد نص الشهرستانى فى الملل والنحل : : أن عمرو بن لحـــى وضع الأصنام فى البيت فى أول ملك سابور ذى الأكتاف (١)

ويقول الدكتور جواد على :

ويذكر أهل الأخبار أن الجاهليين جميعا من قحطان وعدنـان ، كانوا قبل عمرو بن لحى موحدين يعبدون الله عز وجل وحده لا يشركون به ولا ينقضونه .

---

(١) أديان العرب فى الجاهلية لمحمد نعمان الجارم ص ١٢٩ ، والأديان فى القرآن للدكتور محمود بن الشريف ص ٤٨

فلما جاء " عمرو بن لحى " أفسد العرب ونشر بينهم أضاليل عبادة الأوثان مما تعلمه من وثنى الشام حينما زارهم وحل بينهم فكان ولى الوثنية عند العرب والمشركين أو ضلالهم الأول ، وهو على رأيهم وزع الأصنام بين القبائل وقسمها عليهم (١) .

ويؤيدنا أيضا ما جاء فى كتاب الأوائل لأبى هلال العسكرى الباب الأول ص ٤٧ .

أن أول من غير الحنيفية وحرم البحيرة وسيب السائبة وجعل الوصيلة والحام عمرو بن لحى .

وهو عمرو بن ربيعة أبو خزاعة وهو أول من ولى البيت منهم ثم رحل الى قومه بالشام رأى الأصنام تعبد فأعجبته عبادتها وحمل منها بمكة ووضعها حول البيت الى عبادته والى مفارقة الحنيفية ، فأجابه الجمهور وأكثره من لم يجبه حتى استمر له ما أراد منه (١)

وقال النبى صلى الله عليه وسلم (اطلعت فى النار فرأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فيها — والقصب المعا .

أمثلة من أسماء الأوثان وطقوس عبادتها : (١)

الواقع أننا فى هذا المجال سنذكر بعض أمثلة قليلة لأشهر المعبودات ، لأن عددها كبير أولا ولأن القصد هنا التمثيل لا الحصر :

١ = ذو الخلصة : بيت لخثعم كان يدعى الكعبة اليمانية ، وكان فيه صنم يسمى " الخلصة "

قال الكلبى :

وكانت ببتالة (بين مكة واليمن مسيرة سبع ليال من مكة) .

---

(١) راجع هذا الموضوع : كتاب الأصنام لهشام بن السائب الكلبى ، وحياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ، كتاب الأديان فى القرآن للدكتور محمود بن الشريف .

وكتاب أديان العرب فى الجاهلية لمحمد خليفة التونسى ، السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبو شهبة ، تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم حسن

وكانت سدنتها : بنو أمامة ، من باهلة بن أعصر ، ثم يذكر الرواية التالية :

ولما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وأسلمت العرب ووفدت عليه وفودها ، قدم عليه جرير بن عبد الله البجلي ، فقال له :

يا جرير ألا تكفيني ذا الخلصة ؟

فقال بلى .. فخرج حتى أتى بني أحمس من بجيلة ، فصار اليه فقاتلت خثعم وباهلة دونه فقتل من مدنعه من باهلة يومئذ مائة رجل ، وأكثر القتل في خثعم ، وقتل مائتين من بني ذعارة بن عامر بن عوف بن خثعم فحرقهم وحزمهم وحدم بغيان ذي الخلصة وألحزم فيه النار فاحترق .

يذكر في الأول بعدها رأى الكلبي .

وروى البخاري بسنده عن جرير قال :

كان بيت في الجاهلية يقال له : " ذو الخلصة " والكعبة اليمانية " ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : : ألا تريحني من ذي الخلصة قال : فنفرت في مائة وخمسين راكبا فكسرناه .

الأزلام : وهي صخرة كان يستقسم عليها رجل فيمن يضن بيمين الصبر للحمالة اذا عروا يلتمسونهم وكان ذا اثم فسميت الصخرة الأزلام فلما فقده الناس يوما قال لهم حرمن لحي :

" ان ربكم الأزلام قد دخلني بوف الصخرة ، فهبوا على صخرته بيتا يحمده أهل الطائف ويستجرونه بالثياب ويطوفون حوله .

السعيدة : بيت بجيل أحد كانت تحجه قبيلة ربيعة :

ذو الكعبات : بيت كانت تطوف به ربيعة :

أساف ونائلة :

وكان الطائف يبدأ اذا طاف البيت بأساف ويستلمه فاذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها .

الأبيض : كانت قضاعة ولخم وجذام وأهل الشام يحجون اليه ويحلقون رؤوسهم عنده .

يعوق : صنم كان من ذهب عبده قوم الياس عليه السلام وقد نزل فيه :

" وان الياس لمن المرسلين اذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين "(١)

بوانة : وكانوا يجعلون لهم عيدا عند بوانة في الجاهلية وكانت قريش تعبده وتذبح له وتعكف على عبادته يوما الى الليل في كل سنة .

سواع : صنم لقبيلة هذيل بن مدركة بأرض ينبع وكانوا يحجون اليه وينحرون عنده .

العزى : كانت من أعظم أصنام قريش وكانوا يزورونها ويتقربون عندها بالذبائح وكان لها سدنة يتحرون فيه هداياها .

---

(١) الصافات آية ١٢٣ ـ ١٢٥

" مقصد المشركين من عبادة الأوثـــــان "

هل كان المشركون يعبدون الأصنام لذاتها ؟ ويعتقدون أنها تملك موتا ،أوحياة أو نشورا ،أونفعا ،أوضرا ؟

الواقع أنه يبدو من تصرفاتهم ،أنهم كانوا لايعتقدون ذلك ،بل كانوا يعتقدون بوجود قوة أعلى منها ، لها كل التصرف فى الكون كله ، وهى المديرة لكل شيء ،وأغلب ظنى أن الذى يصنع لنفسه معبودا من الحلوى أوالعجـــوة ، حتى اذا جاع أكله ،

بل ان بعضهم كان يعلم صنعه لايمكن أن يعتقد أن هذا يخلق أويدبـــر الكون .

بل انهم يعبرون عن هذه القوة العليا بلفظ" الله " ،كما جاء فى القرآن الكريم :

" ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن اللـه فأنى يؤفكون " (١)

وأكبر دليل يؤيدنا فى قولنا هذا من المشركين هوالقرآن ،فالقرآن يقـرر أن العرب كانوا يعتقدون أن الله هوالقادر الخالق المدبر بيده ملكوت السموات والأرض " قل من رب السموات السبع " آيات من سورة المؤمنون "

ويزيد القرآن ذلك أيضا حا فيقول على لسان هؤلاء الذين يعبـــدون الأصنام ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، " واذافهم لايشركون الأصنام فـــى شيء من التدبير انما يجعلونها وسائط كما قررت آنفا لتكون لهم سندا يوم القيامة عند الله (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) بل نرى القرآن يروى عنهم أنهـــم أنهم وقت الشدائد لاينظرون الى الأصنام ولا يفكرون فيها انما يتجهون الى اللـــه

---

(١) العنكبوت : ٦١

وحده فى عبادتهم ودعائهم (واذاركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين »

واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين يقولون لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين »

قل أرأيتم ان أتاكم عذاب الله أوأتتكم الساعة أغير الله تدعون ان كنتم صادقين »

بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء .

ويروى القرآن عنهم أنهم بعد زوال الشدة يعودون الى الاشراك :

(قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون)»

(فلما نجاهم الى البر اذاهم يشركون)

(ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون)[1]

فكانت عقيدة التوحيد عندهم كامنة فى أعماق نفوسهم تظهرها الشدائد ثم ينسيها طول الأمد »(فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم) وكان من آثار ذلك تسويتهم بين الخالق والمخلوق فى العبادة (أفمن يخلق كمن لايخلق) ولهذا تعددت المعبودات عندهم دون أن يكون لغير الله دخل فى تدبير الكون فى نظرهم فهم يعتقدون تعدد الآلهة مع توحيد الرب الخالق (ويقولون أجعل الآلهة الها واحدا) فى الوقت الذين يقولون أن الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم وبيده ملكوت كل شىء) ولذلك يقول القرآن :

(ومايؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) أى يشركون معه غيره فى العبادة (الذى جعل مع الله الها آخر)»(قل لوكان معه آلهة كمايقولون اذالابتغوا الى ذى العرش سبيلا) فهم بهذا الاشراك كافرون .

(والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى »[2]

---

(١) الزخرف : ٨٧

(٢) الزمر : ٣

" ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله " (١)

ولكن هل تنفع هذه الشفاعة ؟

" ومايؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون " (٢)

لقد أشركوا مع الله غيره في العبادة مع أن الله نفى الوساطة بينه وبين خلقه في العبادة فكانوا بذلك كافرين

---

(١) يونس : ١٨

(٢) يوسف : ١٠٦

الفصـــل الثانـــى

"التوحيد جوهـر العقيـدة الاســـــلامية"

" التوحيد جوهر الشريعة الاسلامية " (١)

منذ اللحظة الأولى ،التى بدأ فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، يدعو الى الله ،كان جوهر هذه الدعوة ،توحيد الله سبحانه وتعالى ،بل انه قد استمر يدعو الى ذلك طيلة حياته .

واذا نظرنا الى القرآن ،نجد أن جوهره كله ،يقوم على التوحيد ؛ بل ان القرآن عندما يحدد لنا شرائع الرسل التى خلت من قبل ،كان يبين لنا أن مناط هذه الشرائع وجوهرها ،كان يقوم على التوحيد .

ولقد كانت الثورة ضد الشرك ،وتحطيم الأصنام ،من المهام الكبرى للدعوة الاسلامية ،حتى ان العالم الكبير (أبا الريحان البيرونى) حينما أخذ يبين الطابع الأصيل لكل دين قال عن الاسلام :

" ان الطابع الأصيل للاسلام انما هو التوحيد "

ولكن اذا كان البيرونى قد خص الاسلام بخصيصة التوحيد ،فانه كان يتحدث عن الأديان بوضعها الراهن .

ولكن ـ كما ذكرنا من قبل ـ فان التوحيد كان الأصل دائما ،وهو الجوهر الذى كان يدعو اليه كل نبى ،ثم يأتى على الناس ، وقت من الزمن تنحرف فيه هذه العقيدة : الى الشرك وعبادة الأصنام ، حتى يظهر نبى آخر يجدد لها ما سبق من أمر " دينها "

نرى ذلك واضحا فى قوله تعالى :

" وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لااله الا أنا فاعبدون " (٢)

ولم يكتف الله سبحانه بهذا الاجمال وانما فصل فيه بالنسبة لبعض الرسل

---

(١) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة (أبى الريحان البيرونى)

(٢) الأنبياء آية : ٢٥

يقول سبحانه :

" لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من آله غيره "(١)

ويقول :

" والى عاد اخاهم هودا قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من آله غيره "(٢)

ويقول :

والى ثمود أخاهم صالحا قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره(٣)

ويقول :

" والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من آله غيره "(٤)

أما عن الرسول صلى الله عليه وسلم فان الدعوة الى التوحيد كانت شغلة الشاغل وهمه الدائب ، الذى لايفتر عنه ليلا ولانهارا .

عن ابن عباس رضى الله عنهما :

" لما مشوا الى أبى طالب وكلموه وهم أشراف قومه :

عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبوجهل بن هشام وأمية بن خلف وأبوسفيان بن حرب ونى رجال من أشرافهم فقالوا :

" ياأباطالب انك منا حيث قد علمت وقد حضرك ماترى "

وتخوفنا عليك وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه وخذ له منا ، ليكف عنا ولنكف عنه وليدعنا ودیننا ولندعه ودينه .

فبعث اليه أبوطالب فجاءه فقال :

يابن أخى وهؤلاء أشراف قومك وقد اجتمعوا اليك ليعطوك ولياخذوا منك ؟

---

(١) الأعراف آية : ٥٩ (٢) الأعراف آية : ٦٥

(٣) الأعراف آية : ٧٣ (٤) الأعراف آية : ٨٥

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ياعم) كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم)

فقال أبوجهل : نعم وأبيك وعشر كلمات .

قال : تقولون (لااله الا الله) ، وتخلعون ماتعبدون من دونه ؟

فصفقوا بأيديهم ثم قالوا :

" يامحمد ، أتريد أن تجعل الآلهة الها واحدا ؟ ... ان أمرك لعجب !!!

قال : ثم قال بعضهم لبعض :

" انه والله ما هذا الرجل يعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه ، ثم تفرغوا "(١) اهـ

يروى الامام أحمد بسنده عن ربيعة بن عباد .. بن الديل وكان جاهليا فأسلم قال :

" رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية في سوق المجاز يقول :

" ياأيها الناس ، قولوا لااله الا الله تفلحوا "

ويدخل والناس مجتمعون عليه ، فما رأيت أحدا يقول شيئا ، وهو لايسكت يقول :

" ياأيها الناس ، قولوا : " لااله الا الله تفلحوا "(٢)

معاني التوحيد :

أما معاني التوحيد ، فاننا لانستطيع تحديدها تحديدا كاملا من أول الأمر بسهولة ويسر ، انها أوسع من أن نستطيع استقرائها ، انها تشمل الحياة بأكملها ، على أن مما يعبر في اجمال وايجاز عن كلمة التوحيد ، قصور سورة

---

(١) رواه الامام في مسنده ، والنسائي من حديث محمد بن عبدالله بن نمير كلاهما عن أبي أسامة عن الأعمش ورواه الترمذي ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير أيضا كلهم في تفاسيرهم من حديث سفيان الثوري عن الأعمش عن يحيى بن عمارة الكوفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال الترمذي حسن .

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده والروض الأنف للسهيلي ، والطبقات الكبرى لابن سعد .

الاخلاص ، ومن أجل ذلك اعتبرت هذه السورة ثلث القرآن .

روى الامام البخارى بسنده عن ابى سعيد أن رجلا سمع رجلا يقرأ :

" قل هو الله أحد " يرددها فلما أصبح جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له - وكأن الرجل يتقالها فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

" والذى نفسى بيده انها لتعدل ثلث القرآن "(١)

وكان سبب نزول هذه السورة :

ان المشركين سألوا النبى صلى الله عليه وسلم سؤالا عن الله ، فقالوا :

" يامحمد انسب لنا ربك ؟

فأنزل الله تعالى :

" قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحدا "(٢)

يقول الامام أبو حامد الغزالى :

" مهمات القرآن هى معرفة الله ، ومعرفة الآخرة ، ومعرفة الصراط المستقيم " .

فهذه المعارف الثلاثة هى المهمة ، والباقى توابع .

وسورة الاخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث : وهى معرفة الله ، وتقديسه ، وتوحيده ، عن مشاركة فى الجنس والنوع ، وهو المراد بنفى الأصل والفرع والكفؤ .

---

(١) أخرجه مالك ، وأحمد فى مسنده ، والبخارى فى صحيحه ، وأبو داود ، والنسائى ، عن أبى سعيد ، وأخرجه البخارى عن قتادة بن النعمان ، ومسلم عن ابى الدرداء ، والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة ، والنسائى عن ابى أيوب ، وأحمد فى مسنده وابن ماجة عن أبى مسعود الأنصارى ، والطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود وعن معاذ ، وأحمد فى مسنده عن أم كلثوم بنت عقبة والبزار عن جابر عن ابن عباس رضى الله عنهم .

(٢) كما روى ذلك قتادة والضحاك ومقاتل ، والربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب . أنظر أسباب النزول للواحدى ، ولباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى .

قال :

والوصف بالصمد يشعر بأنه السيد الذى لايقصد فى الوجود سواه (١) .

" نعم ليس فيها حديث الآخرة ،والصراط المستقيم فلذلك نقول ثلث القرآن .. أى ثلث الأصول .. القرآن ـ كما قال الحبر عرفة " ،أن هو الأصل والباقى تبع . أ . هـ

وتبدأ السورة بقوله تعالى :

" قل هو الله أحد "

لقد نفسه الغريق منذ أول لحظة ،وهذه ثانية خصيصة من خصائص الألوهية ،التى تحدثنا عنها سورة الفرقان التى نحن بصدد دراستها بعد أن ذكرت الخصيصة الأولى ، وهى :

" الذى له ملك السموات والأرض " ،فقالت :

" ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك "

وهذه الخصيصة هى الاستغناء عن الولد والشريك .

دلائل السورة على التوحيد :

لقد اهتم القرآن اهتماما كبيرا بنفى الولد والشريك ،

ولقد استخدم القرآن الكريم عدة طرق للاستدلال :

منها المنطقى ،

ومنها الواقعى ؛

على أن أغلبها يمتزج فيها المنطق بالواقع المحس فيكونان معا منطقا مستمدا من الواقع .

---

(١) أنظر أسماء الله الحسنى للقشيرى ،والغزالى (الصمد)
(٢) أبو حامد الغزالى (جواهر القرآن)

ترى ذلك واضحا كل الوضوح في قوله تعالى في سورة الفرقان استدلالا على التوحيد ، وعلى قدرة الله سبحانه وتعالى :

" ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا "

" وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا "

" وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا "

" لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا " (١)

ثم يذكر الله سبحانه وتعالى أنه نزل هذا القرآن من قبل ومع ذلك أبى أكثر الناس الا كفورا .

ثم تذكر السورة دليلا آخر أشد وضوحا ، وأشد منطقية :

" وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا "

" وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا " (٢)

ومع كل تلك الدلائل التي تشير الى قدرة الله الواحد ، حتى انه أشار في آخر الآية الى ذلك بقوله :

" وكان ربك قديرا " .

مع ذلك كله هم يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم .

ولكن القرآن لا يترك قضية التوحيد هكذا بل يستمر في تقديم الأدلة ولكن لمن يسمع ويعقل ، أولمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا . :

" تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا " (٣)

---

(١) الفرقان آية : ٤٥ ـ ٤٩

ولنتأمل معا قوله تعالى : ـ

" لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لايسأل عما يفعل وهم يسألون "(١)

وقوله تعالى :

" ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من آله اذا لذهب كل آله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون "(٢)

ومن روائع القرآن حيث يستخدم المنطق بالواقع المحس قوله تعالى :

" قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أمـــا يشركون ؟ .

" أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائـــق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أءلـه مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون "

" أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أءلـه مع الله بل أكثرهم لايعلمون ،

أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءلـه مع الله قليلا ماتذكرون ،

أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يـــدي رحمته أءلـه مع الله تعالى الله عما يشركون ،

أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض أءلـه مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين "(٣) .

---

(١) الأنبياء : ٢٢ ـ ٢٣

(٢) المؤمنون : ٩١

(٣) النمل آية : ٥٩ ـ ٦٤

قل هو الله أحـــد :

ونعود مرة أخرى الى : " قل هو الله أحد " :

والتعبير بلفظ " أحد " بدل التعبير بلفظ واحد ، له مغزاه ،

وذلك : أن الواحد قد يطلق على الكائن الذى يتضمن أجزاء متعددة ، أن لفظ واحد يطلق على الرجل مثلا والى خلق يتكون من أفراد لاتكاد تخفى ،

وما من شئ : نى أن كل ماهو مادى يتكون من أجزاء كثيرة ، يطلق عليها لفظ واحد ، مع أنها كثيرة ، ولكن هذه الكثرة تناسقت فى صورة منسجمة ، ومن أجل هذا التناسق المنسجم أطلقنا عليها واحد .

ولكن "الله أحد " أنه ليس مركبا ، وليس متعددا ،

يقول الأزهرى :

" الواحد من صفات الله تعالى ، معناه ، أنه لاثانى له ، ويجوز أن ينعت الشئ بأنه واحد ، فأما " أحد " فلا ينعت به غير الله لخلوص هذا الاســـم الشريف له من ثناؤه " أ . هـ ، ولعله يريد أن لفظ لايطلق على غيره الابقيد أحد من الناس أوغيره .

قل هو الله أحد :

لقد استغاض القرآن الكريم فى نفى الشريك لله تعالى ،

وبذل رسول الله صلى الله عليه وسلم جهودا كبيرة فى اقامة التوحيـد ، ونفى الشريك .

لقد كان أول عقـــد من عقود البيعة : هو عدم الاشراك بالله :

" عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ـ وكان قد شهد بدرا وهو أحد النقباء ليلة العقبة ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ـ وحوله عصابة من أصحابه ـ :

" بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئا ولاتسرقوا ولاتزنوا ولاتقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولاتعصوا فى معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو الى الله ان شاء عفا عنه ، وان شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك "(١)

ولقد شدد الله فى أمر الشرك حتى لقد أعلن الله سبحانه وتعالى ، وأعلن الرسول صلى الله عليه وسلم فى أكثر من حديث أن الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء (٢) .

وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشرك فى جزيرة العرب الشرك بمعنى التعدد فى الألوهية .

والواقع أنه كانت توجد عوامل كثيرة لوقف الشرك فى المهد الفكرى المستنير ، منها :

أن الفلاسفة المؤلهين فى الماضى والحاضر يؤمنون بالتوحيد ،

لقد آمن به أرسطو فى صورة لاتدع مجالا للشك ، وآمن به أفلاطون ،

أما الذى وصل بالتوحيد من بين الفلاسفة الى درجة صارمة فانه أفلوطين ، وتسلسلت عقيدة التوحيد فى الجو الفلسفى عبر العصور ، حتى وصلت الى العصر الراهن (٣) .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الحدود ، وكتاب الديات ، وكتاب الأحكام ، وكتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الحدود ، وكتاب الامارة ، وأخرجه النسائى فى سننه فى كتاب البيعة ، وكتاب الايمان وشرائعه ، وأخرجه ابن ماجة فى كتاب الجهاد ، وأخرجه ابن سعد فى الطبقات ، وأخرجه أحمد فى مسنده ، والطيالسى فى مسنده ،

(٢) النساء آية : ١١٦ .

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية دكتور يوسف كرم .

مع سورة الفرقان فى خصائص الألوهية :

من تتشح عادة الاسلام بالنسبة للتوحيد بمعنى نفسى الغريب نقول ان سورة الفرقان ينبثق عنها فيض من المعانى الكريمة ، يمكن اجمالها فى :

أن معنى التوحيد أن يلقى الانسان بقياده . فى استسلام مطلق — الى الله سبحانه وتعالى ، وأن يخلص له وجهه اخلاصا تاما ، فان من يعدل خصائص الألوهية الحقة ، وهى الملك والخلق والتقدير والاستغناء عن الولد والشريك :

" تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا " ،

الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شىء فقدره تقديرا " ،

ينبغى أن يوحد فى كل شىء واذا كان الدافع الاساسى الأصيل هو التوحيد ، فان خصائص الألوهية يترتب عليها التوحيد فى العقيدة ، والتوحيد فى العبادة ، والتوحيد فى الأخلاق .

" التوحيد فى العقيدة "

والتوحيد فى العقيدة تعبر عنه كلمة : الصدق والاخلاص :

" أشهد أن لا اله الا الله "

وعقيدة التوحيد كانت أساس الرسالة الاسلامية فى مكة ، واستمرت كذلك فى المدينة وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

" جددوا ايمانكم " ،

قيل : يارسول الله وكيف نجدد ايماننا ؟ ،

قال : (أكثروا من قول : لا اله الا الله) (١)

---

(١) أخرجه الامام احمد فى مسنده ، والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة رضى الله عنه

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ماقال عبد قط (لاإله الا الله) مخلصا الا فتحت له أبواب السماء حتى يفضي الى العرش ماجتنبت الكبائر "(١)

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" أفضل الذكر:لا إله الا الله ،وأفضل الدعاء : الحمد لله "(٢)

وان الكلمات التي تعبر عن التوحيد والعقيدة أفضل تعبير قول المؤمنين :

" لا إله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير " ،

ولأن هذه الكلمة تعبر عن التوحيد وخصائص الألوهية أصدق تعبير كان ثوابها عند الله عظيما ، وكانت مكانتها سامية ، وكانت خير ماقال الرسول صلى الله عليه وسلم والنبيون من قبل :

" عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" خير الدعاء دعاء يوم عرفة ،وخير ماقلت أنا والنبيون من قبل :

" لا إله الا الله ،وحده لاشريك له ،له الملك ،وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير "(٣)

وأما عن ثوابها فقد أخرج الامامان البخاري ،ومسلم رضي الله عنهما من حديث أبي هريرة نضر الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" من قال لا إله الا الله ،وحده لاشريك له ،له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير " مائة مرة :

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ،والنسائي ،وابن ماجة في سننه أيضا ،وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك عن جابر رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عمر رضي الله عنه .

كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به الا أحد عمل أكثر من ذلك "(١)

لقد عبرت هذه الكلمات عن التوحيد وخصائص الألوهية بطريقة نظرية سليمة وببساطة متناهية كما هو شأن الاسلام دائما ، فكان التوحيد الى كثر تكرارها حتى ترسخ فى الذهن والقلب معا ، فيصبح التوحيد فى العقيدة هو الحياة بأكملها .

أما الكلمات التى تشرح لنا التوحيد وخصائص الألوهية شرحا بأبلغ عبارة وأوجزها فهى :

" لاحول ولاقوة الا بالله " ،

وهى لهذا فهى كنز من كنوز الجنة ،

فلا حول ولاقوة الا بالله للواحد الذى له ملك السموات والأرض وليس له شريك فى الملك ، والذى خلق كل شىء فى العالم فقدره أحسن تقدير .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" أكثروا من قول : " لاحول ولاقوة الا بالله " ، فانها من كنز الجنة "(٢)

ورى الحاكم ـ وقال صحيح ولا علة له من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى هريرة :

" ألا أعلمك ـ أو ألا أدلك ـ على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة ؟ فتقول :

---

(١) البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، والترمذى فى سننه ، والنسائى وابن ماجة فى سنتيهما أيضا ، عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) اخرجه أبو يعلى مسنده ، والطبرانى فى المعجم الكبير ، وابن حبان عن أبى أيوب ، وأخرجه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

" لاحول ولاقوة الا بالله " فيقول الله : أسلم عبدى واستسلم "(١)

على أن الآية التى تبين لنا التوحيد فى العقيدة أصدق بيان وأوجزه ، وتتمثل فيها خصائص الألوهية أعظم تمثيل هى الآية الثانية فى سورة الاخلاص :

" الله الصمد "

فالصمد : هو الذى يصمد اليه فى الحوائج ، ويقصد اليه فى الرغائب ، اذ ينتهى اليه منتهى السؤدد ؛

ان الصمد : هو المبدأ المستعان والهدف والغاية ؛

انه القبلة ؛ وهو المركز الذى تتعلق به الآمال وتهدف اليه الهمم ، والقرآن الكريم ، والأحاديث الشريفة مليئان ببيان الصمد ؛

من ذلك فى الأحاديث الشريفة تفسيرا للصمد بمعنى :

القائم بنفسه ، وتفسير الصمد بمعنى الغاية والهدف بما روى عن ابن عباس :

" كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال :

" ياغلام ، انى أعلمك كلمات :

" احفظ الله يحفظك ،

" احفظ الله تجده تجاهك ، واذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت ، فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف "

ومن الأحاديث التى تعبر عن خصائص الألوهية أصدق تعبير ، وتبين

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح الاسناد .

(٢) أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح ، وفى رواية غير الترمذى : احفظ الله تجده أمامك ، تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا " .

لنا أن الملك والخلق والتقدير لله وحده لاشريك له ،ماوراه أبوسعيد الخولانى :

عن أبى ذر جندب بن جنادة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم - فيما يروى عن الله تبارك وتعالى انه قال :

" ياعبادى : انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما فلا تظالموا ،

ياعبادى : كلكم ضال الا من هديته ،فاستهدونى أهدكم ،

ياعبادى : كلكم جائع الا من أطعمته ،فاستطعمونى أطعمكم ،

ياعبادى : كلكم عار الا من كسوته ،فاستكسونى أكسكم ،

ياعبادى : انكم تخطئون بالليل والنهار ،وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم .

ياعبادى : انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ،ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ،

ياعبادى : لو أن أولكم وآخركم ،وانسكم وجنكم ،كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا .

ياعبادى : لو أن أولكم وآخركم ،وانسكم وجنكم ،كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكى شيئا ،

ياعبادى : لو أن أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم ،قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل انسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى الاكماينقص المخيط اذا أدخل البحر ،

ياعبادى : انما هى أعمالكم أحصيها لكم ،ثم أوفيكم لكم ،فمن وجد خيرا فليحمد الله ،ومن وجد غير ذلك فلايلومن الا نفسه " أ . هـ

---

(١) أخرجه الامام مسلم ،والامام أحمد فى مسنده ،وقال الامام أحمد رحمه الله : ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث ،وقال أبوسعيد كان أبوادريس اذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه "

الله الصمد :

والصمد من معاني لا اله الا الله ،ومادام هو الذي تتجه اليه الآمال ،فان لمعناه آفاقا واسعة وهذه الآفاق تزداد بتعدد حاجات الناس وآمالهم ،

والصمد توجيه لهم الى أن كل حاجاتهم وآمالهم يجب أن ترجع الى الله الصمد ،

يقول الامام القشيري :

" ان الله تعالى خص عباده بعضهم من بعض ،لأن الحوائج على الحقيقة لاتكون الا اليه ،فالمخلوق لايملك لنفسه نفعا ولاضرا ،فكيف يملك ذلك لغيره ؟ ،

ولهذا قيل :

" تعلق الخلق بالخلق تعلق المسجون بالمسجون "

وقيل : " من رفع حاجته الى الله ثم رجع عن حاجته اليه الى غيره ابتلاه الله بالحاجة الى الخلق ثم نزع رحمته من قلوبهم " (١) أ ،

من معاني الصمد :

ان سورة الاخلاص تسمى سورة التجريد ،لأن من تعلق بها تجرد ،كما يقول الامام الصادق ـ من الأغيار ،

وتسمى سورة الصمد لأنه ذكر فيها :

" والصمد هو الذي تتوجه اليه المطالب ، وتتعلق به الآمال ، ومن أجل ذلك يتجه الانسان بالدعاء اليه ،

فبين لنا سبحانه أنه قريب ،وأنه يجيب المضطر اذا دعاه ،ولايغض ذلك الا من كان له الملك والغنى

---

(١) الرسالة القشيرية للامام القشيري ،

والتقدير ، بل انّ الله يطلب منا صراحة أن ندعوه ؛

يقول سبحانه :

" وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين "(١)

" واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون "(٢)

ويقول الله سبحانه على لسان نبى الله صالح عليه السلام : ـ

" ان ربى قريب مجيب "(٣)

ويبين لنا سبحانه أنه يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء :

أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء "(٤)

ويقول سبحانه :

" واسألوا الله من فضله "(٥)

على أن الحديث الذى يظهر لنا عظمة ملك الله سبحانه وتعالى وخلقه تقديرا : هو :

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة الا آتاه الله تعالى اياها أو صرف عنه السوء مثلها لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ...

فقال رجل من القوم : اذا نكثر

قال : الله أكثر(٦)

---

(١) غافر : ٦٠ (٢) البقرة : ١٨٦
(٣) هود : ٦١ (٤) النمل : ٦٢
(٥) النساء : ٣٢ (٦) رواه الترمذى والحاكم فى المستدرك .

وحد : فان الدعاء اتجاه الى السمد ،ولن يجيب الله المتجه اليه بالدعاء مسألة أواستعانة .

" اذا سألت فاسأل الله ،واذا استعنت فاستعن بالله "

" لاالـه الا الله ، وخصائص الألوهية :

" لاالـه الا الله المتصرف المطلق في الكون ،خلق كل شيء في الكون فقدره تقديرا ،وتصرفات الله في الكون لا حصر لها ، وهي تظهر لنا بعض عظمة ملكه وخلقه ،ومن أمثلة ذلك :

يأتي ملك جيش أبرهة يريد أن يهدم الكعبة ، جيش جرار أسلحة ،وفيله ، وخيله وسيوف ،ورماح ،ويأتي جبارا طاغيا يريد هدم الكعبة ،ماذا يكون ؟

" طير يرمي بحجارة من سجيل وينتصر الجيش الجرار وينتهي الطغيان في لحظة وصورة يسيرة .

" لا الـه الا الله " في غزوة بدر وكان المسلمون قليلي العدد :

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة)(١)

كانوا أذلة أقلة في العدد قلة في السيوف ،قلة في الخيل ، قلة في كل شيء ، وكانوا ثلثي نصر العدو ،والعدو كان مسلحا بكل شيء آتيا في قوة وشدة ، وجبروت .

وينصر الله الأقل عددا والأقل قوة لماذا ؟

لأنهم يؤمنون بأن : (لا الـه الا الله "

في هذا الموقف يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظم الجيش ويتخذ لكل أمر عدته ،الصغيرة والكبيرة ، وهو من قبل أن ينظم الجيش يؤمن بأن " لاالـه الا الله

---

(١) آل عمران آية : ١٢٣

وفى أثناء تنظيم الجيش : " لا اله الا الله "

وسمه تنظيم الجيش : لااله الا الله ،الثقة المطلقة فى الله سبحانه وتعالى

وعلى سبيل المثال أيضا :

اذا نظرت الى الأجل ، فالأجل محدود ولن ينفع الانسان الجبن

اذاكان بجبانا لن ينفعه ،فى اطالة العمر ،فالآجال محدودة ولكل أمة أجل ،

" فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون "(١)

والشجاعة لاتقصر من الأجل ان الآجال بيدالله

وهذا من معانى : " لااله الا الله ،

والأرزاق بيد الله :

"وفى السماء رزقكم وماتوعدون"(٢)

ثم يقسم الله سبحانه وتعالى على ذلك ،لأن الانسان قلق دائما من ناحية الرزق ،

" فورب السماء والأرض انه لحق "(٣)

لقد حدد الله الآجال ، وضمن الرزق ،والانسان العاقل المتزن هو الذى يثق فى الله وحده ،

" الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا "(٤)

---

(١) الأعراف آية : ٣٤ (٢) الذاريات آية : ٢٢

(٣) الذاريات آية : ٢٣ (٤) الفرقان آية : ٢

عناية واضحة بوجوب إخلاص العبادة لله وحده ،وقصر الاستعانة عليه وحده سبحانه وتعالى :

والقرآن يوضح بما لا يزيد عليه " أن الله سبحانه وتعالى هو وحده المتصرف في الكون :

" انه المتصرف في اليسير من أمر الكون وفي العظيم منه .

" قل اللهم مالك الملك : تؤتي الملك من تشاء ،وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ،وتذل من تشاء ،بيدك الخير ،انك على كل شيء قدير "(١)

وهو سبحانه كما يملك السموات والأرض وكما يمسكهما أن تزولا

" ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده "

فانه يملك كل جزئية من جزئيات العالم :

" انه يملك البصر في العين ويملك السمع في الأذن ، كما يملك العين والأذن ،

ويملك الصحة في الجسم السقيم ،ويملك استمرار الحياة عند ذوي الحياة ،

ولو شاء الله سبحانه لأزال ذلك كله ومنع استمراره ،

ان قوله تعالى : " واليه " يرجع الأمر كله " عام شامل ،

ومن أجل ذلك يجب أن تكون العبادة له وحده ،خالصة لوجهه ، وان الاستعانة يجب تتجه له .

الوسيلة الصحيحة للاستعانة لله سبحانه وتعالى ، انما هي اخلاص العبادة له وحده ،فمن أحب أن يكون الله سبحانه وتعالى معه ... ممن أحب أن يستجيب الله له ،فاليحقق العبودية له سبحانه : " اياك نعبد " وسيلة لتحقيق : (واياك نستعين)

---

(١) آل عمران آية : ٢٦

روى الامام البخارى فى حديث قدسى :

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن ربه :

" من عادى لى وليا فقد أذنته بالحرب ، وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى من أداء ما افترضته عليه ، ومايزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وان سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه "(١)

وهذا الحديث الشريف يبين لنا بوضوح أن أحب شىء يتقرب به الانسان الى الله سبحانه وتعالى ، انما هو أداء ما افترضه عليه ، وان الاكثار من النوافل مع أداء الفرائض وسيلة الى حب الله سبحانه وتعالى لعبده .

ومحمد : فان " اياك نعبد واياك نستعين " هى النموذج الكامل للتوحيد فى العبادة ، هى تحقيق للايمان الصحيح والتقوى الصادقة .

---

(١) رواه أبوهريرة وأخرجه الامام البخارى

" التوحيد في الأخلاق "

على أن الآيات التي تبين لنا التوحيد في الأخلاق والتي رسمه الله سبحانه وتعالى فيها منهجا ووسيلة يرسمه عباده وقواعد وغايات وأهداف: هي قوله تعالى :

" اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين "

ومما يبين أيضا ذلك قول الله سبحانه وتعالى في حديث قدسي :

" ياعبادي كلكم ضال الا من هديته فاستهدوني اهدكم "

ان الهداية من الله سبحانه وتعالى " ومن يهد الله فلا مضل له " ومن يضلل فلا هادي له " واذا هدى الانسان الى الصراط المستقيم فقد فاز بالخير الذي أراده الله للانسان كاملا .

والصراط المستقيم هو الايمان الصادق والايمان الاتباعي .

أي الايمان الذي تتحكم فيه التعاليم الالهية تحكما تاما ويسود في صدر اطارها راضيا تسليما مستسلما :

" فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما " (١)

فالانسان لا يؤمن حتى يحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمور عقيدته وفي أمور أخلاقه وفي أمور تشريعه بل وحتى يتقبل ذلك كله في سكينة واطمئنان واعتياد .

ويصف الله المؤمنين الصادقين فيقول :

---

(١) النساء : آية : ٦٥

" انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهـــدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون "(١)

وهذا الوصف للمؤمنين يتناول وصف الايمان القلبى : انه ايمـــان لاريب فيه .

ويتناول الأثر والمظهر ، انه الجهاد فى سبيل ما آمن به :

جهـــاد النفس ، وجهاد المال ، وجهاد بجميع أقطار النفس وجهاد بكل ما تملك .

وهذه الآية تعتبر مقياسا صادقا لكل من أراد أن يتبين حقيقـــة ايمانه .

والصراط المستقيم غايته ونهايته التى يؤدى اليها ، انما هى الله سبحانه وتعالى .

وقد حددها سبحانه بقوله :

" وأن الى ربك المنتهى "(٢)

وليس دون الله منتهى للمؤمن ، وغاية المؤمن كل غايته ، انما هى الله سبحانه وتعالى .

على أن الله سبحانه وتعالى يصف المؤمنين بينما خطواتهم فى الطريق الى الله سبحانه وتعالى ، أو بينما الطريق نفسه فى تسامية وتدرجه ، فيقـــول سبحانه فى وصفهم :

" التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون ، الساجدون ، الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين "(٣)

---

(١) الحجرات آية : ١٥ (٢) النجم آية : ٤٢

(٣) التوبة : آية : ١١٢

ولقد بدأ الله سبحانه وتعالى وصف المؤمنين بقوله :

" التائبون "

إن السير الى الله يبتدئ بالتوبة الخالصة النصوح ، وهي أول خطوة على الصراط المستقيم .

والله سبحانه وتعالى يقول :

" وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون " (١)

ويقول في حديث قدسي :

" يا عبادي انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم "

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما أخرجه البخاري عن أبي هريرة :

" والله اني لأستغفر الله وأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة "

ويقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الامام مسلم عن الأغر بن يسار رضي الله عنه :

" يا أيها الناس توبوا الى الله واستغفروه فاني أتوب في اليوم مائة مرة "

والصراط المستقيم اذن : يبدأ بالتوبة الخالصة النصوح وليس لله دون الله منتهى .

وبعد : فلقد أنبى الله سبحانه وتعالى وصف المؤمنين الذين يسيرون على الصراط المستقيم بقوله سبحانه :

" وبشر المؤمنين "

وهذا القول لا يحده حدود ولا يقيده قيود ، فالبشرى مطلقة ، انها بشرى الله لهم بالنجاة والفوز في الدنيا والآخرة .

---

(١) النور آية : ٣١

تحديد الايمان الصادر عن التوحيد فى الأخلاق :

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال :

" انسه الاخلاق "

ويقول سبحانه :

" ألا لله الدين الخالص " (١) فكل ماليس خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى لايثيب عليه ولايتقبله "

ولقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء على اختلاف صوره شرك يحبط العمل ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما رواه الامام أحمد :

" ان أخوف ما أخاف على أمتى الشرك الأصغر "

قالوا : وماالشرك الأصغر يارسول الله ؟

قال : " الرياء " ، يقول الله عز وجل : اذا جزى الناس بأعمالهم :

" اذهبوا الى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟ "

والرياء مجموعة من الآثام تنزل بالآذان الى مستوى من الاخلاق غير كريم .

من ذلك ماقاله صلى الله عليه وسلم — فيما رواه البيهقى :

" من صام يرائى فقد أشرك ومن صلى يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك " (٢)

ان كل عمل لايراد به وجه الله شرك يتنافى مع التوحيد لايتقبله الله ولايثيب عليه .

على أن الفيصل فى هذا مارواه البخارى رضى الله عنه بسنده عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى ، فمن كانت هجرته الى

(١) الزمر آية : ٣ (٢) سبق تخريجه .

الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ،ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ،أوامـــرأة ينكحها فهجرته الى ماهاجر اليه "

ومن هنا نرى أن الدعوة الاسلامية بدأت بالاتجاه الى الله وحده ،كمـــا بدأت تشريعها بشرح الأخلاق الفاضلة ،من أول يوم نادى به الرسول صلى اللـه عليه وسلم بالاتجاه الى الله ،والعمل بمكارم الأخلاق ،قال صلى الله عليه وسلم :

" انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "(١)

وكان التوحيد بمعنى تفرد الله عزوجل بالخلق والتدبير هو المرحلة الأولى والوسيلة التي انفرد الله عزوجل بالعبادة ،وهي وسيلة فطرية مرتكزة في نفوس العرب ،وخاصة في نفوس عقلائهم ،ولم يقف بهم القرآن عند تقرير هـــذه العقيدة المنحصرة في نفي القرين ،واعتقاد أن الله واحد في ذاته وصفاته وأفعاله الا ريثما ينقلهم منها الى أن يتجهوا بعبادتهم وتقديمـــهم الى الله الصمد ،وهـــي المرحلة الفاصلة بين صفاء عقيدة الاسلام وما كان يشوب عقيدة الجاهلية المؤمنـــة بالله ،مع الاشراك به في العبادة وكان التوحيد في الأخلاق على قمته هذا الهدف الأصيل الذي يوائم بين العقيدة والعمل وخلال الخصوصية والغاية ،وهو الاخلاص في العمل ومن هنا نرى أن الاسلام جاء بعقيدة التوحيد كاملة صافية ،ينسجـــم فيها الاعتقاد ،والقصد ،والعمل ،

" فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها "(٢)

---

(١) رواه مالك في الموطأ بلاغا عن النبي صلى الله عليه وسلم ،وقال ابـــن عبد البر وهو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره ،ومنها مارواه أحمـــد والطبراني في أول المكارم بسند صحيح عن أبي هريرة مرفوعا ،ومنها ما رواه الطبراني في الأوسط ومنها ماعزاه الديلمي لأحمد في مسنده عـــن معاذ رضي الله عنه .

(٢) الروم آية : ٣٠

الفصـــل الثالـــث

" فضل الله على العباد وتنزهـــه عن المماثلـــة "

" تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا "

يحمل العلماء لفظ تبارك على معنيين : وهو بمعنى تزايد خيره وكثاره ، أوعلى معنى التنزيه ،أى تعالى عن كل شيء في صفاته وأفعاله .

فعلى المعنى الأول : وهو تزايد خيره وكثاره ،يقول الراغب الأصفهاني :

" البركة ثبوت الخير الالهي في الشيء ،قال تعالى :

" ..... لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض "(١)

وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة ،وقوله تعالى :

" الذي جعل في السماء بروجا "(٢)

فتبينه على ما يضمنه علينا من نعمه بواسطة هذه البروج المشيرات المذكورة في هذه الآية ، وقوله تعالى :

" فتبارك الله أحسن الخالقين "(٣)

" تبارك الذي نزل الفرقان على عبده "(٤)

" تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات ... "(٥)

كل ذلك تبيينه على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة مع ذكر "تبارك"(٦)

أما الوجه الثاني : الذي عمر عليه اللفظ ،فهو مذكور في تفسير الفخر الرازي .

فبعد أن ذكر الوجه الأول قال نقلا عن الزجاج :

" والثاني" : تزايد عن كل شيء ،وتعالى عنه : في ذاته ،وصفاته ،وأفعاله ، وهو المراد من قوله :

" ليس كمثله شيء "(٧)

---

(١) الأعراف : ٩٦ (٢) الفرقان : ٦١ (٣) المؤمنون : ١٤
(٤) الفرقان : ١ (٥) الفرقان : ١٠ (٦) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني صـ ٤٣
(٧) الشورى آية : ١١

وأما تعاليه عن كل شيء في ذاته : فيختص أن يكون المعنى : بل يوجوب وجوده وقدمه عن جواز الفناء والتغير عليه ؛ وأن يكون المعنى بفردانيته ، ووحدانيته عن مشابهة شيء من الممكنات .

وأما تعاليه عن كل شيء في صفاته فيختص أن يكون المعنى : بل أن يكون علمه ضروريا ، أو كسبيا ، أو تصورا ، أو تصديقا ؛ وفي قدرته أن يحتاج الى مادة وعدة ، وآلة غير وشاق .

وأما في أفعاله : فيحتمل أن يكون الوجود والبقاء وصفتي سائر الوجود الا من تجلله (١) .

ولم يتعرض الفخر الرازي لتحديد المراد من لفظ تبارك في الآية بل ذكر أنها تحتمل المعنيين :

تكاثر الخير ، أو التنزيه .

والواقع أن كلا المعنيين يناسب السورة ، ولم يقم عليهما أي خلاف بين المفسرين يقول الامام الألوسي :

" تبارك " بالمعنى الأول على انزاله بل بأنه القرآن ، لما أنه ناطق بعلو شأنه سبحانه وسمو صفاته ، واشتماء أفعاله على أسباب الخير والمصالح وخلوها عن شائبة الخلل بالكلية ، وترتيب ذلك بالمعنى الثاني عليه ، لما فيه من الخير الكثير ، لأنه هداية ورحمة للعالمين ، وفيه ما ينتظم به أمر المعاش والمعاد ، وكل المعنيين مناسب للمقام " (٢) اهـ

على أن الذي جمع بين المفسرين في قالب واحد هو أبو حيان في تفسيره البحر المحيط (٣) .

---

(١) الفخر الرازي جـ ٦ ص ٤٤٤ (٢) الألوسي جـ ١٨ ص ٢٣١

(٣) جـ ٦ ص ٤٧٨ البحر المحيط

انه لما ذكر فى السورة التى قبلها وجوب مبايعة المؤمنين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنهم اذا كانوا معه فى أمر مهم ،توقف انفصال واحد منهم على اذنه وحده من يخالف أمره ،وذكر أن له ملك السموات والأرض ،وأنه تعالى عالم بما هم عليه ومجازيهم على ذلك ،فكان ذلك غاية فى التحذير والانذار ،ناسب أن يفتتح هذه السورة ،بأنه تعالى منزه فى صفاته عن النقائص ، كثير الخير ،ومن خيره : أنه نزل الفرقان على رسوله منذرا لهم فكان فى ذلك أطماعا فى خيره وتحذيرا من عقابه (١) .

واسناد الفعل الى الذى مع أن الكفار لا يقرون بأن الله تعالى هو الذى نزل الفرقان نظرا ،لأنه قد قام الدليل على اعجازه ؛ ولقوة هذا الدليل ،وعدم خفائه أجراه الله تعالى مجرى المعلوم ؛

يقول الامام الألوسى :

" وابراز تنزيل الفرقان فى معرض الصلة التى حقها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند السامع مع انكار الكفرة له لاجرائه مجرى المعلوم المسلم : تنبيها على قوة دلائله ،وكونه بحيث لا يكاد يجهله أحد كقوله تعالى :

" لا ريب فيه "

وكذا يقال فى نظائره من الصلات التى ينكرها الكفرة (٢) .

وذكر الألوسى قولا آخر يقول :

" وقال بعضهم : لا حاجة لما ذكر اذ يكفى فى الصلة أن تكون معلومة للسامع المخاطب بها ولا يلزم أن تكون معلومة لكل سامع ،والمخاطب بها هنا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو عليه الصلاة والسلام عالم ثبوتها للموصول " (٣)

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان جـ ٦ صـ ٤٧٨

(٢) الألوسى جـ ١٨ صـ ٢٣٢

(٣) الألوسى جـ ١٨ صـ ٢٣٢

على أن الامام الألوسى يعود فيؤكد مرة أخرى على رجحان الرأى الأول بقوله :

وما ذكر أولا من تنزيلها منزلة المعلوم أبلغ لكونه كناية عما ذكر مناسبة للرد على من أنكر النبوة وتوحيد الله تعالى .

نزل :

يقول الراغب الأصفهانى فى معنى نزل وأنزل :

" النزول فى الأصل هو انحطاط من علو ،يقال نزل عن دابته ،ونـــزل فى مكان كذا حط رحله فيه ،وأنزله غيره ،قال :

" أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين "

والفرق بين الانزال والتنزيل فى وصف القرآن والملائكة : أن التنـــزيل يختص بالموضع الذى يشير اليه انزاله مفرقا مرة بعد أخرى ،والانزال عام فيمـــا ذكر فيه التنزيل قوله :

" نزل به الروح الأمين "(١)

" انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون "(٢)

" لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم "(٣) ا . هـ

الفرقان :

وعلى هذا الرأى : يكون معنى الفرقان أنه فرق فى النزول مفصـــلا بعضه وبعض فى الانزال .

ويرجح هذا الرأى الامام الرازى والامام القاسمى ،يقول الفخر الرازى :

" لانزاع أن الفرقان هو القرآن وصف بذلك من حيث أنه سبحانه فـــرق به بين الحق والباطل فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبين الحلال والحـــرام

(١) الشعراء آية : ١٩٣ (٢) الحجر آية : ٩

(٣) الزخرف آية : ٣١ أنظر الراغب صـ ٧٠٥

أو لأنه فرق فى النزول كما قال :

" وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث "(١)

وهذا التأويل أقرب ، لأنه قال : نزل الفرقان .

ولفظة " نزل " تدل على التفريق ، وأما لفظة " أنزل " فتدل على الجمع ، ولذلك قال فى سورة آل عمران :

" نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل "(٢) ا . هـ

أما الامام القاسمى فيقول :

" الفرقان مصدر فرق بين الشيئين اذا فصل بينهما وسمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل أولأنه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفروقا مفصلا بين بعضه وبعض فى الانزال .

ألا ترى الى قوله :

" وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا "

قال الناصر : والأظهر ههنا هو المعنى الثانى ، لأنه فى أثناء السورة بعد آيات :

" وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة "

قال الله تعالى : " كذلك " أى أنزلناه مفرقا كذلك " لنثبت به فؤادك " فيكون وصفه بالفرقان فى أول السورة ـ والله أعلم ـ كالمقدمة والتوطئة لما يأتى بعد "(٣) ا . هـ

والظاهر أن المفسرين الذين فسروا هذا التفسير رجحوه بناء على وضع السورة نفسها ومعناها المتوافق بالنسبة للفظ نزل وبالنسبة للآيات التى أتت بعد ذلك وهو ما نرجحه من التفسير .

---

(١) الفرقان آية :
(٢) الفخر الرازى جـ ٦ صـ ٤٤٤
(٣) محاسن التأويل جمال الدين القاسمى جـ ١٢ صـ ٤٥٦٢

على عبـــده :

يقول الراغب : العبودية اظهار التذلل ولايستحقها الا من له غاية الافضال وهو الله تعالى ،ولهذا قال :

" ألا تعبدوا الا اياه "

والعبادة ضربان : عبادة بالتسخير ،وعبادة بالاختيار ،وهى لذوى التطوق ، وهى المأمور بها فى نحو قوله تعالى :

" أعبدوا ربكم " ، " واعبدوا الله "

والعبد يقال على أربعة أضرب :

الأول : عبد بحكم الشرع ،وهو الانسان الذى يصح بيعه وابتياعه ،نحو :

والعبد بالعبد ،وعبدا مملوكا لايقدر على شىء .

الثانى : عبد بالايجاد ،وذلك ليس الا لله واياه قصد بقوله :

" ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا "

والثالث : عبد بالعبادة والخدمة ،والناس فى هذا ضربان :

عبد لله مخلص ، وهو المقصود بقوله :

" واذكر عبدنا أيوب "(١) ،وبقوله : " انه كان عبدا شكورا "(٢) (٣)

وقوله : " نزل الفرقان على عبده "

وعبـــد للدنيا وأغراضها ،واياه قصد النبى صلى الله عليه وسلم بقوله :

" تعس عبد الدرهم ،تعس عبد الدينار "(٤)

وعلى هذا النحو يصح أن يقال :

ليس كل انسان عبد الله ، فان العبد على هذا بمعنى العابد ،لكـــن

---

(١) ص آية ٤١ (٢) أى نوحا عليه السلام (٣) الاسراء آية : ٣

(٤) اخرجه البخارى وابن ماجة عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا

أبلغ من العابد ؛ والناس كلهم عباد الله بل الأشياء كلها كذلك ، لكن بعضها بالتسخير ، وبعضها بالاختيار ؛

وجمع العبد الذى هو مسترق عبيد ، وقيل عبد ؛

فالعبيد اذا أضيف الى الله أعم من العباد ، ولهذا قال :

" وما أنا بظلام للعبيد " (١)

فنبه أنه لا يظلم من يختص بعبادته ، ومن انتسب الى غيره من الذين تسموا بعبد الشمس ، وعبد اللات ونحو ذلك " (٢)

ليكون للعالمين نذيرا :

يقول الراغب الأصفهانى :

العالم اسم للملك ومايحويه من الجواهر والأعراض ، وهو فى الأصل اسم لما يعلم به ، كالطابع والخاتم ، لما يطبع ويختم به ، وجعل بناؤه على هذه الصيغة لكونه كالآلة ، والعالم آلة فى الدلالة على صانعه ، ولهذا أحالنا تعالى عليه فى معرفة وحدانيته فقال :

" أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض " (٣)

وأما جمعه فلأن من كل نوع من هذه قد يسمى عالما فيقول :

عالم الانسان ، وعالم الماء ، وعالم النار ، أيضا وقد روى أن لله بضعة عشر ألف عالم ،

وأما جمعه جمع السلامة فلكون الناس فى جملتهم والانسان اذا شارك غيره فى اللفظ غلب حكمه .

وقيل : انما جمع هذا الجمع لأنه عنى به أصناف الخلائق من الملائكة والجن والانس وغيرهما (٤)

---

(١) ق آية : ٢٩ (٢) الراغب صـ ٣٢٢

(٣) الأعراف آية : ١٨٥ (٤) الراغب صـ ٣٤٩

نتبين من كلام الراغب : أن المقصود بقوله تعالى (للعالمين) هو أن العالم كل ماسوى الله تعالى ،ويتناول جميع المكلفين من الجن والانس والملائكة :

على أن الامام الرازى يعترض على كون الرسول صلى الله عليه وسلم ،كان مرسلا أيضا الى الملائكة فيقصر الرسالة على الانس والجن جميعا يقول :

" ان العالم كل ماسوى الله تعالى ،ويتناول جميع المكلفين من الجن والانس والملائكة ،لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن رسولا الى الملائكة ،فوجب أن يكون رسولا الى الجن والانس جميعا ،ويبطل بهذا قول من قال : انه كان رسولا الى البعض دون البعض "(١)

ويؤيد هذا الرأى صاحب تفسير البحر المحيط فيقول :

وللعالمين عام للانس والجن من عاصره أوجاء بعده وهذا معلوم من الحديث المتواتر وظواهر الآيات :

وقرأ ابن الزبير للعالمين للجن والانس وهو تفسير العالمين ،ولما سبق فى أواخر السورة :

" ألا ان لله مافى السموات والأرض "(٢)

فكان اخبارا بأن مافيهما ملك له "(٣) ا ٠ هـ

ويقابل هذا الفريق المخصص للعالمين بكونهم الانس والجن فريق آخر ذكره الامام الألوسى يقول :

" والمراد بالعالمين عند جمع من العالمين الانس والجن ممن عاصره صلى الله عليه وسلم ، الى يوم القيامة ،

---

(١) الفخر الرازي صـ ٤١٤ جـ ٦ (٢) يونس ٥٥

(٣) البحر المحيط (أبى حيان) جـ ٦ صـ ٤٧٨

ويؤيده قراءة ابن الزبير للعالمين للجن والانس وارساله صلى الله عليه وسلم اليهم معلوم من الدين بالضرورة فيكفر منكره ،وكذا الملائكة ، كما رجحه جمع محققون ، كالسبكى ومن تبعه ، ورد على من خالف ذلك ،

وادعى بعضهم دلالة الآية عليه ،لأن العالم ما سوى الله تعالى وصفاته العلى ،فيشمل الملائكة عليهم السلام ،وصيغة جمع المقلاء للتقليب ، أو جمع بعد تخصيصه بالعقلاء (١)

على أنه يمكن التوفيق بين الرأيين :

يقول : نعتقد أنه يسعنا بنا عن الدخول فى أى جدل حول هذا الموضوع وهو فى نظرنا القول الصواب ،وقد ذكره الامام الألوسى فى خاتمة بحثه بعد أن عرض الآراء فى تفسير العالمين يقول :

" ومن قال كالبارزى : انه عليه الصلاة والسلام أرسل حتى الى الجمادات بعد جعلها مدركة لظاهر خبر مسلم ،وأرسلت الى الخلق كافة لم يخصص ،واكتفى بالتغليب ،

وفائدة الارسال للمعصوم وغير المكلف طلب اذعانهما لشرفه عليه الصلاة والسلام ودخولهما تحت دعوته وأتباعه ،تشريفا على سائر المرسلين عليهم السلام (٢)

" نـذيرا "

يقول الراغب : والانذار اخبار فيه تخويف كما أن التبشير اخبار فيه سرور قال :

" فأنذرتكم نارا تلظى " (٣)

أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود (٤)

---

(١) الألوسى جـ ١٨ ص ٢٣١ (٢) الألوسى جـ ١٨ صـ ٢٣٢

(٣) سورة الليل آية ١٤ (٤) فصلت آية : ١٣

" واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالأحقاف "(١)

والنذير المنذر ويقع على كل شيء فيه انذار انسانا كان أوغيره :

" انى لكم نذير مبين "

انى أنا النذير المبين ،

والنذر جمعه ، قال

هذا :نذير من النذر الأولى

أى من جنس ما أنذر به الذين تقدموا قال :

" كذبت ثمود بالنذر "

وقد نذرت أى علمت ذلك وحذرت(٢)

والمعنى أن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم بالفرقان ليكون للعالمين جميعا نذيرا ومخوفا لهم اذالم يؤمنوا بما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سواء من ناحية العقيدة أومن ناحية التشريع ، والقرآن به وهذا للدلالة على أهمية ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مما يستدعى الانذار لمن لايؤمن به من العالمين ،

على أن المقام هنا يوجب ذكر نوع من التبشير نظرا لقوله تبارك في أول الآية وهى تدل على كثرة الخير والبركة فكيف جاز الانذار هنا ؟

يرد الفخر الرازى على هذا الاعتراض بقوله :

ان هذا الانذار يجرى مجرى تأديب الولد وكما أنه كلما كانت المبالغة فى تأديب الولد أكثر كان الاحسان اليه أكثر لما أن ذلك يؤدى فى المستقبل الى المنافع العظيمة فكذا ههنا كلما كان الانذار كثيرا كان رجوع الخلق الى الله

---

(١) الأحقاف آية : ٢١ (٢) الراغب ص ٤٨٧

أكثر فكانت السعادة الأخروية أتم وأكثر ، وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات الى المنافع العاجلة ،وذلك لأنه سبحانه لما وصف نفسه بأنه الذى يعطى الخيرات الكثيرة لم يذكر الا منافع الدين ،ولم يذكر البتة شيئا من منافع الدنيا (١).

" الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا " (٢)

جمعت هذه الآية الكريمة بين خصائص الألوهية ،وهى الملك والخلق والتقدير والاستغناء عن الولد والشريك ، وبينت أن الذى يتصف بهذه الخصائص هو : الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ؛

فهو حقيق أن يؤمن به المشركون ،ويتبعوا رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم ،

فأما اذا تتبعنا هذه الخصائص نجد أنها لا تكون الا لله سبحانه وتعالى ،ولا يتأتى لها أن تتوافر فيمن سواه .

" الذى له ملك السموات والأرض "

يقول الامام أبو حامد الغزالى : ـ فى تعريف الملك ـ فى شرحه لأسماء الله الحسنى :

" هو الذى يستغنى فى ذاته وصفاته عن كل موجود بل لا يستغنى عنه شىء فى شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى وجوده ولا فى بقائه ،بل كل شىء سواه ،فهو له مملوك فى ذاته وصفاته ،وهو مستغن عن كل شىء فهذا هو الملك المطلق (٣)

فكيف ندعى الألوهية لغيره سبحانه وتعالى ؟ وغيره مفتقر اليه

---

(١) الفخر الرازى جـ ٦ صـ ٤٤٥ (٢) الفرقان آية : ٢

(٣) المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى للامام أبى حامد الغزالى ص ٤٠

فانه لايتصور أن يكون غيره ملكا مطلقا يستغني عن جميع الموجودات وتكون هي محتاجة اليه .

على أنه اذا كان المالك مشتق من الملك فاننا يمكننا أن نضيف الى قولنا بأنه :

" مالك الملك " والتي يقول الامام أبو حامد الغزالي عنها :

" هو الذي ينفذ مشيئته في مملكته كيف شاء وكما شاء ايجادا واعداما ، وابقاء وافناء " والملك ههنا بمعنى المملكة ، والمالك بمعنى القادر التام القدرة (١) على أنه اذا كان تحقيق الملك عند أهل التحقيق القدرة على الابداع والانشاء ، فلا مالك في الحقيقة الا الله ، وفي غيره مجاز فاذا ثبت لزم العبد أن يتبرأ من الاضافة الى نفسه فلا يقول : بي ولا لي ، ولا مني ، ولهذا قيل :

التوحيد اسقاط الياءات (٢) " يعني ياءات الاضافة الى نفسه ، كما يقول الامام القشيري

فاننا يمكننا أن نأخذ من قوله سبحانه وتعالى :

" الذي له ملك السموات والأرض " دلالة الأثر على المؤثر ، وهو دليل منطقي مشهور يستدل به ، واذا كنا نضيفه الى التفاسير السابقة ، فاننا نشارك في هذا الرأي الامام الفخر الرازي حيث يقول في تفسيره :

قوله : " الذي له ملك السموات والأرض " ، وهذا للتنبيه على الدلالة على وجوده سبحانه ، لأنه لاطريق الى اثباته الا بواسطة احتياج أفعاله اليه ، فكان تقديم هذه الصفة على سائر الصفات كالأمر الواجب ،

وقوله : " له ما في السموات والأرض " اشارة الى احتياج هذه المخلوقات

---

(١) المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى للامام الغزالي

(٢) التحبير في التذكير للامام عبد الكريم القشيري ص ٢٦

اليه سبحانه بزمان حدوثها ،وزمان بقائها فى ماهيتها وفى وجودها ،
وأنه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء (١) ،

ولم يتخذ ولدا :

يقول الراغب :

الأخذ حوز الشىء وتحصيله (٢)

ومن هنا يمكننا أن نفهم المقصود من قول الامام الألوسى :

" ولم يتخذ ولدا " أى لم ينزل أحد منزلة الولد (٣) "

ردا بذلك على النصارى ودعواهم هم واليهود بأن المسيح أو العزيـــر لايشترط أن يكونوا أبناء لله من صلبه بل هم أبناء بالاتخاذ ،فكان هذا أبلغ رد على تلك الدعوى ،فانه سبحانه وتعالى ـ كما يقول الامام الفخر الرازى ـ فى قوله :

" ولم يتخذ ولد " (١)

فبين سبحانه أنه هو المعبود أبدا ،ولا يصح أن يكون غيره معبودا وارثـا للملك عنه ،فتكون هذه الصفة كالمؤكدة لقوله " تبارك " ،ولقوله : " له ملك السموات والأرض" وهذا كالرد على النصارى .

ولم يكن له شريك فى الملك :

يقول الراغب الأصفهانى ـ فى مفردات القرآن ـ بالنسبة للفظ شرك :

" الشركة والمشاركة خلط الملكين ،

وقيل : هو أن يوجد شىء لايبين تصاعدا عينا كان ذلك الشىء أو معنى كمشاركة الانسان والفرس فى الحيوانية ومشاركة فرس وفريس فى الكمتة والدهمـــة ،

وشرك الانسان فى الدين ضربان :

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ (٢) الراغب ص ١٢
(٣) الألوسى جـ ١٨ ص ٢٣٢ (٤) الفخر الرازى ص ٤٤٥ جـ ٦

يخلقون أساسا من الله ، وتصويرا بصنع عبدتهم لهم بالنحت.

ثم تبين الآيات حال هؤلاء الآلهة بعد وجودهم بأنهم :

" ولايملكون لأنفسهم ضرا ولانفعا "

يقول الامام الألوسى :

وقيل لأنفسهم ليدل على غاية عجزهم ،لأن من لايقدر على ذلك فى حق نفسه ،فلأن لايقدر عليه فى حق غيره من باب أولى (١) آ . هـ

هذا على الرغم من أن من أهم خصائص الالـه قدرته على التصرف بالنسبة لغيره ولذاته ،

ثم تشـــيع الآية قولها :

" ولايملكون موتا ولاحياة ولانشورا " وهذا زيادة بيان لما سبق مـــن عجزهم عن اتيان أى شىء من الأفعال ،فهم لايستطيعون اماتة الأحيـــــاء ولا احياء الموتى ولا على الجزاء الأخروى فكيف يكونون آلهة وهم لايقدرون على شىء ؟

موقف المشركين من عبادة الأوثان :

يثـــور هنا بناء سؤال أننا نجد فى كثير من الآيات القرآنية ، ما يفهم منه أنهم كانوا يؤمنون بوجود رب ،فكيف يكون ، كقوله تعالى :

" وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون (٢)

وقال تعالى : " ٢٣ ــ ٨٥ " :

" قل لمن الأرض ومـــن فيها ان كنتم تعلمون " ؟ ؛

سيقولون لله قل أفلا تذكرون ؛

قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ ؛

سيقولون : لله : قل أفلا تتقون ؟

(١) الألوسى ص ٢٣٤ جـــ ١٨ (٢) يوسف آية : ١٠٦

" قل : من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ؟ ؛ سيقولون لله قل : فأنى تسحرون ؟

وقال تعالى " ٢٩ ــ ٦١ " :

" ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله "

للاجابة على هذا السؤال :

ان مشركى العرب كانوا مقرين بوجود الله ، وأنه رب كل شيء وخالقه ولكنهم مع ذلك أتخذوا الشفعاء الذين " جعلوهم أندادا لله سبحانه وتعالى من الأوثان وغيرها .

بل ان الامام ابن تيمية يقول :

ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها كما يدعو الله تعالى ويصوم لها وينسك لها ويتقرب اليها ، ثم يقول :

" ان هذا ليس بشرك ، وانما الشرك اذا اعتقدت أنها هى المدبرة لى ، فاذا جعلتها سببا وواسطة لم أكن مشركا " (١) ا . هـ

فيكون قول الله تعالى أنهم جعلوا دونه آلهة ، المراد بها أنهم زادهم الطغيان فى التقرب الى أصنامهم .

ومما يشرح لنا هذه الفكرة شرحا وافيا قول الامام ابن تيمية فى قوله :

وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية ، وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم ، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف ، ويظن هؤلاء أنهم اذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد ، ويظن هؤلاء أنهم اذا شهدوا هذا وفنوا فيه ، فقد فنوا فى غاية التوحيد ، .

---

(١) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول شيخ الاسلام ابن تيمية ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ومحمد حامد الفقى ص ١٣٧ و ص ١٣٨

وعامة المشركين أقروا بأن الله خالق كل شيء ،وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم معه وجعلوا له أندادا ،

قال تعالى : "٣٩ ـ ٤٣ "" أم اتخذوا من دون الله شفعاء ،قل أولو كانوا لايملكون شيئا ولايعقلون ،قل لله الشفاعة جميعا "(١)

وبهذا تتضح عقيدة المشركين على ضوء موقف سورة الفرقان من الألوهية ،

هذا وبالله التوفيق ،

---

(١) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لابن تيمية تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ،ومحمد حامد الفقي ص ١٣٧ وص ١٣٨

البـــــاب الثانـــــى

" موقف ســـــورة الفرقـــــان من الألوهيـــــــة "

الفصل الأول : تحديد معنى النبوة وبيان حاجة البشر اليهـــــا ،

" الثانى : اثبات النبوة المحمدية عن طريق النظر فى ســـــيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ،

" الثالث : شبه على دليل الرسالة وهو القرآن والرد عليها ،

" الرابع : شبهات المشركين على صاحب الرسالة والرد عليها ،

" الخامس : خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزاتـــــه الحســـية .

الفصـــــــل الأول

" تحديد معنى النبـوة وبيان حاجـة البشر اليهـــا "

" تحديـــد معـــنى النبـــوة "

لفظ النبي مأخوذ من الأنبـاء ،فيتضمن هذا معنى الاعـلام والاخبار ، لكنه في عامة موارد استعماله أخص من مطلق الاخبار ، فهو يستعمل في الاخبـار بالأمور الخاصة المختصة دون المشاهدة المشتركة ،كما قال :

" وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون في بيوتكم "(١)

وقال : " فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا ؟ قال نبأني العلـــيم الخبـير "(٢)

وجمع النبي أنبياء ،وهو من النبأ ،وأصله الهمزة ،وقد قرئ بها ،وهـي قراءة نافع ،يقرأ النـبي ،لكن لما كثر استعماله لينت همزته كما فعل مثل ذلـك في الذرية وفي البرية ،

وقد قيل : هو من النبوة بفتح النون ،وسكون الباء ،وهي العلـــو ، فمعنى النبي : العلي الرفيع المنزلة ،والتحقيق أن هذا المعنى لازم للأول ،فمن أنبأه الله وجعله منبئا عنه ،فلا يكون الا رفيع القدر عليا ،وأما لفظ العلووالرفعة فلا يدل على خصوص النبوة ،اذ يوصف بهذا من ليس بنبي كما قال تعالى :

" ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون "(٣)

فيقول ابن تيمية :

وقراءة الهمزة قاطعة بأنه مهموز ،وماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" أنا نبي الله ولست نبيء الله "

فما رأيت له اسنادا ،لامسندا ولامرسلا ولا رأيته في شيء من كتب الحديث ،

---

(١) آل عمران آية : ٤٩ (٢) التحريم آية : ٣
(٣) آل عمران آية : ١٣٩

ولا السير المعروفة ،ومثل هذا لايعتمد عليه ،

ويبين رحمه الله أننا اذا اعتبرنا النبي مهموز الأصل ،فان الهمزة يمكن أن تلين فذلك جائز ،فتصير حرفا معتلا ،فيعبر عنه باللفظين فترد اليه الفزائتين بخلاف المعتل فانه لايجعل همزة ،فيجب القطع بأن النبي مأخوذ من الأنباء لا من النبوة بفتح النون وسكون الباء والله أعلم (١)

هذا هو التحديد اللغوى لمعنى النبوة ،قد رجحنا فيه أن لفظ النبي مأخوذ من الانباء ،ففيه معنى الاخبار ،لكنه في عامة استعمالاته خاص بالأمور الغائبة المختصة دون المشاهدة المشتركة : اللفظ من النبوة (بفتح النون وسكون الباء ،وهي العلو ،فمعنى النبي عندهم : العلي الرفيع المنزلة والأصح أن هذا المعنى لازم لمعنى الانباء والاخبار فان لفظ العلو ورفعة المنزلة قد يوصف بها من ليس نبي فلا يدل على خصوص النبوة ، ولايدل على خصوص صفة النبي أن من كان نبيا كان رفيع الشأن عالي المنزلة ، كما قدمنا على أنه اذا كان هذا هو التحديد اللفظي واللغوى لمعنى النبوة ،فان أغلب تحديدات معنى النبوة تدور حول هذا ولاتزيد عنه الا قليلا .

فان المشهور في عرف الشرع — كما يقول الامام الألوسي — :

(أن النبي أوحي اليه سواء أمر بالتبليغ أم لا) (٢)

أما صاحب شرح المقاصد على المواقف فيقول :

" ان النبوة هو كون الانسان مبعوثا من الحق الى الخلق (٣)

---

(١) نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن تأليف الدكتور حسن ضياء الدين عتر بن محمد ،وينظر في ذلك أيضا النبوات لتقي الدين أحمد بن تيمية صـ ٣٢٢ الي صـ ٣٢٣ ،وينظر أيضا لسان العرب والقاموس المحيط والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ،

(٢) وعندنا أن كل نبي وكل رسول مأمور بالتبليغ على تفصيل سنذكرة فيما بعد : روح المعاني للامام الألوسي جـ ١٧ ص ١٧٣ في معرض تفسير للآية ٥٢ من سورة الحج " وماأرسلنا من قبلك من رسول ولانبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته "

(٣) شرح المقاصد على المواقف جـ ٢ صـ ١٢٨

أما الامام تقى الدين أحمد بن تيمية فيحددها فى معرض كلامه على النبوة فيقول :

"انّ النبى هو الذى ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأ الله به "(١)

أما الامام محمد عبده فانه لايحدد معنى النبوة بتعريفها ،بل يحددها ويهدفها ويوجز ذلك فى مقدمة كلامه ،ثم يفصله بعد ذلك ، وتذكرها قوله فى مقدمة كلامه عن النبوة :

" النبوة تحدد ماينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجوه من الصفات ، ومايحتاج اليه البشر كافة من ذلك ،وتشير الى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم فى مقدمات عرفانهم ،لكنها لاتختم الا مافيه الكفاية للعامة "(٢)

على أننا اذا نظرنا الى مجموع هذه التحديدات لمعنى النبوة نجد أنها لاتكفى كفاية تامة لتحديد معنى النبوة ،

فلم تحدثنا مثلا هذه التعريفات ، عن علامات الرسل وسماتهم المحدودة ، ومن خلقهم قبل الاصطفاء للنبوة ،وبالتأكيد فان هذه التعريفات لم تخرج عن نطاق التحديد اللفظى للنبوة الا قليلا ولم يخرج عن هذا النطاق سوى الامام محمد عبده ، حيث تكلم عن أهدافها دون تحديد تعريف لها .

ولكن كيف يتأتى لنا أن تحدد معنى النبوة ؟

ان التعريف الذى يحدد لنا معنى النبوة هو التعريف القرآنى ،وهو الذى يخرجنا من هذه الدائرة الضيقة المحدودة للتعريفات السابقة .

وتهدو لنا أولى الآيات التى تحدد لنا المعنى المراد فى قوله تعالى :

---

(١) كتاب النبوات للامام تقى الدين ابى العباس أحمد بن تيمية صـ ١٧٦

(٢) رسالة التوحيد للأستاذ الامام الشيخ محمد عبده صـ ٧٢

" ان الله اصطفى آدم ونوحا ،وآل ابراهيم ،وآل عمران على العالمين "(١)

ويقول : " واتخذ الله ابراهيم خليلا "(٢)

ويقول : " وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى "(٣)

تدلنا هذه الآيات على أن الله يصطفى الأنبياء ويجتبيهم لنفسه ، ويرسم حياتهم قبل ميلادهم ،فيختار لهم النسب الشريف الذى يميزهم عن غيرهم ويصنعهم على عينه ،

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : —

" ان الله اصطفى من ولد ابراهيم ،اسماعيل ،واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة : قريشا ، واصطفى من قريش : بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم "(٤)

وليس هناك دليل على ماذكرنا من قبل أكثر من قول الله سبحانه وتعالى عن سيدنا عيسى عليه السلام قبل أن يولد :

" واذ قالت الملائكة : يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ،ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين "(٥) ،

" ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا "(٦)

ولعل مايشرح الآيات السابقة بتفصيل أوسع ذلك الحديث الذى ذكره الامام البخارى عن كيفية استدلال هرقل على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه ركز هرقل تركيزا كبيرا على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة .

---

(١) آل عمران آية : ٣٣ (٢) النساء آية : ١٢٥ (٣) طه ٣٩

(٤) رواه مسلم (مختصر صحيح مسلم) للحافظ المنذرى بتحقيق السيد محمد ناصر الدين الألبانى .

(٥) آل عمران : (٤٥ــ٤٦ (٦) مريم : ٢١

حدّثنا أبواليمان الحكم بن نافع ،قال : أخبرنا شعيب عن الزهـرى ،
قال : أخبرنى عبدالله به عبدالله بن عتبة بن مسعود : أن عبدالله بن عباس
أخبره : أن أبا سفيان بن حرب أخبره : " أن هرقل أرسل اليه فى ركب قريش
وكانوا تجارا بالشام ،فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مادفيها
أبا سفيان وكفار قريش،فأتوه وهم بايليا فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ،ثم
دعاهم ودعا بترجمانه ،فقال :

أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟

فقال : أبوسفيان : فقلت : أنا أقربهم نسبا :

فقال : أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ،ثم قال لترجمانه :

قل لهم : انى سائل هذا عن هذا الرجل فان كذبنى فكذبوه ،

فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عنه .

ثم كان أول ما سألنى عنه : أن قال : كيف نسبه فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسب ،

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا .

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا ،

قال : فاشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

فقلت : بل ضعفاؤهم ،

قال : اويزيدون أم ينقصون ؟

قلت بل يزيدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

قلت : لا ،

قال : فهل يقدر ؟ قلت : لا ونحن منه فى مدة لاندرى ماهو فاعـــل فيها ،

قال : ولم يمكـن كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة .

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم ،

قال : فكيف كان قتالكم اياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال : ينال منا وننال منه ،

قال : ماذا يأمركم ؟

قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ،ولاتشركوا به شيئا ،واتركوا مايقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدق ، والعفاف والصلة ،

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذونسب ،فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ،فقلت : لـــو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتسى بقول قيل قبله .

وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا ،قلت فلوكان فى آبائه من ملك ؟ قلت : رجل يطلب ملك أبيه ،

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ فذكرت أن لا ، فقد عـــرف أنه لم يكن ليـذر الكذب على الناس ويكذب على الله ،

وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه ،وهم أتباع الرسل .

وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟

فذكرت أنهم يزيدون ،وكذلك أمـر الايمان حتى يتم ،

وسألتك : أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

فذكرت : أن لا ،وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ،

وسألتك هل يغدر ؟

فذكرت أن لا ،وكذلك الرسل لاتغدر .

وسألتك : بما يأمركم ؟

فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ،ولاتشركوا به شيئا ،وينهاكم عن عبادة الأوثان ،ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

فان كان ماتقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين ،

وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم ،فلو أنى أعلم أنى أخلص اليه لتجشمت لقاءه ،ولوكنت عنده لغسلت عن قدمه ،(١)

ثم نأتى للجزء الثانى من المنهج القرآنى لتحديد النبوة وهو حالة تلقى الوحى ؛ فبعد أن يصطفى الله رسله ويعينهم ويمنى بهم العناية الكاملة يفاجئهم بتلقى الوحى ،

يقول الدكتور عبدالعليم محمود فى كتابه " التوحيد الخالص " أوالاسلام والعقل عن مرحلة بدء الوحى — وهو فى هذه النقطة يسير معنا فى دائرة الاتجاه القرآنى — يقول :

فاذا أصبحت نفوسهم — أى الأنبياء — بتربية الله وعنايته اهلا للتلقى فاجأها الوحى وهى سائرة ،فى الوادى المقدس وفى البقعة المباركة .

" وهل أتاك حديث موسى ؟؟

" اذا رأى نارا فقال لأهله :

" امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ،فلما أتاها نودى ياموسى : انى أنا ربك فاخلع نعليك ،انك بالوادى

---

(١) رواه الامام البخارى فى صحيحه .

المقدس طوى ،وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ،انني أنا الله لاالله الا أنا فاعبدني ، وأقم الصلاة لذكرى ،ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ،فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى "(١)

" فلما قضى موسى الأجل ،وسار بأهله : آنس من جانب الطور نارا ،قال لأهله امكثوا اني آنست نارا ،لعلي آتيكم منها بخبر أوجذوه من النار لعلكم تصطلون ، فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، أن ياموسى ،اني أنا الله رب العالمين "(٢)

ويفاجئ الرسول صلى الله عليه وسلم الوحى وهو فى غار حراء .

وعندنا فى الاسلام الوثيقة الوحيدة فى العالم كله عن كيفية بدء الوحى ،وهى وثيقة تحمل فى طياتها كثيرا من المعانى الخاصة بالنبوة ،وصفات الرسول صلى الله عليه وسلم ،وهى تشير فى صراحة ويسر وسهولة الى كثير من الآيات الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاتم النبيين :

" وهذه الوثيقة رويت بشتى الطرق ومختلف الأسانيد ،والقرآن يشير الى الحالة التى نذكرها بصراحة لالبس فيها ،يقول سبحانه :

" وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ماكنت تدرى ماالكتاب ولاالايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم "(٣)

" نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين "(٤)

والوثيقة التى يحدثنا عنها كتابنا (التوحيد الخالص) وردت فى صحيح البخارى : عن السيدة عائشة أم المؤمنين أنها قالت :

---

(١) طه : ١٦٩ (٢) القصص : ٢٩ ـ ٣٠

(٣) الشورى : ٥٢ (٤) الشعراء : ٩٣ـ ٩٥

أول مابدئ به رسول الله ،صلى الله عليه وسلم ،من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ،فكان لايرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ،ثم حبب اليه الخلاء ، وكان يخلوا بغار حراء ،فيتحنث فيه : وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ،ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ ،

قال : ما أنا بقارئ .

قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ،ثم أرسلني ،

فقال : اقرأ ،

قلت : ما أنابقارئ ،فأخذني الثانية حتى بلغ مني الجهد ،

فقال : اقرأ :

فقلت : ما أنابقارئ ،فأخذني فغطني الثالثة ، ثم ارسلني ،

فقال :

" اقرأ باسم ربك الذي خلق ،خلق الانسان من علق ،اقرأ وربك الأكرم "

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ،يرجف فؤاده ،فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنهما ،فقال : زملوني ،فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر :

لقد خشيت على نفسي .

فقالت خديجة :

كلا ،والله مايخزيك الله أبدا ،انك لتصل الرحم ،وتحمل الكل وتكسب المعدوم ،وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى — ابن عم خديجة — وكان امرؤ قد انتصر في الجاهلية ،وكان يكتب الكتاب العبراني ،فيكتب من الانجيل

بالعبرانية الى ماشاء الله أن يكتب ،وكان شيخا كبيرا قد عمى ،

فقالت له خديجة :

" يا ابن عم ،اسمع من ابن أخيك :

فقال له ورقة : يا ابن أخي ،ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس ،الذي نزل الله على موسى ياليتني فيها جذعا ،ليتني أكون حيا اذ يخرجك قومك ؟ ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أومخرجي هم ؟

قال : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودي ، وان يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ،ثم لم ينشب ورقة أن توفي ،وفتر الوحي (١) .

هذا هو المنهج القرآني لتعريف النبوة والذي يمثل لنا التعريف الصحيح لها باعتباره النص الذي أتانا من عند الله سبحانه وتعالى ،وعن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المعصوم ،ولنا أن نوجزه فنقول :

النبوة سفارة بين الله وخلقه يقصد بها اصلاح أمرهم ، وهبة من الله سبحانه وتعالى يمنحها لمن يصطفيهم من عباده بعد أن يزميهم التربية الصحيحة التي بها يكونون مؤهلين لتلقي الوحي من الله سبحانه وتعالى في أي وقت .

---

(١) رواه البخاري في باب كيف كان بدء الوحي ،وفي كتاب التفسير عند تفسير سورة : " اقرأ " ،وفي كتاب التعبير ورواه الامام مسلم في باب بدء الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

" الفرق بين النبي والرسـول "

هل هناك فرق بين النبي والرسول ؟

الواقع أن العلماء في الاجابة على هذا السؤال انقسموا الى فرقتين : ـ

الفرقة الأولى : قررت هذه الفرقة أنه لايوجد أى فرق بين النـبي والرسول فكلا اللفظين معناهما الانباء والاخبار ،فالنبي هو مـن ،ينبيء، والرسول يبلغ الرسالة ،وعلى ذلك فلا فرق بينهما .

والواقع أن أصحاب هذا الرأى استندوا فى تفسيرهم للفظين الى اللغة باعتبار أن النبي اسم فاعل أو اسم مفعول ،

والرسول اسم مفعول ،وبناء على هذا قرروا عدم وجـود فرق بين اللفظين ،

أما الفرقة الثانية : وهم جمهور العلماء ،فقد قرروا وجود فرق بين لفظى نبي ورسول ،واستندوا فى ذلك على القرآن والأحاديث الشريفة والمعقول تؤيدهم فى هذا ،ومن ذلك :

" وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان فـى أمنيته "(١)

يقول الامام الألوسى في تفسير الآية :

وعطف نبي على رسول يدل على المغـايرة بينهما وهو الشائع ،ويدل علـى المغايرة أيضا ماروى أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن الأنبياء ،فقال :

مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ،

قيل : فكم الرسل منهم ؟

---

(١) آية ٥٢ سورة الحج .

قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر جمـــا غفـــيرا (١)

ونضيف نحن قوله تعالى "

" واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا "

وقوله تعالى :

" الذين يتبعون الرسول النـبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل "

فان تـوارد الصفتين الرسول والنبى على موصوف واحد فى التفكـــير والتعريف يقتضى تباينا ولو من وجه كما يقتضى تغـايرا ولو فى المفهوم على مـــا بيناه فى آخر المقام .

هذه هى أهم الأدلة على وجود الفرق بين النبى والرسول مما يرجح رأى الفرقة الثانية .

الفرق بين النبى والرسول : على أشهر الآراء :

اختلفت آراء العلماء فى تحديد الفرق بين النبى والرسول قبل ان بعضهم اختلفوا هم أنفسهم على قولين وباستقراء الآراء فى تحديد الفرق بين النبى والرسول نجدها كالآتى :

أولا : الرسول : هو من له كتاب أونسخ لبعض أحكام الشريعة السابقـــة ، والنبى قد يخلو من ذلك كيوشع عليه السلام " (٢)

ثانيا : وفى كلام بعض المعتزلة : أن الرسول صاحب الوحى بواسطة الملك ، والنبى

(١) روح المعانى للامام الآلوسى جـ١٧ ص ١٠٠ عقب الامام الآلوسى على الحديث يقولـه : وقد أخرج ذلك كما قال السيوطى (أحمد وابن راهويه فى مسنديهما من حديث أبـى أمامة وأخرجه ابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من حديث ابى ذر .

(٢) شرح المقاصد على المواقف لقصد الدين الابـجى جـ ٢ ص ١٢٩

هو المخبر عن الله تعالى بكتاب أو الهام أو تنبيه في المنام .(١)

ثالثا : الرسول من يأتيه الملك عليه السلام بالوحي يقظة والنبي يقال له ولمن يوحى اليه في المنام لا غير .(٢)

وقد عدد الامام الألوسي بعض الآراء التي تمثل الجو العام للتفرقة بين النبي والرسول نذكر منها :

رابعا : الرسول ذكر حر بعثه الله بشرع جديد يدعو الناس اليه ، والنبي يعمه ومن بعثه لتقرير شرع سابق ، كأنبياء بني اسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام .

خامسا : الرسول ذكر حر بعثه الله تعالى الى قوم بشرع جديد بالنسبة اليهم وان لم يكن جديدا في نفسه ، كاسماعيل عليه السلام ، اذ بعث لجرهم أولا والنبي يعمه ومن بعث بشرع غير جديد كذلك .

سادسا : أن المشهور في عرف الشرع أن النبي أعم من الرسول ، فانه من أوحي اليه وأمر بالتبليغ أ هـ .(٣)

ومدراستنا لهذه الآراء نجد أنها جميعا لا تقدم لنا الفرق الكافي بين لفظي النبي والرسول مبل ان بعضها يتهافت في نفسه عند أول طعن ، كالرأي الثالث الذي نقضه الامام الألوسي .

واذا كان أهم هذه الآراء وأشهرها وهو الرأي السادس

فاننا بدراسته نجد أنه لا يحدد الفرق بين نبي ورسول تحديدا بينا ، فهو يخلط بينهما فهو يجعل النبي نبيا اذا لم يقم بالتبليغ ، ويجعله رسولا اذا أمر بالتبليغ ، مما لا يجعلنا نرى هناك فرقا واضحا بينهما ، ويشارك في ذلك الرأي

(١) شرح المقاصد على المواقف للعضد الدين الأيجي جـ ٢ ص ١٢٩
(٢) العبارة للامام الألوسي نقلا عن الفخر الرازي وقد نقضه الامام الألوسي بقوله : وهذا أغرب الأقوال ويقتضي أن يصير الأنبياء عليه السلام لم يوح اليه الا نادرا وهو بعيد في مثله لا يقال بالرأي ، روح المعاني جـ ١٧ ص ١٧٣
(٣) روح المعاني للامام الألوسي جـ ١٧ ص ١٧٣

الامام الألوسي بقوله تحقيقا على هذا الرأى :

" ولايصح ارادة ذلك لأنه اذا قيل العام بالخاص يراد بالعام ماعدا الخاص، فمتى أريد بالنبي ماعدا الرسول ،كان المراد به من لم يؤمر بالتبليغ ،وحيث تعلق به الارسال صار مأمورا بالتبليغ ، فيكون رسولا فلم يبق في الآية بعد تعلق الارسال رسول ونبي مقابل له "(١)

---

(١) روح المعاني للامام الألوسي جـ ١٧ ص ١٧٣

" ضمن القرآن في تحديد كل من النبي والرسول "

١ - انه ليس من الضروري ، أن يأتي الرسول بشريعة جديدة ، وهذا نأخذه من قوله سبحانه وتعالى ، عن سيدنا يوسف :

" ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى اذا أهلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا "(١)

وقوله تعالى :

" انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما "(٢)

فان سيدنا يوسف كان يسير على شريعة ابراهيم عليه السلام وسيدنا داود وسليمان كانوا يسيرون على شريعة التوراة ومع ذلك كانوا من الرسل .

٢ - ان الأنبياء يأتيهم وحي من الله سبحانه وتعالى ليبلغوه للمؤمنين مصحوبا بوجوب شريعة يعملون بها ، وهذا يكون كالفهم لها ، ولذلك فهم موحى به من قبل الله سبحانه وتعالى ،

وهؤلاء الأنبياء بني اسرائيل ، ونرى ذلك كما في قوله تعالى :

" ألم تر الى الملأ من بني اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا "(٣)

فهم يطلبون وحيا من الله يخبرهم بملك يقاتلون تحت قيادته .

---

(١) غافر آية : ٣٤ (٢) النساء آية : ١٦٣ ، ١٦٤
(٣) البقرة آية : ٢٤٦

٣ = عند قراءتنا لقوله تعالى :

" وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته "(١)

نجد أنه ارسال يشمل النبي والرسول اذن فهناك اشتراك في جزء من الرسالة للنبي .

ويعلق على ذلك الامام ابن تيمية بقوله :

قال تعالى :

" وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته "

وقوله : من رسول ولا نبي " فذكر ارسالا يعم النوعين ، وقد خص أحدهما بأنه رسول فان هذا هو الرسول المطلق الذي أمر بتبليغ رسالته الى من خالف الله ، فنح ، وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بعث الى أهل الأرض ، وقد كان قبله أنبياء كشيث وادريس ، وقبلهما آدم كان نبيا مكلما .

قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الاسلام ، فأولئك الأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ، ويأمرون به المؤمنين ، الذين عندهم ، لكونهم على دين بهم ، فكانوا أهل الشريعة الواحدة يعملون ما يعلمه العلماء من الرسول (٢) أ هـ .

ومن هنا وبناء على ما ذكرناه استنادا الى كتاب الله تعالى ،

فاننا نوافق رأي الامام ابن تيمية هو الذي يتمشى مع المنهج القرآني حيث يقول :

---

(١) سورة الحج آية : ٥٢

(٢) النبوات لابن تيمية ص ١٢٣

" النبي هو الذى ينبئه الله ، وهو نبي" بما أنبأه الله به ، فان أرسل مع ذلك الى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله اليه فهو رسول ،

أما اذا كان يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو الى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول "

ونحن نضيف الى كلام ابن تيمية أن مهمة النبي تتناول التبليغ عن الله عز وجل ، في أمور تتعلق بمصلحة المؤمنين ، والفصل في قضاياهم العامة كما قال تعالى :

" انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار "(٢)

كما تتناول الاشراف على سياسة الدولة وتولية المناصب من لدن الله عز وجل ، كما قال تعالى :

" ألم تر الى الملأ من بني اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله "(٣)

وكذلك تتناول التشريع في مسائل جزئية فيها صبغة التشريع المؤقت ، كما قال تعالى على لسان ذلك النبي :

" ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني "(٤)

أما مهمة الرسول فهي شاملة لكل التشريعات القديمة أو الجديدة ، على أن تخصيص الرسول بانزال كتاب جديد عليه قضية لم يقم عليها دليل

---

(١) النبوات لابن تيمية ص ١٧٢ (٢) المائدة آية : ٤٤
(٣) البقرة : ٢٤٦ (٤) البقرة آية : ٢٤٩

ونحن نؤمن بأن جميع الأنبياء والرسل لا بد أن يكون معهم كتاب يكـــــون دستورا للشريعة التى يحكمون بها ،قال تعالى :

" كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذريـــــن وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه "(١)

(١) البقرة آية : ٢١٣

* حاجة البشر الى النبوة والحكمة فى ارسال الرسل *

اننا اذا نظرنا الى النبوة فى جوهرها نجد أنها تتمثل فى الهداية الكاملة للبشر ، الهداية فى العقيدة ، والهداية فى التشريع ، والهداية فى الأخلاق ،

ان العقل الانسانى مهما بلغ به التقدم والرقى لايمكن له الوصول الى الهداية الكاملة الآتية له من الوحى الالهى المعصوم ، لقد حاول كثير من الناس - على مدار الأزمنة - الوصول الى الهداية عن طريق العقل ، ولكن تلك المجادلات كلها قد باءت بالفشل ،

لقد حاول ذلك الفلاسفة ، وحاول ذلك علماء النفس والاجتماع ، ولكن كل تلك المجاولات لم تؤدى الا الى تضارب الآراء والأفكار ، ولم يصل أحد منهم الى الرأى القاطع فى هذه المسألة ، ولهذا كانت حاجة الانسانية الى الوحى الالهى هى المعصوم الآتى الينا عن طريق الرسل ، وذلك للدواعى الآتية : -

١ - قصور العقل الانسانى عن الوصول الى الايمان الصحيح :

اننا اذا نظرنا الى مراحل التاريخ المتعاقبة نجد أنه فى الأوقات التى كانت على فترة من الرسل كانت المجتمعات تضل فى ذلك الوقت ضلالا كبيرا بعبادة الأوثان قبل ان بعضها كان ينزل الى أسفل الدرك من الضلال ، كما فعل بنوا اسرائيل عند ما غاب عنهم سيدنا موسى عليه السلام فبعض الوقت ، فعبدوا العجل المنصوب لهم من الذهب ، ولعل خير شاهد لنا هو القرآن الكريم ، عند مايذكر لنا حال قبل رسالة سيدنا

محمد صلى الله عليه وسلم ، ومدى تنـــوعها عندهم :

" أم اتخذوا من دونه آلهة " ، " الأنبياء " ، لقد عبدوا عـدة آلهـــة .

" وقال الله لاتتخذوا آلهين اثنين ، انما هو الـه واحد "(١) ، فبعضهم عبد الـــهين

" وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت "(٢)

لقد آمنوا بالألوهية وأنكروا وجود الحياة الآخرة .

" وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر "(٣)

لقد كفروا بالله وبالحياة الآخرة ،

" ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون "(٤)

لقد جعلوا لله البنات ،

والبعض الآخر :

" جعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علـــم سبحانه وتعالى عما يصفـون "(٥)

وبعضهم عبد الملائكة :

" ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون "(٦)

ثم يصور الله سبحانه وتعالى قيمة عبادتهم بقوله :

" ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبـوا لكم ان كنتم صادقين "

" أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصـــرون "(٧)

---

(١) النحل آية : ٥١ (٢) النحل آية : ٣٨ (٣) الجاثية آية : ٢٤
(٤) النحل آية : ٥٨ (٥) الأنعام آية : ١٠٠ (٦) سبأ آيـة : ٤٠
(٧) الأنعام آية : ١٩٤

هذا هو التصوير القرآنى للفترة التى تبعد فيها الانسانية عن الوحى المعصوم .

وفى هذه الفترات أيضا يظهر كثير من الفلاسفة والمصلحين ، يحاولون جهدهم البحث فى أمور المقيدة ، وماوراء الطبيعة ،

ولعل أبرز مثال لنا على ذلك هو المثال اليونانى أرجو الفكر اليونانى :

اذا جئنا للفكر اليونانى فاننا نجد أن أفلاطون فيما يتعلق بتصور الآلهة يختلف عن أرسطو ،

وتصور أرسطو يختلف عن تصور الرواقيين

وتصور الرواقيين يختلف عن تصور أبيقور ، أو الأبيقوريين .

يصور أفلاطون الاله على أنه مثال للخير على رأس المثل ، أو مثال للجمال على رأس المثل ، ومع أن أرسطو من سنة فانه يصور الله سبحانه وتعالى بصورة أخرى .

ويرى أنه المحرك الأول وهذا المحرك الأول ليس هو الذى يحرك العالم بارادته ، وليس هو الذى خلق العالم ، وليس هو الذى صور العالم وكونه ، بل انه لايعلم عن العالم شيئا مطلقا ،

انه لايعلم عن العالم شيئا يستوى فى ذلك : التافه من أمره والعظيم منه ، انه لايعلم حتى مجرد وجود العالم .

وتأتى الرواقية فترى الله سبحانه وتعالى يمتزج بالكون امتزاجا كاملا ، فهو سره وهو فى كل ذرة من ذراته ، وفى كل خلية من خلاياه ،

ويأتى أبيقور ويقول :

ليس هناك شىء اسمه الله وليس هناك اله .

وتختلف هذه المدارس باختلاف أفرادها ،وباختلاف رؤسائها ،(١)

ان المذاهب الفلسفية متخبطة فيما وراء الطبيعة .

وليس هناك مايسمى بالرأى الفلسفى الواحد فيما يختص بعالم الغيب .

ونشارك فى ذلك الرأى الامام أبا حامد الغزالى فى كتابة تهافت الفلاسفة .

يقول :

" ظلمات فوق ظلمات ،لوحكاه الانسان عن منام رآه لاستدل على سوء مزاجه أولوأورد جنسه فى الفقهيات التى تصارى المطلب فيها تخمينات لقيل انها تزهات لاتفيد غلبة الظنون "(٢)

ويقول : " لست أدرى كيف يقتنع المجنون من نفسه لمثل هذه الأوضاع ،فضلا عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم فى المعقولات "(٣)

ويقول الامام بن تيمية فى ذلك مصورا قصور تفكير الفلاسفة والمفكرين عن الوصول الى الحقيقة :

" ليتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدعون من الحذق والتحقيق مايدعون به ماجاءت به الرسل ،كيف يتكلمون فى غاية حكمتهم ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين ويجعلون الحق للعلوم بالضرورة مردودا والباطل الذى يعلم بطلانه بالضرورة مقبولا بكلام فيه تلبيس وتدليس "(٤)

ان علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الآتية اليهم عن طريق الوحى المعصوم هى الوسيلة الصحيحة للوصول الى الايمان المطلق ،والعقل

---

(١) الاسلام والايمان للدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٩ ،وينظر فى ذلك أيضا تاريخ الفلسفة اليونانية لأليرريقو ترجمة الدكتور أبوبكر زكرى والدكتور عبد الحليم محمود وتاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم .

(٢) كتاب تهافت الفلاسفة للامام أبى حامد الغزالى ص ١٠٥

(٣) كتاب تهافت الفلاسفة " " " ص ١٢٤

(٤) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لشيخ الاسلام ابن تيمية ،تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ،ومحمد حامد الفقى ص ١٣٧ وص ١٣٨

الانساني قاصر في هذا المجال ،ولو ذهبنا الى استقراء جهود العقل الانساني في هذا المجال لسطرنا آلاف الصفحات ولكن كل ذلك الجهود ثبت تخبطها ولم تستطع الوصول بنا الى الحقيقة الكاملة ،

ومن هنا ثبتت حاجتنا الى الوحي الالهي المعصوم ليهدينا طريق الرشاد ،

" حاجتنا الى تشريع الهي في المعاملات "

بعد أن بينا فيما سبق قصور العقل الانساني عن الوصول الى المعتقد الصحيح ،وأن هذا المعتقد الصحيح لاينبغي له أن يكون الا عن طريق الوحي الالهي المعصوم ،يتبين لنا بعد ذلك حاجتنا الى تشريع الهي في المعاملات ،ولعل نظرة عامة مناعلى التشريعات الوطنية ـ التي وجدت تبين لنا تهافت تلك التشريعات وتباينها الكبير فيما بينها ،فعلى سبيل المثال اذا أخذنا مشكلة الحرية المدنية في عصرنا الراهن :

نجد كثيرا من الشعوب لاتعترف للمرأة بحق الحرية المدنية وتعتبرها في حكم القاصر ،فلا تجيز لها اجراء العقود ولاتحمل الالتزامات ولاتملك الأشياء وتجعلها دائما تحت وصاية الرجل ،سواء كانت تحت وصاية زوجها ان كانت متزوجة ،أوتحت وصاية أبيها ان لم تكن متزوجة .

وكثير من الأمم لاتعترف بحق الحرية المدنية في صورة كاملة الا لأفراد شعبها فحسب ،أولمن يدينون بدين شعبها فحسب بينما تضفي على الأجانب بجميع نواحي هذه الحرية أوبعضها ، وكثير من الشعوب لاتعترف بحق الحرية المدنية في صورة كاملة الا لبعض طوائف من المواطنين أنفسهم ،بينما تحرم الطوائف الأخرى من جميع نواحي هذه الحرية أومن بعضها ،ولعل أبرز مثال على ذلك : موقف البيض من السود في الولايات المتحدة الأمريكية ،وجنوب افريقا ،وروديسيا .

فاذا كان يقصد بالحرية المدنية الحالة التي تجعل الشخص أهلا لاجراء العقود ،وتحمل الالتزامات ،وتملك العقار والمنقول والتصرف فيمايملك :

فاذا نظرنا الى الوحي الالهي المعصوم ـ كماجاء في الاسلام ـ نجد أن الاسلام قد منح هذا الحق لجميع الأفراد ،ما عدا الصبي والمجنون والسفيه ،وقد

استثنى الاسلام هؤلاء لمصلحتهم هم ،من جهة ومصلحة وثتهم ومصلحة المجتمع ، والاقتصاد العام من جهة أخرى ،بل ان الامام أباحنيفة ليذهب الى عدم جواز الحجر على السفيه ،معللا مذهبه بأن الحجر على السفيه : " اهدار لأدميته والحاق له بالبهائم " .

وان الضرر الانسانى الذى يلحقه من جراء هذا الاهدار ،وهذا الالحاق يزيد كثيرا على الضرر المادى الذى يترتب على سوء تصرفه فى أمواله ، وأنه لا يجوز أن يدفع ضرر بضرر أعظم منه .

فسوى الاسلام بذلك بين الرجل والمرأة ،ولم يفرق بين الناس فى هذا الحق ،تبعا لاختلاف شعوبهم ،أوطبقاتهم ،أوتفاوتهم فى الأحساب والأنساب ، بل كلهم سواسية كأسنان المشط وسوى فى هذا الحق بين المسلمين وغير المسلمين ، فنجد أن الذميين فى أى بقعة من الدولة الاسلامية لهم نفس حقوق المسلمين وواجباتهم فيما يتعلق بالمعاملات .

وأيضا نحتاج الى التشريع الالهى ،لأن الانسان فيه من الغرائز والميول والشهوات ،ما يدفعه دائما الى حب السيطرة والارواء الفرزى ، كلما تاق الى ذلك ، فاذا كان ذلك فى الانسان ،فاننا فى حاجة ماسة الى التشريع الالهى لتنظيم تلك الغريزة الموجودة فى الانسان ،فلا تصبح الحياة مجرد سعى الى اللذة والشهوة من كل طريق ،يقول الله تعالى :

" ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون "(١)

" لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ،وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط "(٢)

---

(١) سورة يونس : ٤٧ (٢) سورة الحديد ٢٥

(١) : ينظر فى هذا الموضوع : كتاب : " حقوق الانسان فى الاسلام " للدكتور على عبد الواحد وافى ،وكتاب : " الموسوعة فى سماحة الاسلام " للشيخ محمد الصادق عرجون ،وكتاب : " نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم " للدكتور حسن ضياء الدين عتر .

" الحاجة الى الأخـــلاق القائمة علـــى الوحـى الالـهـــى "

يقول الله تعالى فى سورة الشورى :

" وكذلك أوحينـا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صـــراط مستقيم صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض ألا الى الله تصير الأمور "(١)

تبين لنا هذه الآيات أنه مامن وحى الاهـى الا وهو يهدى الـــى الصراط المستقيم سواء بالنسبة للعقيدة أوالتشريع أوالأخلاق والواقع : أن الأخلاق تمثل الجانب الأكبر من توجيهات الرسل لأتباعهم فان أمر هؤلاء الأتباع لاتستقيم الا باتباع الأخلاق القويمة بل ان من صفات المدح التى مدح بها الله سبحانـــه وتعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى :

" وانك لعلى خلق عظيم "(٢)

بل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين لنا أهمية الأخلاق بالنسبة لبعثته فيقول :

" انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "(٣)

فاذا كانت هذه قيمة الأخلاق فى نظر الوحى الالـهـى ، فاننا لو تركنـا تقييمها للأفراد لكانت نسبية تختلف باختلاف الأشخاص وتقويمهم وظروفهم وأحوالهم النفسية والبيئية ؛

وليس أدل على ذلك ما حدث ويحدث فى عصرنا الحاضر من مصائـب وكوارث سببها نسبية الأخلاق من شخص لآخر ، والبعد عن الأخلاق الآتية من الوحى

---

(١) الشورى : ٥٢ ، ٥٣ (٢) سورة القلم : ٣

(٣) ذكر السيوطى فى الجامع الصغير أنه حديث صحيح رواه البخارى فى الأدب المفرد والحاكم فى المستدرك .

المعصـــوم .

ولنستمع الى قول روبرت ميلليكان العالم الطبيعى الأمريكى :

" ان أهم أمر فى الحياة هو الايمان بحقيقة المعنويات وقيمة الأخلاق ؛ ولقد كان زوال هذا الايمان سببا للحرب عامة ، واذا لم نجتهد الآن لاكتسابه أولتقويته فلن يبقى للعلم قيمة بل يصير العلم نكبة على البشرية "

ويقول الدكتور ويلسون الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية :

" وخلاصة المسألة أن حضارتنا ان لم تتقيد بالمعنويات فلن تستطيع المثابرة على البقاء بماديتها ، وأنها لايمكن أن تنجو الا اذا سوى الروح الدينى فى جميع مسامها ، ذلك هو الأمر الذى يجب أن نتناقش فيه معابدنا ومنظماتنا السياسية وأصحاب رءوس أموالنا ، وكل فرد خائف من الله محب لبلده " .

ونقارن بين تلك الخشية التى أصابت الكثير من الزعماء والمفكرين على الحضارة الحديثة من الانهيار نظرا لفقدان العنصر الأخلاقى فيها بصورة اسلامية تبين لنا قيمة العامل الأخلاقى الآتى من الوحى المعصوم وأثره فى تكوين الفرد ، تلك هى صورة سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، الذى تربى فى مدرسة النبوة ، فكان من أعظم الممثلين لها فى عصره ، يقول ضرار بن ضمرة : — وقد طلب منه سيدنا معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أن يصف له سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه لصحبته الطويلة له — :

" والله كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ومن نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، ويعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب "

---

(١) ينظر فى ذلك كتاب الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ، وكتاب الدين والعلم للمشير احمد عزت باشا

كان ـ والله ـ كأحدنا يجيبنا اذا سألناه ويبتدأنا اذا أتيناه ، ويأتينا اذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لانكلمه هيبة ، ولانبتدره ، فان تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، ولا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله ،

وأشهد بالله : لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه ، وغارت نجومه ، وقد مثل فى محرابه قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، وكأنى أسمعه وهو يقول :

" يادنيا ألى تعرضت أم الى تشوقت؟ هيهات ، تجرى غيرى قيد بنتك ثلاثا لارجعة فيها ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق (١)

واذاكنا قد ذكرنا أهم الدواعى والأسباب التى تبين الحاجة الى الأنبياء ووجيهم الالهى المعصوم ، فان صاحب المقاصد على المواقف يذكر كثيرا من الدواعى والأسباب الداعية لارسال الرسل والأنبياء يقول :

ومنها استفادة الحكم من النبى فيما لايستقل به العقل مثل :

الكلام ، والرؤية ، والمعاد الجسمانى ،

ومنها : ازالة الخوف الحاصل عنه الاتيان بالحسنات ، لكونه تصرفا فى ملك الله بغير اذنه وعند تركها لوكنه ترك طاعة ،

ومنها : بيان حال الأفعال التى تحسن تارة ، وتقبح أخرى من غير اهتداء العقل الى مواضعها ،

ومنها : بيان منافع الأغذية والأدوية ومضارها التى لاتفى بها التجربة الا بعد أدوار وأطوار مع مافيها من الأخطار ،

---

(١) ينظر فى كتابى صفوة الصفوة لابن الجوزى ، وكتاب النبوة والأنبياء لأبى الحسن الندوى :

ومنها تكميل النفوس البشرية بحسب استعداداتهم المختلفة فى العلميات والعمليات ،

ومنها : تعليم الأخلاق الفاضلة الراجعة الى الأشخاص والسياسات الكاملة العائدة الى الجماعات من المنازل والمدن ،

ومنها : الاخبار بتفاصيل ثواب المطيع وعقاب العاصى ترغيبا فى الحسنات وتحذيرا عن السيئات ،الى غير ذلك من الفوائد (١) .

(١) كتاب شرح المقاصد على المواقف لعضد الدين الأيجى جـ ٢ صـ ١٢٩

" الفصـــل الثانـــى "

" اثبات النبوة المحمدية عن طريق النظر فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قبـــل البعثـــة "

" بيئة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة "

عند ما ننظر فى بيئة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة نجد أن المجتمع العربى فى ذلك الوقت يموج بتيارات عديدة : من الأفكار والمذاهب والأديان ، واجلها كان يبحث عن الحقيقة ، أو عن الطريق المعصوم الذى يؤدى الى الحقيقة ، لم يكن المجتمع كله مجتمعا وثنيا عاريا عن الأخلاق والقيم ، صحيح أن الغالبية كانت وثنية فى فكرها ، منهارة فى بعض تقاليدها ، ولكن الدهماء لا يمثلون الأمة ، وانما الذى يمثل الأمة هم الطائفة المفكرة فيه .

وفى ذلك يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق :

" ومهما يكن من أمر العرب عند ظهور الدين المحمدى فانهم لم يكونوا فى سذاجة الجماعات الانسانية الأولى من الناحية الفكرية التى تهمنا ، يدل على ذلك ما عرف من أديانهم ، وما روى من آثارهم الأدبية "(١)

ويقول : " وكان العرب عند ظهور الاسلام يتشبثون بأنواع من النظر العقلى تشبه أن تكون من أبحاث الفلسفة العلمية ، لاتصالها بما وراء الطبيعة ، من الألوهية ، وقدم العالم أو حدوثه ، والأرواح والملائكة ، والجن والبعث ونحو ذلك "(٢)

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود :

" اننا نعلم حق العلم أن الأكثرية العظمى فى جزيرة العرب كانت من البدو والرحل الذين شغلهم البحث وراء لقمة العيش ، عن التفكير فى الدين ، وفيما وراء الطبيعة ، وليس من الطبيعى أن نتطلب من شخص يقاسى فى عنف شظف الحياة ، أن يفكر تفكيرا مجردا :

ان الأغلبية العظمى من جزيرة العرب صحراء قاحلة وليس لساكنيها

---

(١) الشيخ مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ١٠٢

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ١٠٥

استقرار ما ، وليس بها أمن مستتب ، والحروب والغارات فى جبالها ووهادها لاتكاد تنقطع ، فمن الطبيعى أن لايكون عند هؤلاء أوقات فراغ يقضونها فى التفكير فيما وراء الطبيعة .

ولكن اذا كنا لانتخذ من عقلية الفلاح الحافى القدمين الذى قوس انحناؤه على الفأس ظهره مثالا لحضارة المصريين وثقافتهم سواء كان ذلك فى العصر القديم أوفى العصر الحديث ، واذا كنا لانتخذ من الفرنسى الوينى الجاهل مثالا لحضارة فرنسا وثقافتها ، فانه من غير الطبيعى أن يكون البدو الرحل مقياسا للثقافة العربية فيما قبل الاسلام (١) .

واذا كانت هذه هى النظرة العامة لبيئة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاننا — وبتحديد أكثر دقة ، نجد الجزيرة العربية تموج بالأفكار التالية (٢) :

الحنفاء : وهؤلاء كانت لهم أفكارهم وأشعارهم وسننهم وشرائعهم التى تؤمن بالله واليوم الآخر ، الا أنهم ينتظرون النبوة ومن أشهرهم زيد بن عمرو بن نفيل وأمية ابن أبى الصلت ، وخالد بن سنان ، على أن أبرز نموذج يمكن أن نأخذه محلا للدراسة ويكون مثلا للجو العام لفكرة الحنفاء هو :

زيد بن عمرو بن نفيل :

---

(١) من مصادر هذا الجزء : الملل والنحل للشهرستانى — كتاب الأغانى للاصفهانى — سيرة ابن هشام — الروض الأنف فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين — فجر الاسلام للدكتور أحمد أمين — السيرة النبوية لابن كثير — سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد (السيرة الشامية) — بشائر النبوة الخاتمة للدكتور رؤوف شلبى — التفكير الفلسفى فى الاسلام للدكتور عبد الحليم محمود — السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد محمد أبوشهبة — المعارف لابن قتيبة — روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسى — مجمع الأمثال للميدانى .

(٢) الدكتور عبد الحليم محمود التفكير الفلسفى فى الاسلام ص ٤٥

أربا واحدا أم ألف رب ... أدين اذا تقسمت الأمور

عزلت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمى بنى عمرو أزور

ولا هبل أدين وكان ربا ... لنا فى الدهر اذ حلمى يسير

عجبت وفى الليالى معجبات ... وفى الأيام يعرفها البصير

بأن الله قد أغنى رجالا ... كثيرا كان شأنهم الفجور

وأبقى آخرين ببر قوم ... فيزبو منهم الطفل الصغير

وبينا المرء يفترثاب يوما ... كما يثرى الفصن المطير

ولكن أعبد الرحمن ربى ... ليغفر ذنبى الرب الغفور

فتقوى الله ربكم احفظوها ... متى ما تحفظوها لا تبوروا

ترى الأبرار دارهم جنان ... وللكفار حامية سعير

وترى فى الحياة وان يموتوا ... بلا قواما تضيق به الصدور

وفى شعر آخر يقول :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخرا ثقالا

دحاها فلما استوت شدها ... سواء وأرسى عليها الجبالا

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذبا زلالا

اذا هى سيقت الى بلدة ... أطاعت فصبت عليها سجالا

ثم يتحول الى البيت الحرام ويقول :

لبيك حقا حقا تعبدا ورقا ... البر أربى لا الخال وهل يهجر كمن قال :

وقد تجنب زيد بن عمر ابن نفيل الأصنام واعتزلها وترك أكل ذبائح المشركين ونهى عن قتل الموءودة ولم يدخل فى أى دين من اليهودية ولا النصرانية بل كان يعبد رب ابراهيم وكان يقول :

" يامعشر قريش : والذى نفسى بيده ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيرى "

ولكن هل كان يعرف الطريق الى عبادة الله بيد وأنه لم يكن كذلك ، ويدل على ذلك قوله :

" اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدتك ولكن لا أعلمه ثم يسجد على راحلته "

على أن القصة التالية توضح لنا الكثير الذى ينير لنا سبيل معرفته ، وهذه القصة رواها ابن كثير ، وكتاب الروض الأنف للسهيلى والأغانى واللفظ من كتاب السيرة النبوية لابن كثير يقول :

خرج زيد الى الشام يلتمس ويطلب معنى أهل الكتاب الأول ، دين ابراهيم ، ويسأل عنه ، ولم يزل فى ذلك — فيما يزعمون — وحتى أتى الموصل والجزيرة كلها ، ثم أقبل حتى أتى الشام فجال فيها حتى أتى راهبا ببيعة من أرض البلقاء كان ينتهى اليه علم النصرانية — فيما يزعمون — فسأله عن الحنيفة ، دين ابراهيم ، فقال له الراهب :

" انك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، لقد درس من علمه وذهب من كان يعرفه ، ولكنه قد أظل خروج نبى وهذا زمانه ، وقد كان سأم اليهودية والنصرانية ، فلم يرض شيئا منها ، فخرج سريعا حين قال له الراهب ماقال ، يريد مكة ، حتى اذا كان بأرض لخم عدوا عليه فقتلوه ، فقال ورقة يرثيه :

يارشدت وأنصت ابن عمرو وانما	تجنبت تنورا من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله	وتركك أوثان الطواغى كما هى
وقد تدرك الانسان رحمة ربه	ولوكان تحت الأرض سبعين واديا

يقول ابن كثير :

وقال محمد بن عثمان بن أبي شيبة : حدثنا أحمد بن طارق الرابشي ، حدثنا مروان عطية عن أبيه عن ابن عمر ، عن زيد بن عمر بن نفيل ، أنه كان يتأله في الجاهلية ، فانطلق حتى أتى رجلا من اليهود فقال له :

أحب أن تدخلني معك في دينك ،

فقال له اليهودي :

" لا أدخلك في ديني حتى تبوء بنصيبك من غضب الله فقال :

من غضب الله أفر ،

فانطلق حتى أتى نصرانيا فقال له :

أحب أن تدخلني معك في دينك ؟

فقال : لست أدخلك في ديني حتى يتوء بنصيبك من الضلال : فقال

من الضلالة أنر ،

قال النصراني :

فإني أدخلك على ديني ان تبعت اهتديت ،

قال : أي دين ؟

قال : دين ابراهيم ،

قال : فقال : اللهم اني أشهدك أني على دين ابراهيم عليه

أحيا وعليه أموت ،

هذا هو زيد بن عمرو ابن نفيل المثل الأكبر لجل الحنفاء وسواء

أكان نبيا كما قال بذلك قوم من المتكلمين ، أم لم يكن كذلك ،

كما قال فريق آخر ، فانه ناج باعتباره من أهل الفترة قبل من أفضلهم

على الاطلاق ، ويكفيه قوله في يوم لأهل قريش :

" يا معشر قريش والذي نفسي بيده ما أصبح منكم أحد على دين

ابراهيم غيرى "

الحكماء :

وهؤلاء كانوا يشبهون حكماء اليونان حتى أن الشهرستانى يصرفهم بنزله

ومنهم ـ يقصد الفلاسفة ـ حكماء العرب وهم شرذمة قليلة ، لأن أكثرهم

حكمهم فلتات الطبع ، وخطرات الفكر ، وربما قالوا بالنبوات ،

ويقول صاحب كتاب التفكير الفلسفى فى الاسلام :

وحكماء العرب هؤلاء هم : العلماء الذين كان يرجع اليهم فيما

يعرض من مشاكل وهم فى الجملة : أعظم العرب حظا فى الثقافة .

وكان مثلهم فى الحكمة : مثل حكماء اليونان

لقد أثرت عنهم الحكم القصيرة التى تركزت فيها التجربة والحنكة مثل :

"مقتل الرجل بين فكيه "

من طلب شيئا وجده وان لم يجده يوشك أن يقع قريبا منه

" الحرب مأيمة "

وان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى (١)

ومن أشهر هؤلاء الحكماء هم :

أكثم بن صيفى بن ربال ، عبد المطلب بن هاشم ، قس بن ساعدة .

كان عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم يمنع نكاح المحارم ،

ويقطع يد السارق ، وينهى الناس عن قتل الموءودة .

أما قس بن ساعدة فقد استدل على وجود الله وعلى أمر الآخرة ،

أنظر اليه يقول :

كلا بل هو الله الواحد ، الله واحد ، ليس ولودا ولا والدا ، أحد

(١) التفكير الفلسفى فى الاسلام للدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٨ ـ ص ٢٩

وأبدى ،واليه المآب غدا " ا ٠ هـ

ومن شعره :

يابا لكسي الموت والأهوات في جدث عليهم من بقايا بزهم خرق

دعهم فان لهم يوما يصاح بهم كما ينبه من نوماتة الصعق

أما أكثم بن صيفي بن رياح فان حكمته تظهر في جلائها في موقفه من رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته قومه لاتباعه والسير على طريقه ومن حكمته — كما ذكرها الألوسي —

" انه لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم بمكة وبلغ الخبر الى الاسلام بعث أكثم ابنه صيفيا فأتاه بخبره فجمع بنيه تميم وقال :

" يابني تميم لاتحضروني سفيها : فانه ان يسمع يخل ان السفيه يوهن من فوقه ويثبط من دونه لاخير فيمن لاعقل له ،كبرت سني ،ودخلتني ذلة ،فاذا رأيتم مني حسنا فاقبلوه ،وان رأيتم مني غير ذلك فقوموني أستقم

ان ابني شافه هذا الرجل مشافهة ،وأتاني بخبره ،وكتابه يأمر فيه بالمعروف ،وينهى عن المنكر ،فأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ،ومكارم الشيم تلبية لدعوة الله تعالى ،ووضع الأوثان عن رؤوس الرجال ،والنيران ،وقد حلف (عرف) ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو اليه ،وأن الرأي ترك ما ينهى عنه ٠

ان أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم ،فان يكن الذي يدعو اليه حقا فهو لكم دون الناس ،وان يكن باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه ،والستر عليه ،

وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته ،وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله وسعى ابنه محمدا فكونوا في أمره أولا ولاتكونوا آخرا ،وكونوا طالبين قبل أن تأتوا كارهين ،

" ان الذى يدعو اليه محمد : لو لم يكن دينا لكان فى أخلاق الناس حسنا "

أطيعونى واتبعوا أمرى أسأل لكم أشياء ، لاتنزع منكم أبدا ، وأصبحتم أعز لى حيا العرب ، وأكثر عددا وأوسعهم دارا ، فانى أرى أمرا لايجتنبه عزيز الا ذل ، ولا يأتيه ذليل الا عز ، ان الأول لم يدع للآخر شيئا ، وهذا أمر له ما بعده ، ومن سبق اليه غنم المعالى ، واقتدى به التالى ، والعزيمة حزم والاختلاف عجز " ا . هـ

فقال مالك بن نويرة : قد خرف شيخكم .

فقال أكثم : ويل للشجى من الخلى ، ولهفى على أمر لم أشهده ولم يسبقنى : فذهب مثلا "

الحمس :

الحمس جمع أحمس ، يقول صاحب مختار الصحاح :

وهو الشديد الصلب فى الدين والقتال "

وكانت قريش قد ابتدعت هذا الرأى ، لأنها اعتزت بجوارها للبيت ولكونهم من بنى ابراهيم وولاة البيت وساكنو مكة ، فرأوا أن لهم الحقوق ، وعليهم من الواجبات خلاف الآخرين من غير قبيلتهم .

يقول ابن اسحاق :

" وقد كانت قريش — لا أدرى قبل عام الفيل أم بعده — ابتدعت رأى الحمس رأيا رأوه وأداروه ، فقالوا : نحن بنو ابراهيم ، وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنوها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ، فلا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم ، فانكم ان فعلتم ذلك استخف العرب بحرمتكم ، وقالوا : قد عظموا من الحل

مثل ماعظموا من الحرم ،فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها ،وهم يعرفون ويقرون بأنها من المشاعر ،والحج ،ودين ابراهيم ،صلى الله عليه وسلم .

ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها ،وأن يفيضوا منها ،الا أنهم قالوا : نحن أهل الحرم وليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ولانعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس ،والحمس أهل الحرم .

وقد حرم الحمس على أنفسهم وعلى الحجيج أشياء ،وفرضوا أشياء أخرى فقالوا — كما يروى ابن اسحاق :

لاينبغي للحمس أن يأقطوا الأقط ، ولايسلئوا السمن وهم في حرم ولا يدخوا بيتنا من شعر ولا يستظلوا ان استظلوا الا في بيوت الأدم ماكانوا حرما .

وقالوا أيضا :

" لاينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجا أوعمارا ولايطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم الا في ثياب الحمس ،فان لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة ،فان تكرم منهم متكرم — من رجل أوامرأة — ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها اذا فرغ من طوافه ،ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبدا ."

" الحالة الروحية للجزيـــرة العربية "

اذا كان ماذكرناه آنفا يمثل الحالة الروحية التى وصل اليهـــا المجتمع المكى ،فان الجزيرة العربية كانتتشهد تحولا روحيا كبيرا يدل على أمر سيظهر عما قريب ، يقول ابن قتيبة فى كتاب المعارف :

" كانت النصرانية فى ربيعة و غسان ،وبعض قضـاعة ،

وكانت اليهودية فى حميرومن كانة وبنى الحارث ابن كعب وكنـدة ،

وكانت المجوسية فى تميم منهم زرارة ، وحاجب بن زرارة ، ومنهـم الأقرع بن حابس ،كان مجوسيا .

ويذكرنا لسان العرب أنه كان هناك من يدين بالرجعة يقول :

" والرجعة مذهب قوم من العرب فى الجاهلية معروف عندهم " .

والغريب أن بعضهم كان قدريا والبعض الآخر مثبتـا .

يقول صاحب التفكير الفلسفى فى الاسلام :

كان الأعشى قدريا وكان لبيد مثبتا .

قال لبيـد :

من هداه سبـل الخير اهتدى ـ ناعم البال ومن شاء أضـل

وقال الأعشى :

" استأثر الله بالوفاء والعدل

وولى الملامة الرجلا "

تلك هى الصورة العامة للفكر الروحى فى البيئة المكية وما حولهـــا من الجزيرة العربية قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم :

لقد كانت جميعها حالة من التأله والتزهد تبشر باقترابها من الخلاص

على يد من يحملها على الجادة ،ويسير بها الى الطريق المستقيم ،

يقول الشيخ محمد أبوزهرة فى كتابه ـ المعتاز ـ خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم :

ان نظرت الى العالم شرقا فى أقصاه ،أوغربا فى أقصاه ،أوالقريب الدانى أوالبعيد النائى ،فانك واجد أن العالم فى حاجة الى من يهديه من ضلاله ،فالفلسفة لاتصلح الناس ولواستقامت على الطريقة ،لأنها ان أقنعت الخاصة لا تملأ نفوس العامة ولاتندبها الى سواء السبيل ،وهى مااستقامت فما أصلحت أحدا .

والعقائد قد اعتراها التحريف ،فاليهود حرفوا التوراة عن معناها ونسوا خطا كثيرا مما ذكروا به ،ونظروا الى الناس جميعا على أنهم دونهم ،وأنهم ليسوا عباد الله مثلهم ،وأن الله تعالى خالقهم ،كما خلق غيرهم ،بل زعموا أنهم المختارون ،وأن كل الناس دونهم ،وبذلك عاثوا فى الأرض فسادا ،ولما ذلوا ـ وهم على الاعتقاد بأنهم شعب الله المختار ـ حقدوا على الخليقة ،

وعملوا بكل الوسائل للكيد لغيرهم ،غير متحرجين ولامتأثمين ، بل انهم يفسدون بالعداوة بين الناس ،وينشرون الفساد فى غير تحفظ ولامراعاة لأى جوار فى أى مكان ، فكان لابد لنبى يأتى بدين قوى يكفكف غرورهم ،وينتهنه من غلوائهم .

والنصرانية انحرفت وخرجت عن مبادىء المسيح وغلوا فيه ،واستبدلوا بأدب المسيح وسماحته استعلاءا واستكبارا فى الأرض،وعتوا فسادا ،فكان لابد من رسول بشير ونذير يهدى الى الحق والى صراط مستقيم .(١)

" ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولانذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير "(٢)

(١) خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم لفضيلة الشيخ محمد أبوزهرة الجزء الأول ص ٩٨ ، ٩٩

(٢) سورة المائدة آية ١٩

" كرم أصـــــله وطيـــــب منبتـــــــه "

عند ما نتبع قصص الأنبياء في القرآن الكريم ،نرى :

أن الأنبياء والرسل كانوا دائما من أشرف الأسر ، ومن أعلى القبائل نسبا ،ونرى ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى حكاية عن سيدنا شعيب عليه السلام :

" قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ،وانا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ،وما أنت علينا بعزيز ،

قال ياقوى : أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربى بما تعملون محيط "(١)

ومن هنا يتضح لنا المغزى العميق لسؤ ال هرقل لأبى سفيان بن حرب عن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليق هرقل على اجابة أبى سفيان بأنه من أوسطهم نسبا بقوله :

" سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذونسب ،
فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها "(٢)

" لقد كان من استدلال هرقل على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم هو كونه من أوسط قريش نسبا وكذلك الأنبياء يكونون كذلك .

ان معنى كونه من أوسطهم نسبا مايكفل له الاعداد السليم في حياته ، ويجعله منيعا في قومه ،لايردونه عند ظهور دعوته بدعوى من الدعاوى التى تلقى على أراذل القوم وأسافلهم ،

وعلى الضعفاء من الناس مثل دعاوى طلب الغنى أوالملك أوغيرها

---

(١) سورة هود آية : ٩١ ، ٩٢

(٢) والحديث بطولة اخرجه البخارى في صحيحه .

صحيح أنهم وجهوا نفس التهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن كان مردودا عليها من قبل اتهامها نظرا لما عرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، من الشرف والرفعة والصدق والأمانة ، وعدم السفاهة ، ولعل أبرز مثال يوضح لنا ذلك هو موقف المشركين الى المستضعفين من أتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وكبلال بن أبي رباح ، وعمار بن ياسر ، وغيرهم ،

والفرق بينه وبين موقفهم من سيدنا أبي بكر الصديق ، وسيدنا عمر ابن الخطاب ، من أصحاب العزة والمنعة ، فكيف لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو المستضعف ؟

يقول الشيخ محمد أبوزهرة :

" ولاشك أنه يجب أن يكون للرسول صلى الله عليه وسلم منعة من قومه ، لأنه يبادر الناس بالمجاهرة بغير مايعلمون ، ومايعتقدون ، ويصدع - مفاجئا - بما لايريدون ، وأنهم - بلاريب - يجدون أنه لايدفع مايجيء على غير رغبتهم بالحسنى ، بل بالمقاومة الحقيقية القوية ، واذا لم يكن له منعة من قومه يقتلونه في فجر الدعوة قبل أن يصبح صباحها ، ويكون لها ضوء في المجتمع ، ولو كان ضئيلا ، فانه من بعد يكون نورا ، ولو أطفيء النور عاش الناس في ظلام لايضيء أبدا ،

وانظر الى قصة قوم شعيب اذ أنه لم يمنعهم من أن يقتلوه الا رهطه ، فقد قالوا - فيما حكاه القرآن الكريم عنهم - :

" ولولا رهطك لرجمناك " (١)

أما عن النسب الشريف فذلك ما تدلنا عليه الأحاديث النبوية ، وتبين لنا مبلغ هذا النسب من الرفعة ،

---

(١) خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم الجزء الأول محمد أبوزهرة ص ١٠٦ ، والآية رقم ٩١ من سورة هود .

ففي صحيح البخاري من حديث عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه "

وفي صحيح مسلم من حديث الأوزاعي عن شداد أبي عمار عن واثلة ابن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل ، واصطفى من بني اسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم "

وقال الامام أحمد : حدثنا أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن المطلب بن أبي وداعة قال : قال العباس :

" بلغه صلى الله عليه وسلم بعض مايقول الناس قال :

" فصعد المنبر فقال :

" من أنا ،

قالوا : " أنت رسول الله ،

قال : " أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ان الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه ، وجعلهم فرقتين ، فجعلني في خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة ، وجعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا ، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا "(١)

وروى ابن كثير في سيرته النبوية قال :

" وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا عبيد الله بن موسى عن اسماعيل

---

(١) مسند الامام أحمد تحقيق الشيخ أحمد شاكر حديث رقم ١٧٨٨

ابن أبي خالد عن يزيد بن أبي زياد عن عبدالله بن الحارث بن نوفل :

عن العباس بن عبدالمطلب قال : قلت يارسول الله ، ان قريشا اذا التقوا لقي بعضهم بعضا بالبشاشة ، واذا لقونا لقونا بوجوه لانعرفها ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك غضبا شديدا ثم قال :

" والذى نفس محمد بيده لايدخل قلب رجل الايمان حتى يحبكم لله ورسوله " .

فقلت يارسول الله : ان قريشا جلسوا فتذاكروا أحلامهم فجعلوا مثلك كمثل نخلة فى كبوة من الأرض .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ان الله يوم خلق الخلق جعلنى فى خيرهم ثم لما فرقهم قبائل" جعلنى فى خيرهم قبيلة ثم حين جعل البيوت جعلنى فى خيربيوتهم فأناخيرهم نفسا وخيرهم بيتا "

ورواه أبوبكر بن أبي شيبة عن ابن فضيل عن يزيد بن أبي زياد عن عبدالله بن الحارث عن ربيعة بن الحارث قال :

" بلغ النبى صلى الله عليه وسلم فذكره بنحو ما تقدم ولم يذكر العباس "(١)

أما ذلك النسب الذى بلغ الذروة من الشرف والرفعة فهو :

محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

---

(١) الحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير السيرة النبوية جـ١ ص ١٩٢ ، تحقيق الدكتور مصطفى عبدالواحد .

" لوائح الهداية ومظاهر الخصوصية فيه صلى الله عليه وسلم

قبل البعثة

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيض عليه مظاهر الخصوصية ولوائح الهداية واضحة للأعين قبل بعثته ،وماكان قول السيدة خديجة رضى الله عنها عند ماجاءها يرتجف اثر نزول الوحي عليه :

كلا والله مايخويك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ،وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ،وتعين على نوائب الحق " بدءا من القول ، بل كان الحقيقة كاملة ،لقد كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة تبشيرا بأنه سيكون له شأن كبير :

لقد كانت ملامح الخصوصية والاعداد الالهى قائمة فى هذه الفترة بأوضح معانيها ، متمثلة فى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،واذا كان لنا أن نتحدث عن هذه الفترة ،

فاننا نبدأ بارجاع هذه الخصوصية — أولا — الى تبشير الكتب السماوية السابقة به ،مما يبين لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين ،وأنه مبعوث رب العالمين الى الخلق كافة ، وليس مخصوصا بأمة من الأمم ، وهنا من أهم مظاهر خصوصيته عليه الصلاة والسلام :

تبشير الكتب السماوية السابقة به صلى الله عليه وسلم :

اذا كان لنا أن نتحدث عن تبشير الكتب السماوية به صلى الله عليه وسلم ،فاننا لايجوز لنا القاء القول فى هذا الموضوع قبل ذكر النصوص الاسلامية التى تحدثنا عن هذا باعتبارها أوثق مصادر يمكننا الاعتماد عليها فى العصر الحديث ولن تكون المصادر الأخرى من الكتب السماوية السابقة سوى مصادر تابعة أو مؤيدة

---

(١) رواه البخارى فى باب كيف كان بدء الوحى .

ولايختلف النسابون الى عدنان ،ثم يختلفون فيما بعـــــد (١) .

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى للامام أبى الفرج عبدالرحمن بن الجوزى جـ ١ صـ ٧٦ تحقيق الدكتور مصطفى عبدالواحد وكتب السيرة النبوية الأخرى .

أوشارحة للنصوص الاسلامية :

" واختار موسى من قومه سبعين رجلا لمقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لوشئت أهلكتهم من قبل وايای أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء ،وتهدى من تشاء ،أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين "

" واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ،الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف ،وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ،ويضع عنهم اصرهم ،والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ،واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون "(١)

فهذا النص يدلنا دلالة قوية ، على أن الله سبحانه وتعالى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الصفات فى التوراة والانجيل ، وهذه الصفات هى بعينها الموجودة فى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول القرطبى :

" الأمى وهو منسوب الى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادتها لم تتعلم الكتابة ولاقراءتها ،قاله بن عزيز .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما :

" كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أميا لايكتب ولايقرأ ولايحسب "

قال تعالى :

" وماكنت تتلوا من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك "(٢)

---

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٥٥ـ١٥٧

(٢) العنكبوت آية : ٤٨

ويقول القرطبي أيضا في قوله تعالى :

" الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل "(١)

روى البخاري قال حدثنا محمد بن سنان قال حدثنا خليج قال حدثنا هلال بن عطاء بن يسار لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت :

" أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ؟

فقال : : أجل ،والله انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن :

" يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، ونورا للأميين أنت عبدي ورسولي ،سميتك المتوكل ،ليس بفظ ،ولاغليظ ، ولاصخاب في الأسواق ، ولايدفع بالسيئة السيئة ،ولكن يعفو ويغفر ،ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : " لا اله الا الله ،ويفتح بها أعينا عميا ،وآذانا صما ،وقلوبا غلفا "(٢)

وذكر الطبري في تفسيره الرواية نفسها ثم قال :

حدثنا بشر ،قال حدثنا يزيد ،قال : حدثنا سعيد ،عن قتادة ، قال الله :

" الذي يجدونه مكتوبا عندهم "،يقول : يجدون نعته ،وأمره ونبوته مكتوبا عندهم(٣)

أما في سورة الصف ،فاننا نجد القرآن يعطينا زيادة في التفصيل ،تبين لنا الاسم ،وتبين لنا أيضا موقف المشركين من الرسول صلى الله عليه وسلم ،واتهامه بالسحر .

---

(١) الأعراف آية : ١٥٧ (٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ٧ص٢٩٨، ٢٩٩
وينظر في ذلك السيرة النبوية لابن كثير ص ٣٢٦

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري جـ ٩ صـ ٥٣

يقول الله تعالى :

" واذ قال عيسى ابن مريم يابنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين "(١)

يقول الطبرى : حدثنى يونس قال : أخبرنا بن وهب قال :

أخبرنى معاوية بن صالح وسعيد بن سويد عن عبد الأعلى ابن هلال السلمى عن عرباض بن سارية قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" انى عبدالله مكتوب بخاتم النبيين ، وان آدم لمنجدل فى طينته وسأخبركم بأول ذلك :

دعوة أبى ابراهيم وبشارة عيسى بى ، والرؤيا التى رأت أمى وكذلك أمهات النبيين ترين ، انما رأت حين وضعتنى أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام "(٢) ونورد أيضا ثلاثة نصوص تزيد النص القرآنى وضوحا وبيانا ، وهذه النصوص للقرطبى ، وابن سعد ، والامام أحمد ،

يقول القرطبى فى شرحه على قوله تعالى :

" ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد " :

وأحمد اسم نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو اسم علم منقول من صفة ، لا من فعل ، فتلك الصفة أفعل التى يراد بها التفضيل ،

فمعنى أحمد أى أحمد الحامدين لربه ، والأنبياء صلوات الله عليه كلهم حامدون الله ونبينا أكثرهم حمدا ، وأما محمد فمنقول من صفة أيضا

---

(١) سورة الصف الآية : ٦

(٢) جامع البيان للطبرى (جـ ٢٨ ص ٥٣

وهى فى معنى محمود ،ولكن فيه المبالغة والتكرار ،فالمحمد هو الذى حمد مرة بعد مرة ،وهذا الاسم مطابق لمعناه ، والله سماه قبل أن يسمى به .

وفى الصحيح : " لى خمسة أسماء : أنا محمد ،وأحمد ،وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ،وأنا الحاشر الذى تحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب "(١)

وقال الامام أحمد :

حدثنا حسن بن موسى سمعت خديجا أخا زهير بن معاوية عن أبى اسحاق عن عبدالله بن عتبة ،عن عبدالله بن مسعود قال :

بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشى ونحن نحو من ثمانين رجلا ،منهم : عبدالله بن مسعود ،وجعفر وعبدالله بن رواحة ،وعثمان بن مظعون ،وأبوموسى ،فأتوا النجاشى وبعثت قريش عمرو بن العاص ،وعمارة بن الوليد بهدية ،فلما دخلا على النجاشى سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ، ثم قالا له :

" ان نفرا من بنى عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا قال : فأين هم : ؟

قالا : هم فى أرضك فابعث اليهم ،فبعث اليهم ،

فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم ،فاتبعوه ، فسلم ولم يسجد ،

فقالوا له : مالك لاتسجد للملك ؟

قال : انا لانسجد الا لله عز وجل ،

قال : وماذاك ؟

---

(١) القرطبى الجامع لأحكام القرآن جـ ٢١ ص ٨٣ ـ ص ٨٤

قال : ان الله بعث الينا رسوله فأمرنا ألا نسجد لأحد الا لله عز وجل وأمرنا بالصلاة والزكاة ،

قال عمرو بن العاص : فانهم يخالفونك في عيسى بن مريم ،

قال : ما تقولون في عيسى بن مريم وأمه ؟

قال : نقول كما قال الله عز وجل هو كلمة الله وروحه ،ألقاها الى العذراء البتول ،التي لم يمسها بشر ،ولم يعترضها ولد ،

قال : فرجع عودا من الأرض ثم قال : يامعشر الحبشة والقسيسين والرهبان :

" والله ما يزيد على الذي نقول فيه ما يساوي هذا ،مرحبا بكم ومن جئتم من عنده ،أشهد أنه رسول الله ،وأنه الذي نجده في الانجيل ، وأنه الذي بشر به عيسى بن مريم ،انزلوا حيث شئتم والله لولا ما أنا فيه من الملك لآتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه ،وأخدمه بيديه الآخرين فردت اليهم"

أما النص الثالث من النصوص الاسلامية فهو مارواه ابن سعد في طبقاته يقول :

" أخبرنا محمد بن اسماعيل بن أبي فديك المدني عن موسى بن يعقوب الزمعي عن سعيد مولى عتيمة أنه كان نصرانيا من أهل مريس ،وكان يقرأ الانجيل ، فذكر أن صفة النبي صلى الله عليه وسلم في الانجيل ،وهو من ذرية اسماعيل اسمه أحمد "(١)

هذه هي بعض النصوص الاسلامية التي وردت بخصوص البشارة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ،في الكتب السماوية السابقة ،على الاسلام وهي تؤكد بما يدع مجالا للشك ، هذه البشارات ،بل انها انما عرضتها للصيان

---

(١) تف

(١) ابن سعد الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٦٤

بما يمكن أن يكون استدلالا من جانبها بهذه البشارات على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ،وهذه المصادر الاسلامية هى الآكد عندنا باعتبار أنها لم يصبها أى تحريف ، فان القرآن وصل الينا بالتواتر ، على إن الغريب فى الأمر أن التوراة والانجيل رغم ما أصابهما من تحريف شديد الا أنه فى بعض نسخهما ورد ذكر البشارات بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، نذكر منها على سبيل المثال :

فلما انتصب آدم على قدميه رأى فى الهواء كتابة تتألق كالشمس فصارت : لا اله الا الله محمد رسول الله ،ففتح آدم فاه قال :

" أشكرك أيها الرب الإلهى ،لأنك تفضلت فخلقتنى ولكن أضرع اليك أن تنبئنى ماممنى هذه الكلمات محمد رسول الله ؟ فأجاب الله :

" مرحبا بك ياعبدى آدم وانى أقول لك أنك أول انسان خلقت، وهذا الذى رأيته انما هو ابنك الذى سيأتى الى العالم بعد الآن بسنين عديدة ، وسيكون رسولى الذى لأجله خلقت كل الأشياء الذى منها جاء "(١)

وجاء فى انجيل يوحنا :

وأما الآن : فأنا ماض الى الذى أرسلنى ، وليس أحد منكم يسألنى أين تمضى ،لكن لأنى قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم ، لكى أقول لكم الحق ، انه خير لكم أن أنطلق ،لأنه ان لم أنطلق ريأتيكم المعزى ،لكن ان ذهبت أرسله اليكم ،ومتى جاء جاء ذاك يبكت العالم على خطيئته ،وعلى بر ،وعلى دينونة ،

أما على الخطيئة فلأنهم لايؤمنون بى ،

وأما على بر فلأنى ذاهب الى أبى ولاترونى أيضا ،

وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين ان لى أمورا كثيرة أيضا

---

(١) انجيل يوحنا فصل ٣٩ ــ من رقم ١٤ ــ ٢٨

يرشدكم الى جميع الحق ،لأنه لايتكلم من نفسه ،بل كل مايسمع يتكلم به ،ويخبركم بأمور آتية ،ذاك يمجدني لأنه لا يأخذ مالي ويخبركم "(١)

وقد شرح هذا النص الدكتور يوسف عبدالهادي الشال بقوله :

" نستخلص من هذاالنص أمرا هي :

الأمر الأول :

التبشير برسالة نبينا صلى الله عليه وسلم وسماه " الفارقليط" ،وترجمة اللفظة بالعربية (أحمد) وهذا مطابق لقوله تعالى :

" ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد "(٢)

ويلاحظ أن (الفارقليط) تكتب أحيانا بارقليط ،وأحيانا باركليت،اذ : قد تصرف المترجمون في اللفظة ،لدى نقلها عن اللغات الأصلية الثـــــلاث، وهي العبرية ، والكلدانية ، واليوناتيـــة ،

وقد سأل الأستاذ عبدالوهاب النجار الدكتور كايتاني المستشرق الايطالي عن معنى هذه الكلمة فقال :

ان معناها الذي له حمد كثير ،وهذا يوافق أفعل التفضيل في أحمد .

الأمر الثاني :

أنه لايتكلم من عند نفسه ،بل كل مايسمعه ويوحى اليه به من ربـــــه يبلغه ،وهذا يلتقي مع قول الله سبحانه وتعالى :

" قل مـا كنت بدعا من الرسل وما أدري مايفعل بي ولابكم ان أتبـــع الا مايوحى الى وما أنا الانذير مبين "(٣)

وقوله عز وجل :

وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ماكنت تدري ماالكتاب ولا الايمـان

---

(١) انجيل يوحنا ص١٦ فصل ٥ على لسان السيد المسيح (٢) سورة الصف آية : ٦
(٣) الأحقاف آية : ٩

ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم (١)

الأمر الثالث : أنه يمجد عيسى عليه السلام ،وليس هناك أمجد ، ولا أرفع ، مما فى القرآن الكريم :

" واذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ،يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ،ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ،وماكنت لديهم اذيلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ،وما كنت لديهم اذيختصمون ،اذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين (٢)

الأمر الرابع :

ان شريعة الرسول المبشر به باقية الى قيام الساعة ،ولا يأتى بعده نبى وهذا يلتقى مع قوله تعالى فى سورة الأحزاب :

" ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ،ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما " (٣)

أما فى التوراة فنجد النص التالى :

" فقال الرب : نعم جميع ماقالوا وقد أحسنوا فيما تكلموا وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين اخوتهم وأجعل كلامى فى فمه ويكلمهم بكل شىء آمره ومن لايطع كلامه الذى يتكلم به باسمى ،فأنا أكون المنتقم من ذلك (٤)

يقول الشيخ عبدالوهاب النجار :

" ان قوله " واجعل كلامى فى فمه يدل على أن ذلك النبى يكون أميا لايقرأ

(١) الشورى آية : ٥٢ - (٢) آل عمران آية : ٤٢ ـ ٤٦

(٣) خاتم المرسلين حياة ورسالة الدكتور يوسف عبدالهادى الشال ص ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ وينظر فى ذلك كتاب محمد رسول الله للأستاذ محمد رضا والأديان فى القرآن للدكتور محمود بن الشريف . (٤) التوراة الباب الثامن عشر سفر الاستثناء

أولا يكتب ولم يدع أحد من أبناء اسماعيل ،ذلك سوى محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يقم نبي أو سواه منذ أن خلق الله الدنيا الى اليوم (١) .

هذه بعض النصوص التي أتينا بها من التوراة والانجيل للدلالة على بشارات في الكتب السابقة بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ،ولكننا - مع ذلك - لانعتمد عليها الاعتماد المطلق نظرا لاستعمال الكثير منها للرموز في الاخبار عن ذلك ،ولعل ذلك للتحريف الذي وقع بها وهذه النصوص التي جئنا بها هي أوضحها وأصرحها ،ولعلها مما لم يدخله التحريف الا أننا مع ذلك لانعتمد سوى المصادر الاسلامية التي تكلمنا عنها من قبل ،فهي تكفينا لو ثوقنا بصدقها وبعدها عن الشبهات .

(١) يرجع في ذلك الى كتاب قصص الأنبياء للشيخ عبدالوهاب النجار والى الأديان في القرآن للدكتور محمود بن الشريف .

" خصوصيته صلى الله عليه وسلم بما وقع فى مولـــده الشـــريف "

×I×I×I×I×I×I×I×I×I×I×I×I×I×

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" انى عنـــد الله لخاتم النبيين وان آدم لمنجدل فى طينتـــه

وسأخبركم عن ذلك :

" أنا دعوة أبى ابراهيم ،وبشارة عيسى ،ورؤيا أمى التى رأت وكذلك أمهات النبيين يـــرين ان أم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت حين وضعتـــه نورا أضاءت له قصور الشام "(١)

هذا الحديث يدلنا دلالة قوية على أن ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم قد وقعت فيها من مظاهر الخصوصية ما ينبىء عن أن المولود الشريـــف ليس بالفرد العادى ، ان أمه رأت حين وضعته نورا أضاءت له قصور الشام ،ويؤكد لنا الحديث أن أمهات الأنبياء يرين ،فلا مانع من وجود بعض الخصوصية لدى أمهات النبيين .

واذا كان الحديث الذى ذكرناه يهتم بخصوصيته صلى الله عليه وســلم حـــال ولادته اهتمامنا كبيرا ،وكذلك ما سنذكره من أحاديث ،فلا أدرى لماذا يحاول كثير من الكتاب انكار ذلك ، انكارا مستميتا ،ان رجلا يحمل مصير العالـــم ، لماذا نحاول أن نجعله دائما بشرا عاديا ؟

من الطبيعى أننا لانتكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر ،ولكنـــه بشر يوحى اليه فهو اذن ليس بشرا عاديا ولكنه بشر يوحى اليه ، فلا مانـــع من ظهور كثير من البشارات منذ مولده حتى بعثته ، ويؤيد ذلك كثير مـــن

(١) الحديث من رواية الطبرانى والبزار والحاكم والبيهقى وأحمد بن حنبل عـــن العرباض بن سارية ،ويقول الحافظ بن حجر وصححه ابن حبان والحاكم ، وينظر أيضا فى ذلك دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة للبيهقى والسيرة النبوية لابن كثير والخصائص الكبرى للسيوطى .

الأحاديث والروايات التي سنذكر بعضها .

واذا كان بعض الناس يقولون بأننا يجب عند ذكر دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ، أن نركز كل اهتمامنا على القرآن ، ولا داعي للاهتمام بحياة الداعية الشخصية ، أو بالمعجزات الحسية ، فانهم في ذلك يخطئون ، فان من أهم الأسباب التي تؤدي الى الايمان بالدعوة هي حال الداعية نفسه .

فاننا اذا لاحظنا حال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما اجتباه به ربه من نعمة ، ومن مظاهر الخصوصية ، لا يتأتى لأي لبيب الا أن يؤمن برسالته ايمانا مطلقا ، فحال الداعي وحال الدعوة لا ينفصلان على الاطلاق ولا يتناقضان ، بل هما مترابطان يكمل كل منهما الآخر ، ولن نذهب بعيدا في محاجاة هؤلاء الناس ، فان ذلك ليس موضوع بحثنا ، ويكفينا حجة : ماذكرته له الأحاديث مما يدل على الاهتمام بذلك .

أخرج الحاكم - وصححه والبيهقي - عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يارسول الله ، أخبرنا عن نفسك ، فقال :

" دعوة أبي ابراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي حين حملت كأنه خرج منها نور أضاءت له بصرى من أرض الشام .

وقلت : قوله حين حملت هي رؤيا نوم وقعت في الحمل ، وأما ليلة الولادة فرأت ذلك رؤية عين ، كما روى ابن اسحاق .

كانت آمنة تحدث أنها أتت حين حملت فقيل لها : انك قد حملت بسيد هذه الأمة ، وآية ذلك أن يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام ، فاذا وقع فسميه محمدا "(١)

وقال البيهقي : أنبأنا أبو عبدالله الحافظ ، أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد

(١) الحافظ جلال الدين السيوطي - الخصائص الكبرى جـ ١ ص ١١٤ ، ص ١١٥ .

ابن حاتم الدرابردى بمرو ،حدثنا أبوعبدالله البوشنجى ،حدثنا أبو أيوب سليمان ابن سلمة الخباؤرى ،حدثنا يونس بن عطاء ،بن عثمان ،بن ربيعة ،بن زياد ، ابن الحارث الصدائى بمصر ، حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة ،عن ابن عباس، عن أبيه العباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه ،قال :

ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم مختونا مسرورا قال

فأعجب جده عبدالمطلب وحظى عنده وقال : ليكونن لابنى هذا شأن فكأن له شأن .

وقد ورد لهذا الحديث بعض الطرق ،

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من حديث سفيان بن محمد الفسيم ،عن هشيم ،عن يونس بن عبيد ،عن الحسن ،عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" من كرامتى على الله أنى ولدت مختونا ولم ير سوأتى أحد " ،

ثم أورده من طريق الحسن بن عرفة عن هشيم به .

ثم أورده عن طريق محمد بن محمد بن سليمان — هوالباغندى ،

حدثنا عبدالرحمن بن أيوب الحمصى ،حدثنا موسى بن أبى موسى المقدسى ،حدثنى خالدبن سلمة ،عن نافع عن ابن عمر قال :

ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسرورا مختونا ،

وقال أبونعيم : حدثنا أبو أحمد محمد بن أحمد القطريفى ، حدثنا الحسين بن أحمد بن عبدالله المالكى ،حدثنا سليمان بن سلمة الخبائى ، حدثنا يونس بن عطاء ،حدثنا الحكم ابن أبان ،حدثنا عكرمة عن ابن عباس ،عن أبيه العباس قال

" ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم مختونا مسرورا ، فأعجب ذلك

جده عبدالمطلب ،وخطى عنده وقال : "ليكونن لابنى هذا شأنا "(١)

---

(١) الحافظ بن كثير السيرة النبوية جـ ١ صـ ٢٠٨ ـ صـ ٢٠٩
وينظر فى ذلك الخصائص الكبرى للسيوطى ، والسيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة للشيخ محمد أبوشهبة .

لوائح الهداية ومظاهر الخصوصية فيه صلى الله عليه وسلم فى حال رضاعه

اذا جئنا فى حال رضاعه صلى الله عليه وسلم ، فان كتب السيرة تروى لنا الكثير من الحوادث التى تدل على مظاهر الخصوصية فيه صلى الله عليه وسلم ،فى تلك الفترة ، على أن أهم ما حدث فى هذه الفترة فى نظرنا هو حادث شق الصدر ،وقد حدث هذا الحادث فى حياته صلى الله عليه وسلم ، ثلاث مرات ،

مرة فى حال استرضاعه فى بادية بنى سعد ،

والمرة الثانية : عند ماكان فى العاشرة من عمره ،

والثالثة : عند وقوع حادث الاسراء والمعراج ،والواقع أن حادث شق الصدر فى نظرنا له هذه الأهمية لأنه يمثل الاعداد الدائم من الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

انه يمثل التربية الالهية لرسوله صلى الله عليه وسلم ،

انه استخراج حظ الشيطان من الدعوة الاسلامية ، فتكون طاهرة نقية ممتلأة ايمانا وحكمة ، ومملوءة رأفة ورحمة .

لقد ناقش كثير من الكتاب حادث شق الصدر من الوجهة الحسية وهل يصح وقوعه أم لا ؟

هل فى الامكان فتح قلب الرسول صلى الله عليه وسلم أم لا ؟

يقول صاحب كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته الشريفة :

ولايغنينا هذا ـ لا فى قليل ولا فى كثير ـ تجارى الماديين فى جدلهم فيما يتعلق بشق الصدر :

فالأمر أسمى بكثير من المماراة : والشكل ،والكيف ،والزمان ،والمكان .

والمعنى : أعمق من أن نتجاوزه الى المماحكات التى تشعر بضعف الايمان أكثر مما تشعر بنور اليقين .

لقد روت كتب السنة بالأسانيد الصحيحة ،وروت كتب السيرة هذه الحادثة التى توجه النظر الى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله صلى الله عليه وسلم منذ طفولته المبكرة ، وان من مظاهر هذه العناية : أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لايكون الشيطان عليه من سبيل .

ان الله سبحانه وتعالى — وقد شاءت ارادته منذ الأزل أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين — أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للانسان الكامل .

والانسان يبدأ السير نحو الكمال بطهارة القلب وتصفية النفس ،والنية والاخلاص ،

أوبتعبير آخر بشق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه ،وأرسل الله ملائكته فشقوا عن صدر الرسول صلى الله عليه وسلم واستخرجوا حظ الشيطان (١)

واذاكان لنا أن نبدأ بذكر الروايات المتعلقة بشق الصدر فى حال نشأته صلى الله عليه وسلم ، وقبل البعثة ، وقد حدث شق الصدر فى تلك الفترة مرتين ، فاننا لايسعنا الا أن نبدأ بذكر رواية ابن اسحاق لما ورد فيها من ذكر قصة رضاعه صلى الله عليه وسلم ، ولقول الحافظ ابن كثير عنها :

أنها قد رويت من طرق أخرى وأنه من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازى (٢)

---

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته الشريفة .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير جـ ١ صـ ٢٢٨

قال ابن اسحاق : وحدثني جسهم بن أبي جهم

مولى لامرأة من بني تميم كانت عند الحارث بن حاطب ويقال له :

مولى الحارث بن حاطب قال :

حدثني من سمع عبدالله بن جعفر بن أبي طالب قال : حدثت عن حليمة بنت الحارث أنها قالت :

قدمت مكة في نسوة ، وذكر الواقدي باسناده أنهن كن عشرة نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسن بها الرضعاء من بني سعد نلتمس بها الرضعاء في سنة شهباء ، فقدمت على أتان لي قمراء كانت أذمت بالركب ، ومعي صبي لنا وشارف لنا والله ما تبض بقطرة وما ننام ليلتنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك ، ما نجد في ثدي ما يقهره ولا في شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتاني تلك ، فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا .

فقدمنا مكة فوالله ما علمت منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتأباه اذا قيل انه يتيم تركناه قلنا : ماذا عسى أن تصنع الينا أمه ؟ انما نرجو المعروف من أبي الولد ، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع الينا فوالله ما بقي من صواحبي امرأة الا أخذت رضيعا غيري .

فلما لم نجد غيره أجمعنا الانطلاق ، قلت لزوجي الحارث عبدالعزى : والله اني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع لأنطلقن الى ذلك اليتيم فلآخذنه ،

فقال : لا عليك أن تفعلي فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة .

فذهبت فأخذته فوالله ما أخذته الا أني لم أجد غيره ،

فما هو الا أن أخذته فجئت به رحلي ، فأقبل عليه ثدياي بما شاء

من لبن فشرب حتى روى ،وشرب أخوه حتى روى ،وقام صاحبي الى شارفنا تلك ،فاذا انها لحافل .

فحلب ماشرب وشربت حتى روينا صبوحنا بخير بليلة ،

فقال صاحبي ـ حين أصبحنا ـ ياحليمة : والله اني لأراك قد أخذت نسمة مباركة ،ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه ؟

فلم يزل الله عز وجل يزيدنا خيرا .

ثم خرجنا راجعين الى بلادنا ،فوالله لقطمت أتاني بالركب حتى مايتعلق بها حمار حتى أن صواحبي ليقلن : ويلك يابنت أبي ذؤيب هذه أتانك التي خرجت عليها معنا ؟

فأقول : نعم والله انها لهي ،فيقلن : والله ان لها لشأنا .

حتى قدمنا أرض بني سعد وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها فان كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعا لبنا فنحلب ما شئنا وماحوالينا أحد تبغي شاة بقطرة لبن وان أغنامهم لتروح جياعا حتى انهم ليقولون لرعاتهم أولرعيانهم : ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معها ، فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فتروح أغنامهم جياعا مافيها قطرة لبن ، وتروح أغنامي شباعا لبنا نحلب ماشئنا ،فلم يزل الله يرينا البركة فنعرفها حتى بلغ سنتين فكان شابا لايسبقه الغلمان ،فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاما جفرا ،فقدمنا به على أمه ونحن أحق شيء به مما رأينا فيه من البركة فلما رأته أمه قلت لها : دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى ،فانا نخشى عليه وباء مكة .

فوالله مازلنا بها حتى قالت : نعم فسرحته معنا فأقمنا بها شهرين أوثلاثة .

فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة فى بهم لنا جاء أخوه ذلك يشتد فقال :

ذاك أخى القرشى جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائما منتقعا لونه فاعتنقه أبوه وقال : يابنى ماشأنك ؟

قال جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض أضجعانى وشقا بطنى ثم استخرجا منه شيئا فطرحاه ثم رواه كما كان ،فرجعنا به معنا فقال أبوه : ياحليمة لقد خشيت أن يكون ابنى قد أصيب فانطلقى بنا نرده الى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف ،قالت حليمة :

فاحتملناه فلم ترع أمه الا به فقدمنا به عليها فقالت :

ماردكما به ياظئر فقد كنتما عليه حريصين ؟ فقالا :

لاوالله ،الا أن الله قد أدى عنا وقضينا الذى علينا وقلنا نخشى الاتلاف والأحداث نرده الى أهله ،فقالت : ماذاك بكما فأصدقانى شأنكما ،فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره ،فقالت :

أخشيتما عليه الشيطان ؟ إ كلا والله ماللشيطان عليه من سبيل ، والله انه لكائن لابنى هذا شأن ،ألا أخبركما خبره ،

قلنا : بلى ،قالت : حملت به فما حملت حملا قط أخف منه فأريت فى النوم حين حملت به كأنه خرج منى نور أضاءت له قصور الشام ، ثم وقع حين ولدته وقوعا مايقعه المولود معتمدا على يديه رافعا رأسه الى السماء فدعاه عنكما (١)

---

(١) هذه الرواية ذكر فى سيرة ابن هشام وفى السيرة النبوية لابن كثير والخصائص الكبرى للسيوطى ودلائل النبوة للبيهقى واخترنا نصها من السيرة النبوية لابن كثير نظرا لأنه يتدخل فيها بعض الشىء بالشرح والتوضيح فى جـ١ ص١٢٨ ، ص ٢٢٩

هذه هي الرواية الشهيرة والمعتمدة عند علماء السير والمغازي ، وقد ذكرناها بطولها لشرحها بالتفصيل حال الرضاعة وما تم فيها .

على أن هذا لا يمنعنا من ذكر رواية أخرى تؤيد تلك الرواية تكون كالملخص لما سبق ، وفيها زيادة بالنسبة لشق الصدر . وقال ابن كثير عن اسنادها انه اسناد جيد قوي (١)

يقول ابن اسحاق : حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا له : أخبرنا عن نفسك قال :

نعم أنا دعوة أبي ابراهيم ، وبشرى عيسى عليهما السلام ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام واسترضعت في بني سعد ابن بكر فبينما أنا مع بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجا فأضجعاني فشقا بطني ، ثم استخرجا قلبي ، فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء ، فألقياها ، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى اذا أنقياه رداه كما كان ، ثم قال أحدهما لصاحبه :

" زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم ،

ثم قال : زنه بمائة من أمته ، فوزنني بمائة فوزنتهم ،

ثم قال : زنه بألف من أمته ، فوزنني بألف فوزنتهم ، فقال : دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنتهم " (٢)

ويزيد هذه الحادثة أيضا ما ثبت في صحيح مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء فقال :

هذا حظ الشيطان ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير جـ ١ ص ١٢٩

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٦

في مكانه ،وجاء الغلمان يسعون الى أمه ـ يعني ظئره ،فقالوا :

" ان محمدا قد قتل ،فاستقبلوه وهو منتقع اللون ،قال أنس :

وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره (١)

هذه هي المرة الأولى التي رقمت فيها حادثة شق الصدر ،أما في المرة الثانية : فان أغلب كتاب السير والمغازي يذكرون أنها كانت قبل الاسراء والمعراج مباشرة ،أي وهو في سن كبير على أننا وجدنا رواية تذكر أنه أعيد شق صدره وهو ابن عشر سنين ،ولهذه الرواية من الشواهد والمتابعات ما ذكر في عدة كتب مما يحسنها ،والواقع : أن هذه الحادثة الثانية تؤكد لنا مبلغ عناية الله سبحانه وتعالى بالرسول صلى الله عليه وسلم ،في جميع مراحل عمره ،وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان يصدر عنه أي تصرف سواء قبل البعثة أم بعدها ،الا وهو محفوف برعاية الله وعصمته .

روى الامام أحمد ،وابن حبان ،والحاكم ،وابن عساكر عن أبي بن كعب :

أن أباهريرة رضي الله عنه كان يرينا أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال :

يارسول الله : ما أول ما رأيت في أمر النبوة ؟

فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وقال :

لقد سألت أباهريرة .

اني لفي صحراء ابن عشر سنين وأشهر واذا أنابكلام فوق رأسي ،

واذا رجل يقول لرجل :

أهو هو ؟

---

(١) صحيح مسلم جـ ٢ ص ٢١٦

قال نعم ،فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط ،وأرواح لم أجدهـــا من خلق قط ،وثياب لم أرها على أحد قط ،فأقبلا الى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مسا ،فقال أحدهما لصاحبه :

اضجعه ،فأضجعاني بلا قسر ولا هصر ،وقال أحدهما لصاحبه :

افلق صدره ،فهوى أحدهما الى صدرى ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع ،

فقال له :

أخرج الغل والحسد ،فأخرج شيئا كهيئة العلقة ،ثم نبذها فطرحها ،

فقال له :

أدخل الرأفة والرحمة ،فاذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ثم نفـــر ابهام رجلى اليمنى فقال : اغد واسلم ،

فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير (١)

---

(١) ينظر فى ذلك الوفا بأحوال المصطفى للامام أبى الفرج بن الجوزى الجـــزء الأول ص ١١٥ وروح المعانى للألوسى جـ ٣٠ صـ ١٦٧ ،وتفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٥٢٤ والرسول وسنته الشريفة للدكتور عبد الحليم محمود ص ٥٤ و ص ٥٥ والسيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٠٦

وتمضى الأيام بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم محفوفا بعناية الله سبحانه وتعالى ورعايته حتى كان في يوم من الأيام في رحلة الى الشام مع عمه أبي طالب والتقى في هذه الرحلة بعالم كبير من علماء النصارى هو بحيرى الراهب الذى رأى فيه من خصوصيات النبوة التى ذكرتها الكتب السماوية السابقة ورأى عليه الآيات الربانية ،ومن مظاهر العصمة ما يجعلنا نذكر الرواية بكاملها ،لأنها تعتبر من الدعائم الهامة في بيان معالم الهداية ومظاهر الخصوصية فيه صلى الله عليه وسلم قبل البعثة .

يقول ابن اسحاق :

ثم ان أباطالب خرج في ركب تاجرا الى الشام ،

فلما تهيأ للرحيل ،وأجمع السير صب به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون ،

فرق له أبوطالب وقال :

" والله لأخرجن به معى ولا أفارقه ولايفارقنى أبدا ،وكما قال :

فخرج به ،فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرى في صومعة له ،وكان اليه علم أهل النصرانية ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب فيها اليه بصير علمهم عن كتاب فيما يزعمون يتوارثونه كابرا عن كابر .

فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى - وكانوا كثيرا مايمرون به فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام ،فلما نزلوا قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته ،يزعمون أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركب ،حتى أقبل وغمامة تظلله من بين القوم .

ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريبا منه ،فنظر الى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها .

فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته ،وقد أمر بطعام فصنع ،ثم أرسل اليهم فقال :

انى صنعت لكم طعاما يامعشر قريش فأنا أحب أن تحضروا كلكم كبيركم وصغيركم وعبدكم وحركم ، فقال له رجل منهم :

" والله يابحيرى ان لك لشأنا اليوم ما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمر بك كثيرا فما شأنك اليوم ؟

قال له بحيرى : صدقت ،قد كان ماتقول ،ولكنكم ضيف ،وقد أحببت أن أكرمكم ،وأصنع لكم طعاما فتأكلون منه كلكم .

فاجتمعوا اليه ، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ،من بين القوم لحداثة سنه فى رحال القوم تحت الشجرة .

فلما رآهم بحيرى لم ير الصفة التى يعرف ويجده عنده ،فقال : يامعشر قريش لايتخلفن أحد منكم عن طعامى ،

قالوا يابحيرى ما تخلف أحد ينبغى له أن يأتيك الاغلام وهو أحدثنا سنا فتخلف فى رحالنا ،

قال : لاتفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم .

قال : فقال : رجل من قريش مع القوم : واللات والعزى ان كان للؤم بنا أن يتخلف محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب عن طعام من بيننا .

ثم قام اليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظا شديدا ،وينظر الى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته ،حتى اذا فرغ القوم من طعامهم ،وتفرقوا قام اليه

بحيرى وقال له : ياغلام :

أسألك بحق اللات والعزى الا أخبرتنى عما أسألك عنه ؟ ، وانمـا قال له بحيرى ذلك ،لأنه سمع قومه يحلفون بهما فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : لا تسألنى باللات والعزى شيئا فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما فقال له بحيرى : فبالله : الا ما أخبرتنى عما أسألك عنه فقال لـه : سلنى عما بدا لك .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله ومن نومه وهيئته وأموره فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ،فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته .

ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه موضعه من صفته التى عنـده ، فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال :

ما هذا الغلام منك ؟ ،

قال : ابـنى ،

قال بحيرى : ماهو بابنك ،وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ؟

قال : فانه ابن أخى ،

قال فما فعل أبوه ؟

قال : مات وأمه حبلى به ،

قال : صدقت ،ارجع بابن أخيك الى بلده واحذر عليه اليهود ،فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ليبغنه شرا فانه كائن لابن أخيك هذا شأن عظـيم، فأسرع به الى بلاده ،فخرج به عمه أبوطالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ مـن تجارته بالشام (١)

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٩١

وهكذا ذكر ابن اسحاق القصة بغير اسناد ،على أنها جاءت فـــى دلائل النبوة للبيهقي بالاسناد التالى :

أخبرنا أبوالقاسم : طلحة بن على بن صقرالبغدادى ،بها ،قـــال : أخبرنا أبوالحسين : أحمد بن عثمان بن يحيى الآدمى ،قال : حدثنا عباس بن محمد الدورى ، وأخبرنا أبوعبدالله الحافظ وأبوبكر : أحمد بن الحسن القاضى ،وأبوسعيد ابن أبى عمرو ،قالوا : حدثنا أبوالعباس : محمد بن يعقوب ،قال : حدثنـــا العباس بن محمد ،قال : حدثنا قراد أبونوح ،قال : أخبرنا يونس بن أبى اسحاق عن أبى بكر بن أبى موسى عن أبى موسى .

وقد زادت رواية البيهقى عن رواية ابن اسحاق زيادة يقول :

خرج أبوطالب الى الشام فخرج معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فـــى أشياخ من قريش ،فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم ،فخرج اليهـــم الراهب ،وكانوا قبل ذلك يمرون به فلايخرج اليهم ولا يلتفت ،

قال : فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وقال : هذا سيد العالمين ،هذا رسول رب العالمين ،هـــذا يبعثه الله رحمة للعالمين ،

فقال له أشياخ من قريش أعلمك ؟

قال : انكم حين أشرفتم من العقبة لم يمر بشجر ولا حجر الاخر ساجدا ولا يسجد ان الا لنبى ،وانى أعرفه خاتم النبوة فى أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحـــة ثم رجع فصنع له طعاما فلما أتاهم به وكان هو فى رعية الابل قال :

ارسلوا اليه ،فأقبل وعليه غمامة تظلله ،

فقال : انظروا اليه عليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه الى فىء الشجرة ،فلما جلس مال فىء الشجرة عليه فقال :

أنظروا الى فى الشجرة مال عليه .

قال : فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم أن لايذهبوا به الى الروم فان الروم ان رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه ، فالتفت فاذا هو بتسعة ، وفى رواية الأصم بسبعة ـ نفر قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم فقال : ماجاء بكم ؟

قالوا : جئنا الى هذا النبى خارج فى هذا الشهر فلم يبق طريق الا بعث اليه ناس ، وانا أخبرنا خبره فبعثنا الى طريقك هذا .

قال لهم : هل خلفتم خلفكم أحدا هو خير منكم ؟

قالوا : لا انا أخبرنا خبر طريقك هذا .

قال : أفرأيتم أمرا أراد الله عز وجل ، أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟

قالوا : لا

قال : فتابعوه وأقاموا معه .

قال فأتاهم ، فقال : أنشدكم الله أيكم وليه ؟

فقالوا : أبوطالب ، فلم يزل يناشده حتى رده ، وبعث معه أبوبكر رضى الله عنه ، بلالا وزوده الراهب من الكعك والزيت (١)

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك جـ ٢ صـ ٦١٥ ـ ٦١٦ ، وأخرجه السيوطى فى الخصائص الكبرى جـ ١ صـ ٨٣ ، وأخرجه الترمذى فى السنن جـ ٢ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ وقال هذا حسن غريب لانعرفه الا من هذا الوجه ، وقال عنه الحافظ ابن حجر فى الاصابة فى تمييز الصحابة قال : وقد وردت هذه القصة باسناد رجال ثقات من حديث أبى موسى الأشعرى أخرجها الترمذى وغيره ولهم فيها الراهب وزاد فيها لفظة منكرة وهى قوله : (وأتبعه أبوبكر بلالا) وسبب نكارتها أن ابابكر لم يكن حينئذ متأهلا ولا اشترى يومئذ بلالا الا أن يحمل على أن هذه الجملة الأخيرة منقطعة من حديث آخر ادرجت فى هذا الحديث وفى الجملة هى وهم من أحد رواته ، وابن كثير فى البداية والنهاية جـ ٢ ٢٨٥ ـ ٢٨٦ عن البيهقى والترمذى والحاكم وابن عساكر وقد قال عنه : فيه من الغرائب انه من مرسلات الصحابة فان أبا موسى الأشعرى انما قدم فى سنة خيبر سنة سبع من الهجرة ، ولايتلفت الى قول ابن اسحاق فى جعله له من المهاجرة الى أرض الحبشة من مكة وعلى كل تقدير فهو مرسل فان هذه القصة كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم من العمر ثنتا عشرة سنة ولعل أبا موسى تلقاه من النبى فيكون أبلغ أو من بعض كبار الصحابة أو كان هذا مشهورا مذكورا أخذ من طريق الاستفاضة ، وفيه : أن الغمامة لم تذكر فى حديث أصح من هذا .

واذا كنا ذكرنا هذه الروايات التى بينت الكثير من مظاهر الخصوصية وملامح الهداية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان لنا عليها عدة تعقيبات توضح وتؤكد بعض أمور يمكن أن تؤخذ من القصة :

أولا : أن بعض المستشرقين ومن شايعهم من العرب أخذوا من هذه القصة دليلا على وجود نظرية التأثر والتأثير فى الدين الاسلامى ، ففى نظر بعضهم أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم تأثر بكلام بحيرى الراهب اليه مما دفعه الى ادعاء النبوة بعد ذلك ولو أنه لم يقابله ولم يتأثر بكلامه لما بلغه طموحه هذا المبلغ ،

والبعض الآخر يقول : ان بحيرى الراهب وغيره من رهبان الشام هو الذى لقن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أصول الدين الاسلامى ، وأنه استفاد من علمهم الشىء الكثير (١)

ويمكن أن نرد على مزاعم هؤلاء المستشرقين بقولنا : اننا يمكن أن نأخذ من سياق القصة :

١ — أن المقابلة بين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبين بحيرى الراهب كانت لفترة قصيرة لا يمكن أن تسمح للرسول صلى الله عليه وسلم بأخذ التوجيهات الكافية ، أو التى لها قيمة من بحيرى الراهب ، وأن أصحابه من قريش كانوا حاضرين .

٢ — ان سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ، كان فى سن صغيرة فقد استخلفه قومه على متاعهم لصغر سنه ، بل ان بعض كتاب السير يرجح أن سنه فى ذلك الوقت كان تسع سنوات ، والبعض الآخر يرجحه بالثانية عشرة ، فأنى لمثل هذا السن أن يتلقى أمور الديانة المظام ؟

أو أن يتأثر بكلام الراهب فتحدثه نفسه بالنبوة ؟

٣ — زعمهم أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كان يأخذ أمور دينه من رحلاته

(١) نقل هذا الكلام عن أمثال اميل درمنغم وبينيه المسيسى لامانسى ، ويرجع فى ذلك بالتفصيل الى كتاب الوفى المحمدى للسيد محمد رشيد رضا ص ٧١

الى الشام ابتداء من هذه الرحلة وزعم درمنغم أنه مر بمدين وهى بلدة فى سيناء وهو فى طريقه الى الشام وأخذ من رجالها العلم ، ويمكن الرد عليه بأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لم يسافر الى الشام الا فى رحلتين ،أولاهما : وهو صغير السن مع عمه أبى طالب ،والثانية بعد أن أتم الخامسة والعشرين ، وكان يتاجر فى أموال السيدة خديجة رضى الله عنها وأرضاها ، وهذه الرحلة لم يكن له فيها أى لقاء برجال الدين أوغيرهم أما أنه مر بمدين وهو فى طريقه الى الشام : فان طريق القوافل لم يكن يمر بسيناء وهذا واضح للأعين :

ثانيا : نذكر الروايتان أن بحيرى الراهب وجد خاتم النبوة بين كتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يدعونا لذكر الروايات المتعلقة بهذا الموضوع لزيادة الاستدلال على خصوصية الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر .

أخبرنا عبدالله بن جعفر بن درستويه ،قال : حدثنا يعقوب بن سفيان قال : حدثنا هشام بن عمار ،قال : حدثنا حاتم بن اسماعيل ،قال : حدثنا الجعيد بن عبدالرحمن بن أوس قال : سمعت السائب بن يزيد يقول : ذهبت بى خالتى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ،ان ابن أختى وجع فمسح رأسى ودعا الى بالبركة ثم توضأ فشربت من وضوئه ثم قمت خلف ظهره فنظرت الى خاتمه بين كتفيه مثل زر الحجلة (١) .

وروى مسلم عن جابر بن سمرة قال :

" رأيت الخاتم الذى فى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل بيضة الحمام (٢) "

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى صـ ٢١٠ وذكره البخارى فى كتاب الوضوء وفى كتاب المناقب باب خاتم النبوة وذكر مسلم فى كتاب الفضائل جـ ٤ صـ ١٨٢٣ ، وبهامش فتح البارى جـ ٤ ص ٤١٠

(٢) رواه مسلم عن محمد بن عبدالله بن نمير عن عبيد الله بن موسى صحيح مسلم كتاب الفضائل جـ ٤ صـ ١٨٢٣

وروى مسلم أيضا عن عبدالله بن رسيس قال :

رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وأكلت معه خبزا ولحما ـ أوقال ثريدا ـ

قال : فقلت : يارسول الله ،غفر الله لك ،قال : ولك ،

فقلت : أستغفرلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ولكم ثم تلا هذه الآية :

" واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات "

قال : : ثم درت خلفه فنظرت الى خاتم النبوة بين كتفيه عند نغض كتفه اليسرى جمعا عليه خيلان كأمثال التآليل (١) .

ثالثا : قال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لبحيرى الراهب :" لا تسألنى باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما (٢) "

يدلنا هذا القول على أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،لم يعمل شيئا من أعمال أهل الجاهلية من عبادتهم للأصنام وتعظيمها ،لقد تكفل به الله سبحانه وتعالى ،وجعله موضع عنايته ،فأبعد عنه أوهام الجاهلية وما شرعته لنفسها من عبادات زعمت أنها من دين ابراهيم عليه السلام ،وهى ليست منه ،يقول ابن الجوزي :

" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فى زمن الصبا يبغض الأصنام ولا يلتفت اليها ،وكان أهله يسألونه أن يخرج معهم الى ناحيتها فلا يفعل ولا يقرب منها ويعيبها (٣) ،ويوضح ذلك ابن اسحاق بقوله :

فشب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد من كرامته ورسالته ،حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ،

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه عن حامد بن عمر البكراوى وعن أبى كامل عن حماد ، كتاب الفضائل جـ ٤ صـ ١٨٢٤ (٢) سيرة هشام ص ١٨٢

(٣) الوفا بأحوال المصطفى للامام أبى الفرج عبدالرحمن بن الجوزى الجزء الأول صـ ١٣٨

وأحسنهم خلقا ،وأكرمهم حسبا ،وأحسنهم جوارا ،وأعظمهم حلما ،وأصدقهم حديثا ،وأعظمهم أمانة ،وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزها وتكرما .

حتى ما اسمه فى قومه الا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما ذكرلى ـ يحدث عما كان الله يحفظه به فى صغره وأمر جاهليته أنه قال :

" لقد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان كلنا قد تعرى وأخذ ازاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة فانى لأقبل معهم كذلك وأدبر اذ لكمنى لاكم ما أراه لكمة وجيعة ،ثم قال :

شد عليك ازارك ،

قال فأخذته فشددته على ،ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وازارى على من بين أصحابى "(١)

وروى البخارى عن جابر بن عبدالله انا بنيت الكعبة ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،والعباس ينقلان الحجارة ،فقال العباس للنبى صلى الله عليه وسلم :

" اجعل ازارك على عاتقك من الحجارة ،ففعل فخر الى الأرض وطمحت عيناه الى السماء ثم قام فقال :

ازارى فستر عليه ازاره "(٢)

على أننا اذا كنا نريد التركيز على اجتناب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،للأصنام وعبادتها ،فاننا نجد الحافظ جلال الدين السيوطى يفصل لنا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ صـ ١٩٤ (٢) رواه مسلم عن محمد بن رافع واسحاق ابن منصور كتاب الحبيش جـ ١ صـ ٢٦٨ ،ورواه البخارى عن محمود عن عبد الرازق فى باب بنيان الكعبة جـ ٧ صـ ١١٠

القول فى ذلك ،يقول :

اخرج ابن سعد وأبونعيم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس قال :

حدثتنى أم أيمن قالت :

كان يوانه صنما يحضره قريش يوما فى السنة ،وكان أبوطالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى .. حتى رأيت أباطالب غضب عليه ،ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب ،وجعلن يقلن : انا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا وجعلن يقلن : يامحمد ما تريد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا ؟

لم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ماشاء الله ثم رجع الينا مرعوبا فزعا فقلن عماته ما دهاك ؟

قال : انى أخشى أن يكون بى لمم ؟

فقلن : ماكان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير مافيك ؟ فمالذى رأيت ؟

قال : انى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : وراءك يامحمد لاتمسه ،قالت : فما عاد الى عيد لهم حتى نبئ (١)

هذا ما كان عن الأصنام والعقيدة فيها ،أما عن شرائع قومه بالنسبة لطريقة العبادة فيقول السيوطى فى الخصائص الكبرى عن الحاكم وأبى نعيم والبيهقى عن زيد بن حارثة قال :

كان صنم من نحاس يقال له : اساف أونائلة ، يتمسح به المشركون اذا طافوا ،فطاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت معه ،فلما مررت مسحت به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتمسه ،

---

(١) الخصائص الكبرى للسيوطى جـ ١ ص ٢٢١ ص ٢٢٢

فقال زيد : فطفت فقلت في نفسي لأمتـــه حتى أنظر مايكون فصحته ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألم تنـه ؟
قلت زاد فيه غيره عن محمد بن عمرو باسناده : قال زيد :
فوالذى هو أكرمه وأنزل عليه الكتاب مااستلم صنما حتى أكرمه اللـــه بالذى أكرمه وأنزل عليه (١)

أما موقفه صلى الله عليه وسلم بالنسبـــــــــــــة للحمـــس مـــع ان القوم كانوا يعتبرونه منهـــم ،فقد كان موقف المعارض ولم تكن معارضـة نظرية ،بل انه بالفعل لم يقف بمزدلفة أثناء الحج ،بل كان يتبع شريعـــة سيدنا ابراهيم عليه السلام ويقف بعرفات ،يقول ابن كثير :

" وثبت في الحديث أنه كان لايقف بالمزدلفة ليلة عرفة ،بل كان لايقـف مع الناس بعرفات ،كما قال يونس بن بكـير ، عن محمد بن اسحاق حدثـني عبدالله بن أبي بكر ، عن عثمان ابن أبي اسماعيل عن نافع بن جبير بن مطعـم ، عن أبيه جبير ،قال :

" لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وهو على دين قومه وهـو يقف على بعير له بعرفات من بين قومه حتى يدفع معهم توفيقا من اللـــه عز وجل له "

قال البيهقي : معنى قوله : " على دين قومه " ماكان بقي مـــن ارث ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ،ولم يشرك بالله قط صلوات الله وسلامه عليه دائما ،

قلت : ويفهم من هذا أيضا : أنه كان يقف بعرفات قبل أن يوحى اليـه وهذا توفيق من الله له (٢)

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير جـ ١ ص ٢٥٣ وذكره السيوطي في كتـــاب الخصائص الكبرى جـ ٢ ص ٨٩ــ٩٠ وذكره البيهقي في دلائل النبوة ص ٣٨٢

ورواه الامام أحمد عن يعقوب عن محمد بن اسحاق به ولفظه :

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه وانه لواقف على بعير له مع الناس بعرفات حتى يدفع معهم توفيقا من الله .

وقال الامام أحمد : حدثنا سفيان عن عمرو عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال :

أضللت بعيرا لى بعرفة فذهبت أطلبه فاذا النبى صلى الله عليه وسلم واقف فقلت ان هذا من الحمس ماشأنه هاهنا ؟

وأخرجاه من حديث سفيان بن عيينة به (١)

هذه هى الآفاق التى أخذناها من لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم مع بحيرى الراهب والملقاء يحوى الكثير الا أننا اقتصرنا على هذا القدر لنكمل بقية عرضنا لمظاهر الخصوصية فى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة .

واذا كان لنا أن نختم هذا الجزء فلن نجد خيرا من تعليق القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمذانى على قوله تعالى :

" ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى " (٢)

يقول : فتأمل ماغى هذا فانه صلى الله عليه وسلم ماعرف المن بالأبوين كما يعرف من رباه أبواه فان أباه مات وهو حمل وماتت أمه وهو رضيع فتولاه الله أكرم ايواء فلما كمل أتاه النبوة .. " وكان أمر الله مفعولا " (٣)

---

(١) السيرة النبوية جـ ١ ص ٢٥٤

(٢) سورة الضحى آية ٦ ـ ٨

(٣) تثبيت دلائل النبوة للقاضى عبد الجبار الهمذانى جـ ١ ص ٨٥

" الأمـــــــين "

تظهر لنا لوائح الهداية ومظاهر الخصوصية فيه صلى الله عليه وسلم في اطلاق المجتمع القرشي عليه صلى الله عليه وسلم ،لقب " الأمين " ،

والواقع : أن لقب الأمين هو أصدق تصوير لحالة الرسول صلى الله عليه وسلم ،

لقد كان هو منهج حياته كلها ،وان كثيرا من الناس قد يطرأ على ذهنه ـ بمجرد سماع لفظ الأمين ـ الأمانة على الأموال ولكن معناها أوسع بكثير من هذا المعنى القاصر ،انه فعلا كان أمينا على الأموال ،فلم تؤثر عنه خيانة في هذا على الاطلاق ،ولكن المعنى الأوسع للفظ الأمين ـ كما أراده المجتمع القرشي ـ أنه كان أمينا في نفسه فلم يشبه من الجاهلية ما ،

لقد كان أفضل قومه مروءة ،وأحسنهم خلقا ،وأكرمهم جسما ،وأحسنهم جوارا ،ولم يؤثر عنه كذب قط

يقول ابن هشام بعد أن يذكر نسب الرسول صلى الله عليه وسلم :

" حتى ماسمه في قومه الا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة "(١)

واذا كان لنا أن نذكر مثالا على عناية الله تعالى به بحيث أصبح أمينا في نفسه فاننا نقول :

يقول البيهقي : أخبرنا أبوعبدالله الحافظ ،قال : حدثنا أبوالعباس محمد بن يعقوب ،قال : حدثنا أحمد بن عبدالجبار ،قال : حدثنا يونس بن بكير ،عن ابن اسحاق ،قال : حدثني محمد بن عبدالله بن قيس بن مخرمة عن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ صـ ١٨٣

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" ماهممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء الا ليلتين كلتاهما عصمني الله تعالى فيهما "

قلت : ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا ، فقلت لصاحبي أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر فيها كما يسمر الفتيان ، فقال بلى :

قال : فدخلت حتى اذا جئت أول دور من دور مكة سمعت عزفا بالمزابيل والمزامير ، فقلت : ماهذا ؟

فقيل تزوج فلان فلانة فجلست أنظر وضرب الله تعالى على أذني ، فوالله ما أيقظني الا مس الشمس ، فرجعت الى صاحبي ، فقال : مافعلت ؟

قلت : ما فعلت شيئا ، ثم أخبرته بالذي رأيت ،

ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة ، ففعل ، فخرجت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة ، فسألت ، فقيل فلان نكح فلانة ، فجلست أنظر ، وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني الا مس الشمس ، فرجعت الى صاحبي ، فقال : مافعلت ؟

فقلت : لا شيء ، ثم أخبرته الخبر ، فوالله ماهممت ولا عدت بعدها لشيء من ذلك حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته (١)

لقد كان أمينا في نفسه فما هم ولاعاد لشيء من ذلك أبدا بعد أن عصمه الله تعالى .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي الجزء الأول ص ٣٨١

وقد رواه السيوطي في الخصائص الكبرى عن ابن دراهوية وابن اسحاق والبزار والبيهقي وأبي نعيم وابن عساكر ثم قال عن ابن حجر (اسناده حسن متصل ورجاله ثقات) الخصائص الكبرى جـ ١ ص ٢١٩ تحقيق الدكتور محمد خليل هراس .

" الأمين على غـــيره "

ومن معانى الأمين أنه كان أمينا على غيره فلم يؤثر عنه أنه أضر بغيره على الاطلاق ،

لقد كان عطوفا على الناس ،معينا للضعفاء ،أمينا على الحديث فـــلا كذب ، أمينا على الأسرار فلا يفشيها ،

وماكان قول السيدة خديجة رضوان الله عليها : " كلا والله لايخزيك الله أبدا : ،" انك لتصل الرحم ،وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقـــرى الضيف ،وتعين على نوائب الحق " الا توضيحا لمعنى الأمين بالنســـبة لغيره .

واذاكان لنا أن نذكر مثالا على ذلك فاننا نقول :

انه فى هذه الفترة التى قبل البعثة : كان يتحاكم الى الرسول صلى الله عليه وسلم .

يقول الربيع بن خيثم :

كان يتحاكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجاهليـــــة قبل الاسلام ثم اختص فى الاسلام (١)

ومن الأمثلة المشهورة على ذلك الاحتكام اليه بشأن وضع الحجـــر الأسعد .

يقول البيهقى :

" أخبرنا أبونصربن قتادة قال : حدثنا أبوالحسن السراج قـــال : حدثنا أبوشعيب الحرانى ،قال : حدثنا دلودبن عمرو قال : حدثنـــا

---

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم وسننه الشريفة ص٧٠

أبوالأحوص : سلام بن سليم عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه بمعناه زاد :

قال : فمر عليه الدهر فانهدم فبنته العمالقة ،

قال : فمر عليه الدهر ،فانهدم فبنته جرهم ،فمر عليه الدهر فبنته قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ شاب ،فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه ،فقالوا :

يحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة ،فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ،أول من خرج عليهم فقضى بينهم أن يجعلوه في مرط، ثم ترفعه جميع القبائل كلهم (١)

ويذكر بن كثير رواية تزيد عن الرواية السابقة بما يفصل ويوسع لنا في أمانة الرسول صلى الله عليه وسلم في المجتمع القرشي،

يقول ابن كثير :

قال يعقوب بن سفيان : أخبرني أصبغ بن فرج ،أخبرني ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب ،قال :

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلم (٢) جمعت امرأة الكعبة فطارت شرارة من مجمرها في ثياب الكعبة ،فاحترقت فهدموها حتى اذا بنوها فبلغوا موضع الركن اختصمت قريش في الركن :

أي القبائل تلي رفعه .

---

(١) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي تحقيق السيد أحمد صقر وقد قال في الهامش : أخرجه أبوالوليد الأزرقي في أخبار مكة تاما والحاكم في المستدرك تاما وصححه وأقره الذهبي والسيوطي في الدرالمنثور .

(٢) المشهور أن هذا كان ورسول الله صلى الله عليه وسلم في سن الخامسة والثلاثين ولعله يقصد بعد أن كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقالوا : تعالوا نحكم أول من يطلع علينا فطلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وهو غلام عليه وشاح ،فحكموه فأمر بالركن فوضع فى ثوب ،ثم اختار سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب ،ثم ارتقى هو فرفعوا اليه الركن ،فكان هو يضعه .

فكان لايزداد على السن الا رضى حتى دعوه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحى فطفقوا لاينحرون جزورا الا التمسوه فيدعوالهم فيها (١) .

لقد دعوه الأمين حتى قبل أن ينزل عليه الوحى فكان توفيقا من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ويكفينا القول فى هذا ،

فكان لايزداد على السن الا رضى حتى دعوه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحى فطفقوا لاينحرون جزورا الا التمسوه فيدعو لهم فيها .

---

(١) يقول ابن كثير : هذا سياق حسن وهو من سير الزهرى وفيه من الغرابة قوله : فلما بلغ الحلم والمشهور أن هذا كان ورسول الله صلى الله عليه وسلم عمره خمس وثلاثون سنة وهو الذى نص عليه محمد ابن اسحاق بن يسار رحمه الله وقال موسى بن عقبة كان بناء الكعبة قبل المبعث بخمس عشرة سنة ،وهكذا قال مجاهد وعروة ومحمد بن جبير بن مطعم وغيرهم . السيرة النبوية لابن كثير جـ ١ ص ٢٧٤ وينظر فى دلائل النبوة للبيهقى ص ٤٠٨ جـ ١

" من مظاهر هدايته صلى الله عليه وسلم :

" التحنث "

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها :

أول مابدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ،فكان لايرى رؤيا الاجاءت مثل فلق الصبح ،ثم حبب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى إهله ،ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . (١)

لقد دلتنا السيدة عائشة رضوان الله عليها على ملامح من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بينت لنا فيها أول مابينت أن الرسول صلى الله عليه وسلم ،كانت له من الرؤى الصالحة قبل نزول الوحى عليه بالرسالة ، فما من رؤيا منها الاجاءت مثل فلق الصبح ، وهذا يبين لنا مقدار عناية الله سبحانه وتعالى برسوله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، وأنه كان قريبا منه يحوطه بالتربية الالهية ويعصمه من الوقوع فى مزالق الخطأ ويعطيه من البشارات مايدل على قرب نبوته مما يظهره عليه من مظاهر الخصوصية صلى الله عليه وسلم ، ويدلنا على ذلك مارواه مسلم ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ،حدثنا يحيى بن أبى بكير عن ابراهيم بن طهمان حدثنى سماك بن حرب بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" انى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث انى لأعرفه الآن " (٢)

---

(١) حديث البخارى عن يحيى بن بكير قال : حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين فى باب بدء الوحى .

(٢) صحيح مسلم كتاب الفضائل حديث رقم ٢٢٧٧

يقول ابن هشام :

قال ابن اسحاق : وحدثنى عبدالملك بن عبيد الله بن أبى سفيان بن العلاء بن جارية الثقفى وكان داعية عن أهل العلم :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته ،وابتدأ بالنبوة كان اذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويقضى الى شعاب مكة وبطون أوديتها فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر الا قال :

" السلام عليك يا رسول الله "

قال : فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى الا الشجر والحجارة ،فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ماشاء الله أن يمكث ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء فى شهر رمضان (١)

تدلنا هذه الروايات على أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،كانت تحدث له أمور خارقة للعادة قبل بعثته ،تدل على مدى العناية الالهية به ،وتقرب منه أمر النبوة ومايحدث فيها من المعجزات وخوارق العادات فاننا فى حديث : كيف كان بدء الوحى ؟ نرى مدى ماروع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزول الوحى عليه فى أول مرة ، فكيف لو لم يتلقى أى بشارات فى الرؤى التى تجىء مثل فلق الصبح ،أو رأى خوارق العادات التى تؤهله ، وتقرب منه أمر المعجزات الالهية واذا كان بعض الناس ينكرون هذا الأمر فاننا لانرى مانعا يمنع حدوثه لشخص هو خاتم النبيين ، ومالآيات التى جرت على يد سيدنا عيسى عليه السلام ببعيد ،وقد ذكرت فى القرآن فكيف بمن

---

(١) سيرة ابن هشام صـ ٢٣٤ ـ صـ ٢٣٥

وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه رحمة للعالمين ،

يقول الحافظ ابن حجر فى تعليقه على الرؤى التى رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" بدئ بذلك ليكون تمهيدا وتوطئة لليقظة ،ثم مهد له فى اليقظة أيضا رؤية الضوء وسماع الصوت وسلام الحجر "(١) .

ثم الأمر الثانى : الذى نأخذه من حديث السيدة عائشة رضوان الله عليها أنه كان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ،وهو التعبد الليالى ذوات العدد .

لقد كان التحنث نتيجة للرؤى التى تجئ مثل فلق الصبح ،وفى ذلك يقول القسطلانى :

فان قلت أمر الغار قبل الرسالة فلا حكم ،أجيب بأنه أول مابدئ به عليه الصلاة والسلام ، من الوحى الرؤيا الصالحة ،ثم حبب اليه الخلاء ،فكان يخلو بغار حراء ، كما مر فدل على أن الخلوة حكم مرتب على الوحى ،لأن كلمة : " ثم " للترتيب "(٢) .

لقد رباه الله سبحانه وتعالى فكان التحنث نتيجة لذلك ،ولم يكن شيئا مألوفا فى القوم .

ولكن ماذا كانت طريقة تحنثه ومعتقده فى ذلك ؟

يقول الله تعالى :

" ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وماكان من المشركين "(٣) .

---

(١) فتح البارى جـ ١ صـ ٢٥

(٢) شهاب الدين القسطلانى ارشاد السارى الى شرح صحيح البخارى جـ ١ صـ ٦٢

(٣) النحل آية ١٢٣

يقول الألوسى فى شرحها :

وأكثر المفسرين على أن المراد بها هنا أصول الشرائع (١)

ويقول الطبرى :

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ثم أوحينا اليك يا محمد وقلنا لك : اتبع ملة ابراهيم الحنيفية المسلمة حنيفا : يقول : مسلما على الدين الذى كان عليه ابراهيم بريئا من الأوثان والأنداد التى يعبدها قومك كما كان ابراهيم تبرأ منها (٢)

فاذا كان الله سبحانه يأمره فى القرآن وصدالوحى باتباع ملة ابراهيم عليه السلام وذلك فى العقيدة وأصل الدين فلا يوجد فى نظرنا أى داع لكثير من التأويلات التى تذكر عن تحنث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمكن الاستدلال بهذه الآية على أن تحنث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ملة ابراهيم عليه السلام ونشارك فى ذلك رأى الحافظ بن حجر حيث يقول :

" قوله فيتحنث هى بمعنى يتحنف أى يتبع الحنيفية " (٣)

وقوله حبب : لم يسم فاعله لعدم تحقق الباعث على ذلك وان كان كل من عند الله أولينبه على أنه لم يكن من بواعث البشر أويكون ذلك من وحى الالهام

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٤ صـ ٢٥١

(٢) تفسير الطبرى جـ ١٤ صـ ١٩٣

(٣) فتح البارى جـ ١ ص ٢٥

الفصـــــــل الثالـــث

" شبه على دليـــل الرسالة وهو القرآن والـــرد عليهـــــا "

بعد أن تحدثنا فى الفصلين الأول والثانى عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ،قبل البعثة ـ لما أن لحياة الرسل قبل البعثة من أهمية فى الدلالة على بعثتهم ـ نأتى فى هذا الفصل لنتحدث عن شبه المشركين على دليل رسالته بعد البعثة ،وهو القرآن الكريم ،كما وردت فى سورة الفرقان ، فقد ذكرت السورة ثلاث شبه هى :

١ = قول المشركين عن القرآن انه افك افتراه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأعانه عليه قوم آخرون .

٢ = قولهم انه أساطير الأولين ،اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا .

٣ = قولهم : لولانزل عليه القرآن جملة واحدة ،تلميحا بذلك الى أن نزوله مفرقا لايخلو من شبهة الصفة البشرية ،

كل هذا الافك والافتراء الذى يفتريه المشركون مما يحتاج الى الرد ، وبيان كذب قولهم ،وتهافته ،بالأدلة العقلية والنقلية ،

١ ـ الشبهة الأولى :

" وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا " ،

القائلون هذا القول : هم المشركون من قريش ،وقد ذكرت بعض الروايات أنهم :

النضر بن الحرث ،وعبدالله بن أمية ،ونوفل بن خويلد (١)

يقصد المشركون بذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم ،اختلق القرآن اختلاقا ،وألفه من عنده ،وأعانه فى ذلك بعض الناس ،وأن الرسول صلى الله عليه

---

(١) تفسير روح المعانى للامام الألوسى جـ ١٨ صـ ٢٣٤

وسلم كذب فى اضافته الى الله تعالى ،وكذب فيما جاء به ،ومعاذ الله أن يكون ذلك ،

يقول الفخر الرازى قال أبومسلم :

والافتراء افتعال من فريت ،وقد يقال فى تقدير الأديم فريت الأديم ، فاذا أريد قطع الافساد قيل أفريت وافتريت ، ،وخلقت واختلقت ،ويقال فيمن شتم امرئ بما ليس فيه افترى عليه (١) .

أما من الذى اعانه على هذا القول فى نظر المشركين؟

يقول الفخر الرازى — نقلا عن الكلبى ومقاتل —

نزلت فى النضر بن الحرث ،فهو الذى قال هذا القول ؛

" وأعانه عليه قوم آخرون " يعنى عداس مولى حويطب بن عبد العزى ، ويسار غلام عامر بن الحضرى ،وجبر مولى عامر ، وهؤلاء الثلاثة ،كانوا من أهل الكتاب ،وكانوا يقرأون التوراة ،ويحدثون أحاديث منها : فلما أسلما وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتعهدهم فمن أجل ذلك قال النضر ما قال (٢)

وقد رد الله سبحانه وتعالى قولهم هذا بأبلغ رد بقوله سبحانه :

" فقد جاءوا ظلما وزورا " ،

والواقع أن ظلم المشركين وزورهم ثابت فى كثير من الأوجه ،نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ = ان القرآن بلغ من الاعجاز اللغوى مايعجز عن الاتيان بمثله بشر ، بل ومايعجز عن الاتيان بعشر سور من مثله ،بل وآية من مثله بشر أيضا ، فكيف يستطيع افتراءه رجل أمى لم يتعلم ولم يقرأ ولم يكتب ؟

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٤٤٨

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٤٤٨ ،وراجع أيضا الألوسى جـ ١٨ صـ ٣٤

٢ = فاذا كان هذا حال صاحب الشأن نفسه ،فما بالك بمعاونيه وهم من أهل الكتاب ولسانهم أعجمى لايستطيعون بلوغ جزئية بسيطة من هـذا الاعجاز اللغوى ؟ ويكفى قوله تعالى :

" لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين "(١)

٣ = انه لم يثبت ثبوتا مؤكدا كون هؤلاء الناس الذين ذكر أسماءهم النضر بن الحرث ،هم الذين أعانوا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ،كما قال بذلك المشركون ، يقول الله تعالى فى سورة الرعد :

" قل سموهم ،أم تنبئونه بما لايعلم فى الأرض أم بظاهر من القول "(٢)

لقد اختلقوا هذه الأسماء وجاءوا ظلما وزورا ،

بل انهم فى بعض الأحيان يقولون : " انما يعلمه بشر "(٣) ،ولم يستطيعوا اثبات من هو هذا البشر ؟ ،

٤ = ان المكيين المشركين وهم فرسان البلاغة وأمراء البيان لـم يستطيعوا الاتيان بسورة كمثل أصغر سورة فى القرآن ،فكيف يستطيع ذلك بعض الموالى ،والعمال من الدهماء فى مكة ؟

٥ = ان حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ـ وقد سبق ذكرها ـ تدل دلالة واضحة على كونه صلى الله عليه وسلم ، كان صادقـا أمينا عندهم ،ويكفى أنهم لقبوه بالأمين ،وكانوا يحكمونه فيما يشجر بينهم من الخلاف ،فكيف لهم بعد ذلك أن يتهموه بأن ماجاء به افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ؟ :

" أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون "(٤)

---

(١) سورة النحل الآية ١٠٣ (٢) سورة الرعد الآية ٣٣

(٣) سورة النحل الآية ١٠٣ (٤) سورة المؤمنون الآية ٦٩

٦ = ان الذين لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب بعد النبوة كانوا له سائلين ، وكان هو المعلم لهم ، والشارح والموضح .

وأما الذين لقيهم قبل النبوة مثل بحيرى الراهب فقد وضحنا من قبل موقفنا هذا اللقاء ، وبينا كذب الحجج التى ادعيت من المستشرقين بما يتفق مع الرد على المشركين .

٧ = ان القرآن الكريم فى كثير من آياته يبين الانحراف الذى وصلت اليه الديانتان : اليهودية والمسيحية مما يمنع — على وجه اليقين — أن الرسول صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن من أهل الكتاب عرى ذلك فى قوله تعالى :

" ياأهل الكتاب لما تحاجون فى ابراهيم وماأنزلت التوراة والانجيل الا من بعده ؟ أفلا تعقلون "(١)

" أم تقولون : ان ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أونصارى ؟ "(٢)

" وقالت اليهود : عزير بن الله ، وقالت : النصارى المسيح ابن الله "(٣)

" وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه " ،

" ولقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم " ،

" لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة "

" قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولانشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله "(٥)

" يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا "(٦)

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٥ (٢) سورة البقرة الآية ١٤٠
(٣) سورة التوبة الآية ٣٠ (٤) سورة المائدة الآيات : ١٨ و ٧٢ و ٧٣
(٥) آل عمران الآية ٦٤ (٦) سورة البقرة الآية ٧٩

" يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ،وتكتمون الحق وأنتم تعلمون "(١)

٨ = ان الرسول صلى الله عليه وسلم ،لوكان هوالذى افترى القرآن ، واختلقه ـ كما يدعى ذلك المشركون ـ لما ترك المنافقين يدعون كثيرا من الأكاذيب في حديث الافك ولاتخذ فى ذلك قرارا سريعا ، ليمنع هذه الأقاويل ،ومع ذلك مضى عليه شهر بأكمله حتى نزل عليه وحى في ذلك .

٩ = في بعض الأحيان كان ينزل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وحى يراجعه فى بعض المواقف التى كان قد سبق اتخاذها وينهاه عن فعلها :

" عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين "(٢)

" ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتي يثخن فى الأرض ،تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ،لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم "(٣)

فلوكان الرسول صلى الله عليه وسلم ،هو الذى اختلق القرآن لما عاتب نفسه هذا العتاب ،ولما راجع نفسه مرة أخرى .

١٠ = ان القرآن كان ينزل على حسب الوقائع ،فهل كان الرسول صلى الله عليه وسلم والذين أعانوه ـ كايدعى ذلك المشركون ـ كانوا يعلمون هذه الوقائع قبل حدوثها ؟

١١ = كان الوحى يأتى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ببعض الأمور التى يصعب فهمها عليه بعض الشيء ،فهل لوكان هو الذى اختلق القرآن

---

(١) آل عمران آية ٧١ (٢) سورة التوبة الآية ٤٣
(٣) سورة الأنفال الآية ٦٧ ومابعدها .

كان سيأتى ببعض ما يصعب فهمه عليه كما حدث من قوله تعالى :

" وان تبدوا ما فى أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله "

وأيضا كما حدث فى صلح الحديبية :

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز :

" لقد وجدوا أنفسهم مضطرين أن يلتمسوا شخصا يتحقق فيه شرطان :

أحدهما : أن يكون من سكان مكة نفسها لترفع عنهم دعوى أنه يلاقيه ويملى عليه بكرة وأصيلا

وثانيهما : أن يكون من غير جلدتهم وملتهم ليمكن أن يقال : ان عنده علم مالم يعلموا ، وقد التمسوا هذه الأوصاف فوجدوها أتدرى أين وجدوها ؟ فى حداد رومى !!

نعم وجدوا فى مكة غلاما تمرنه الحوانيت والأسواق ،ولاتمرنه تلك العلوم فى قليل ولا كثير ، غير أنه لم يكن أميا ولا وثنيا مثلهم بل كان نصرانيا يقرأ ويكتب ،فكان من أجل ذلك خليقا فى زعمهم أن يكون أستاذا لمحمد ،وبالتالى أستاذا لعلماء اليهود والنصارى ،والعالم أجمعين " :

" ولئن سألتهم هل كان ذلك الغلام فارغا لدراسة الكتب ،وتمحيص أصيلها من دخيلها ،ورد متشابهها الى محكمها ، وهل كان مزودا فى عقله ولسانه بوسائل الفهم والتفهيم لعرفت أنه كان حدادا منهمكا فى مطرقته وسنداته وأنه كان على الفؤاد لايعلم الكتاب الا أمانى أعجمى اللسان لاتعدو قراءته أن تكون رطانة لايعرفها محمد ولا أحد من قومه ،لكن ذلك كله لم يكن ليحول بينه وبين لقب الأستاذية الذى منحوه اياه على رغم أنف الحاسدين !!

هكذا ضاقت بهم دائرة الجد فما وسعهم الاقضاء الهزل ،

وهكذا أمعنوا فى هزلهم حتى خرجوا عن وقار العقل ،فكان مثلهم كمثل

من يقول :

ان العلم يستقى من الجهل وان الانسان يتعلم كلامه من البيغاء أوكفى بهذا هزيمة وفضيحة لقائله :

" لسان الذين يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين "

نعم انهم رأوا فى هذا الأسلوب من حلاوة الفكاهة والملحة ما يسيغ مرارة الزور والباطل ، ورأوا فى هذه الصورة الخيالية من التهكم والسخرية ما يشفى صدورهم ، ويجعلهم يتضاحكون بملء أفواههم ، ولكنهم مادروا أن فى طى هذه السخرية سخرية بهم ، وأنهم قد شهدوا فيها على أنفسهم أنهم أجهل الأمم ، وأن كل غريب عنهم — ولوكان غلاما سوقيا — أعلم لأن يقال عنه ان عنده من العلم ما ليس عندهم ،

فيالله من نطق كان ألقى فى موضعه خيرا لهم وأستر عليهم ،

ويالله من سلاح أرادوا أن يجرحوا به خصمهم فجرحوا به أنفسهم من حيث لايشعرون .

أما الحق الذى كانوا يخاصمونه ، فقد والله زادوه بهذا الاتهام قوة الى قوته ، ذلك أنهم حين خرجوا يلتمسون واحدا من البشر يمكن أن ينسب اليه هذا العلم المحمدى لم يستطيعوا أن يفترضوا له مصدرا تعليميا خارج حدود قريته ، بل كان آخر جهد بذلوه من حياتهم ، وآخر سهم رموه من كنانتهم ، أن جاءوا من بين ظهرانيهم بهذا الغلام الذى عرفت خبره ،

فيالليت شعرى لوكان لهذا الغلام أن يكون مرجعا علميا كما أرادوا أن يصفوه ، فما الذى منعهم أن يأخذوا عنه كما أخذ صاحبهم ؟

وبذلك كانوا يستريحون من عنائه ويداوونه من جنس دائه ، بل مامنع ذلك الغلام أن يبدى للعالم صفحته فينال فى التاريخ شرف الأستاذية ، ويتولى بنفسه

تلك القيادة العالمية ؟

ويا ليت شعرى لما لم ينسبوا تلك العلوم الغريبة عنهم الى أهلها الموسومين بها من الربانيين والأحبار فى المدينة أومن القسيسين والرهبان فى الشام أولئك الذين قضوا أعمارهم فى دراستها وتعليمها ؟ أليس ذلك ممكنا أوشبيها بالممكن ؟ كان هو أحسن تلفيقا ،وأجود سبكا ،وأدنى الى الرواج ، وأبعد عن الاحالة من نسبتها الى حداد مكة .(١)

(١) النبأ العظيم الدكتور محمد عبدالله دراز ص٥٦ ـ ٥٧ ـ ٥٨

" الشبهة الثانية والـــرد عليهـــا "

وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيـــلا ؛ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض انه كان غفـــورا رحيما "(١)

كانت ثانى الشبهات التى ادعاها المشركون على رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم ، هو قولهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتتبت له قصص من مضى وحكاياتهم وهى تلقن له فيحفظها من أفواه من يمليهـا عليه لكونه أميا لايستطيع حفظها من الكتب ،وهذه الأساطير تتلى عليه فـــى الأوقات التى يصلح فيها الاستتار ،والتى لايفتقر فيها الناس ،أى أنهـــا تملى عليه فى السر والخفاء(٢) ، ويرد الله سبحانه وتعالى على ادعائهم هـــذا فيقول :

" قل لهم ردا عليهم :

" أنزله الذى أحاط علمه بكل شىء سواء ما خفى منه وما علـــن ومع ذلك فانى غفور رحيم ،فقد استوجبوا العذاب على قولهم هذا ،ولكـــن الله لايعجل عقوبتهم مع ذلك لأجل أن يعرفوا أن هذه الذنوب التى يقترفوها بقولهم هذا يمكن لله سبحانه وتعالى أن يتجاوزها ، ان هم تابوا وأصلحوا بعـــد ذلك(٣) ، على أننا فى ردنا على شبهة المشركين بادعائهم أن القرآن ، انمـــا هو أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، انما ننطلق من الآيات التى يذكرها لنا قوله تعالى :

" قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض "

---

(١) الفرقان آية : ٦ (٢) ينظر فى ذلك تفسير روح المعانى للألوسى جـ٨ص٢٣٦ وتفسير الفخر الرازى جـ٦ ص ٤٤٩ وكذلك ينظر تفسير محاسن التأويل للقاسمى وتفسير البحر المحيط لأبى حيان (٣) ينظر تفسير روح المعانى للامام الألوسى وتفسير الفخر الرازى والقاسمى والبحر المحيط فى تفسير سورة الفرقان .

ان هذه الآية تعبر عن اعجاز القرآن بأن فيه الكفاية ،وأى كفاية للرد على هذه الشبهة ،ودلت على ذلك بأبلغ أسلوب وأوجزه .

يقول الفخر الرازى فى تفسيرها :

فى بيان أن هذا كيف يصلح أن يكون جوابا عن تلك الشبهة ،وتقريره ما قدمنا أنه عليه الصلاة والسلام ،تحداهم بالمعارضة ،وظهر عجزهم عنها ، ولو كان عليه الصلاة والسلام أتى بالقرآن ،بأن استعان بأحد لكان من الواجب عليهم ،أيضا أن يستعينوا بأحد فيأتوا بمثل هذا القرآن ،فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحى الله وكلامه ،فلهذا قال :

" قل أنزله الذى يعلم السر "

وذلك لأن القادر على تركيب ألفاظ القرآن لابد وأن يكون عالما بكل المعلومات ،ظاهرها وخافيها من وجوه :

أحدها : أن مثل هذه الفصاحة لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات ،

ثانيها : ان القرآن مشتمل على الأخبار عن الغيوب ،وذلك لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات ،

وثالثها : ان القرآن مبرأ عن النقص ،وذلك لا يتأتى الا من العالم على ماقال تعالى :

" ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا "(١)

ورابعها : اشتمالة على الأحكام ،التى هى مقتضية لمصالح العالم ، ونظام العباد ،وذلك لايكون الا من العالم بكل المعلومات ،

وخامسها : اشتماله على أنواع العلوم ،وذلك لا يتأتى الا من العالم

---

(١) النساء آية : ٨٢

بكل المعلومات ،فلما دل القرآن ـ من هذه الوجوه ـ على أنه ليس الا كـلام العالم بكل المعلومات ، لاجرم اكتفى فى جواب شبههم بقوله :

" قل أنزله الذى يعلم السر " ،

والبحث الثانى : اختلفوا فى المراد بالسر ،

فمنهم من قال : المعنى أن العالم بكل سر فى السموات والأرض ،هو الذى يمكنه انزال مثل هذا الكتاب ،

وقال أبومسلم : المعنى أنه أنزله من يعلم السر ،فلو كذب عليه لانتقم منه لقوله تعالى :

ولوتقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين (١)

واذاكانت الآية قد عبرت عن ذلك بأبلغ رد وأوجزه فاننا انطلاقا منها نبدأ فى الرد على الشبهة عن طريق بيان بعض اوجه اعجاز القرآن التى سنذكرها كافية للرد على هذه الشبهة وبيان تهافتها .

(١) الفخرالرازى جـ ٦ صـ ٤٥٠ ،والآية رقم ٤٤ ، ٤٥ من سورة الحاقة .

" اعجـــــــاز القـرآن "

عند ما نتحدث عن اعجاز القرآن ، انما نتحدث عنه من وجهة نظر سورة الفرقان التى نفت عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن ماجاء به هو افك افتراه ،وأعانه عليه قوم ،وقولهم انه أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا

نفت السورة الكريمة هذا القول عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،بأنه كيف ـ مع هذا الاعجاز الماثل إمامكم للقرآن الكريم ـ تتهمون الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا البهتان المظيم ،وهذا اللجج الفارغ .

والواقع اننا اذا قسمنا ما استطعنا الوصول اليه من بعض مظاهـــر اعجاز القرآن الكريم ،فاننا نجده يشتمل

أولا : الاعجاز البيانى واللغوى ،حيث ان العرب هم أكثر الناس تفهمـــا لمعنى هذا الاعجاز ،باعتبارهم كانوا من أبلغ الناس ،وأحسنهم فهما للغة العربية ، ومدى مايراد بها ،

ثانيا : الاعجاز فى أمور الغيب التى أخبرنا بها القرآن الكريم سواء الماضيـــة أم المستقبلة ،ويضم الى هذا القسم : اشتماله على العلوم الكونيـــة ، مثل الفلك وغيره من العلوم ،التى لم يكن عصر الرسول صلى الله عليه وسلم قد وصل الى حقائقها النهائية ،وكذلك اشتماله على تشريع ،سواء فـــى العقائد ،أوالأخلاق ،أوالفقه ، ثبت أنها وحدها هى التى تؤدى الى سعادة الانسان على مرالعصور ،

هذا مايمكن تقسيمه من مظاهر الاعجاز القرآنى ،على أن أهم مظهـر من المظاهر هومظهر الاعجاز البيانى للقرآن ،حيث ان العرب الأول لم يهتموا ـ أول اهتمامهم ـ بالقرآن ،ولم يشعروا ،الا سبيل لهم الى تحديه الا عن طريـــق

الاعجاز البيانى له قبل ان يمض الكتاب ـ كالأستاذ محمود شاكر فى مقدمة الكتاب الظاهرة القرآنية للأستاذ مالك بن نبى ـ يرجح أن الاعجاز اللغوى للقرآن ، هو المظهر الوحيد للاعجاز مصحيح أنه معجز فى معانيه ، الا أن المظهر الوحيد للقرآن الذى يطلق عليه اعجاز ، هو الاعجاز اللغوى والبيانى .

على أننا اذ يصعب علينا تعداد كافة وجوه الاعجاز البيانى للقرآن الكريم واستقرائها فاننا نعد منها :

" الاعجاز البياني للقرآن "

فصاحة الألفاظ القرآنية

الواقع أننا اذا تكلمنا عن فصاحة الألفاظ القرآنية ،فكأننا نخوض بحرا لأساحل له ،فان كل كلمة فى القرآن بل وكل حرف تجده يتسق مع المعنى اتساقا تاما فلا تجد كلمة غير موافقة للمعنى الذى وضعت له ،بل هى منطبقة عليه تمام الانطباق ، ولن تجد كلمة تزيد فى الآية التى جاءت لمعنى معين تزيد فى هذه الآية عن المعنى العام ،بل كل كلمة فى الآية متناسقة مع بقية الكلمات لا تشذ عنها فى أى زيادة .

بل ان بعض الألفاظ التى قد نظن بها تكرارا بعض الشىء ، عند ما نتأمل فيها بعض التأمل ،نجد أنها تختلف عن اللفظة التى قد يتبادر الى الذهن ،أول الأمر ، انها تكرار لها بما يقرب المعنى ،أو يوضح الهدف كما نرى ذلك فى (لفظى الحمد والشكر) ،فان الحمد يكون بالقول ،أما الشكر فانه يكون بالقول ،والفعل ،

والحمد ضده الذم ، والشكر ضده الكفران ،

والحمد يكون بمعنى الثناء ،والشكر فى المكافأة يقول الله تعالى :

" عملوا آل داود شكرا "(١) ، ولم يقل حمدا للدلالة على العمل (٢)

ولعل فى التفاسير التى تخرج علينا من حين لآخر من العلماء الأجلاء لأبلغ دليل على قوة الفصاحة فى القرآن الكريم ،فانهم لم يحيطوا بكثير من دلالة فصاحته حتى الآن .

---

(١) سورة سبأ آية ١٣

(٢) ينظر فى هذا رسالة الخطابى فى كتاب ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن تحقيق : الأستاذ محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام .

وقد عرض ابن أبى الاصبع المصرى فى كتابه بديع القرآن الكثير من أوجه الفصاحة فى القرآن الكريم يقول :

" باب الفرائد : وهو مختص بالفصاحة دون البلاغة ،لأنه عبارة عن اتيان المتكلم فى كلامه بلفظة تتنزل " منزلة الفريدة من حب العقد وهى الجوهرة التى لانظير لها ،تدل على عظم فصاحة ، وقوة عارضته وجزالة منطقه ،واصالة عربية ، بحيث تكون هذه اللفظة ،اذا سقطت من الكلام عزت على الفصحاء غرابتها ،فقد جاء من ذلك فى الكتاب العزيز غرائب لايقع مثلها لمخلوق ،وهى من الكثرة فى القرآن بحيث يعسر حصرها ومنها قوله تعالى :

" الآن حصحص الحق "(١)

وقوله سبحانه : " فلما استيأسوا منه خلصوانجيا "(٢)

وأفصحها قوله سبحانه : خلصو نجيا ،

وقل بأن تجتمع الفصاحة والبلاغة فى جملة من هذا الباب الا فى هذه الجملة ، فان هاتين اللفظتين تضمنتا مع الفصاحة الايجاز ، وهو أعلى ضروب البلاغة ،

ولقد رأيت بعض الشعراء المحدثين ضمنها شعرا له فأتى له من الوقع فى النفوس ، مالاتطيق الألسن الفصيحة أن تعبر عنه ، وان كان كل شعر ضمن شيئا من لفظ القرآن ،فهو كذلك ،ولا مش الشعر الذى يتضمن أفصح ألفاظه فقال هذا الشاعر :

أجبرتنا بالفور كيف خلصتم نجيا وأخفيتم حديثكم عنى

لقد سمعت أذناى نجوى فراقكم فلا أبصرت عيناى ماسمعت أذني

---

(١) يوسف من الآية ٥١ (٢) من الآية رقم ٨٠ من سورة يوسف

فتأمل هذا الشعر الذى يجد اللبيب لسماعه نشوة كنشوة الخمر ،وماذاك الا لأنه ألقى على شبه ألفاظه اكسيرا من لفظة القرآن،فصار ذلك الشبه تبراخالصا ،ومن باطله بحفة

فتجلى عن الصدق وللصدق رونق ،ومن هذا الباب فى الكتاب العزيز قوله تعالى :

" حتى اذا فزع عن قلوبهم "(١) ،فانظر الى لفظة " فزع " وتأمل غرابة فصاحتها لتعلم أن الفكر لايكاد يقع عليها ،

وكقوله : تبارك وتعالى : :

فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين "(٢)

فألمح هذه الألفاظ تجدها كلها فى الطبقة العليا من الفصاحة :

وكقوله تعالى :

يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور "(٣)

وهذه الفريدة أعجب من كل ما تقدم فلفظة " خائنة " بمفردها سهلة مستعملة كثيرة الجريان على الألسن ،فلما أضيفت الى الأعين حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها فى النفوس هذا الوقع ، بحيث لا يستطيع الاتيان بمثلها ،ولايكاد يقع ذو فكر سليم ،وذهن مستقيم ،على شبهها وأشباه ذلك فى الكتاب العزيز لاتدخل تحت الحصر .(٤)

---

(١) من الآية : ٢٣ من سبأ

(٢) من الآية : ١٧٧ من سورة الصافات ،

(٣) الآية : ١٩ من سورة غافر

(٤) بديع القرآن لابن أبى الاصبع المصرى

" الاعجاز القرآنى فى الأسلوب "

يعتبر الأسلوب وجها آخر من أوجه الاعجاز القرآنى ،صحيح أن القرآن بفصاحة ألفاظه يبلغ الاعجاز من الناحية اللفظية ،الا أن الأسلوب أيضا ومجرى الكلام يبلغان فى القرآن نفس الدرجة من الاعجاز ،بل نستطيع أن نقول أيضا : انهما يكملان بعضهما البعض ،فان روعة الألفاظ وجمالها دون أسلوب يتكامل معها قد لايكون لها دلالة واضحة ،على أننا لانجد فى القرآن هذا التناقض ، وهذا سر الاعجاز من ناحية الأسلوب الذى يدل دلالة واضحة على كون القرآن من لدن الله سبحانه وتعالى ، فان كلام البشر قد يضطرب فى مجاريه ،ويختل فى معانيه ،ويتفاوت فى طرقه ،

وهذا لايوجد فى القرآن .

ويقول الامام الباقلانى :

ونظم القرآن فى مؤتلفه ومختلفه ،وفى فصله ووصله ،وافتتاحه واختتامه ،وفى كل نهج يسلكه ،وطريق يأخذ فيه ،وباب يتهجم عليه ، ووجه يؤمه على ماوصفه الله تعالى به ،لايتفاوت .

كما قال :

" ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا "(١)

ولايخرج عن تشابهه وتماثله ،كماقال :

" قرآنا عربيا غير ذى عوج "(٢)

وكما قال :

" كتابا متشابها "(٣)

---

(١) النساء آية : ٨٢ (٢) الزمر من الآية ٢٨

(٣) الزمر من الآية : ٢٣

ولايخرج عن ابانته كما قال :

" بلسان عربي مبين "(١)

واعلم أن هذا علم شريف المحل ،عظيم المكان ،قليل الطلاب ، ضعيف الأصحاب ،ليست له عشيرة تحميه ،ولا أهل بيت ، عصمة تقطن لما فيه ، وهو أدق من السحر ،وأهول من البحر ، وكيف لايكون كذلك وأنت تحسب أن وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام ،الا أن يكون شعراأوسجعا ،

وليس كذلك فان احدى اللفظتين قد تنفرد في موضع ، وتنزل عن مكان لاتنزل فيه اللفظة الأخرى ،بل تتمكن فيه ،وتضرب بجرانها وتراها في مظانها ، وتجدها في غير منازعة في أوطانها ، وتجد الأخرى لووضعت في موضعها لكانت في محل نفار ومرعى شرار ونابية عن استقرار .(٢)

وقد عرض لنا ابن أبي الاصبع المصري نموذجا من الاعجاز في الأسلوب القرآني ، يظهر لنا مدى تفوق الأسلوب القرآني على أسلوب البشر ، وعدم قدرتهم على الاتيان بمايشابهه ، يقول :

" وما رأيت ولارويت في الكلام المنثور ،والشعر الموزون كآية من كتاب الله تعالى ، استخرجت منها أحدا وعشرين ضربا من البديع ،وعددها سبع عشرة لفظة ،وهي قوله تعالى :

" وقيل ياأرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ،وغيض الماء ، وقضي الأمر ،واستوت على الجودي ،وقيل بعدا للقوم الظالمين "(٣)

وتفصيل ماجاء فيها من البديع : المناسبة التامة في : ابلعي ، واقلعي ، والمطابقة اللفظية للسماء والأرض ،والاستعارة في قوله ابلعي

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني صـ ٢٠٥ـ صـ ٢٠٦ ،والآية رقم ١٩٥ من الشعراء
(٢) اعجاز القرآن للباقلاني صـ ٢٨٠
(٣) هود آية : ٤٤

واقلعي ،للأرض والسماء ، والمجاز في قوله :

" ياسماء " ، فان الحقيقة وبلا مطر السماء أقلعي ،والاشارة في قوله " وغيض الماء " فانه سبحانه وتعالى عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة ،لأن الماء لايغيض حتى يقلع مطر السماء ، وتبلع الأرض مايخرج من عين الماء ، فينقص الحاصل على وجه الأرض من الماء والارداف في قوله :

" واستوت على الجودي " ، فانه عبر عن استقرار السفينة على هذا المكان وجلوسها جلوسا متمكنا لا زيغ فيه ولاميل ،لطمأنينة أهل السفينة بلفظ قريب من لفظ الحقيقة ،والتمثيل في قوله : " وقضي الأمر " فانه عبر بذلك عن هلاك الهالكين ،ونجاة الناجين ،بلفظ فيه بعد ما من لفظ الحقيقة بالنسبة الى لفظ الارداف ،والتعليل ،لأن غيض الماء علة الاستواء ،وصحة التقسيم ، حين استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه ،اذ ليس الا احتباس ماء السماء ،واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض، وغيض الماء الحاصل على ظهر الأرض ،والاحتراس في قوله :

" وقيل بعدا للقوم الظالمين " محترسا من توهم من يتوهم أن الهلاك ربما عم من لايستحق الهلاك ،فجاء سبحانه بالدعاء على الهالكين ،ليعلم أنهم مستحقوا الهلاك ،فان عدله منع أن يدعو على غير مستحق للدعاء عليه ،ولانفصال فان لقائل أن يقول : ان لفظة القوم مستغنى عنها ،فانه لوقيل : " وقيل بعدا للظالمين " أتم الكلام قبل الآية ،

قوله تعالى :

" وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه "(١)

---

(١) هود آية : ٣٨

وقال سبحانه قيل ذلك مخاطبا لنوح عليه السلام :

" ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون "(١)

فاقتضت البلاغة أن يؤتى بلفظة القوم التى آلة التعريف فيها للعهد ،ليتبين أنهم القوم الذين تقدم ذكرهم ،فى قوله تعالى :

" وكلما مر عليه ملأ من قومه "

ووصفهم بالظلم وأخبر بسابق علمه أنهم هالكون بقوله : ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون "

فحصل الانفصال عن الاشكال ،وعلم أن لفظة القوم ليست فضلة فى الكلام .

والمساواة : لأن لفظ الآية لايزيد على معناه ولاينقص عنه ، وحسن النسق فى عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولا بأول فانه سبحانه أمر الأرض بالابتلاع ،ثم عطف على ذلك أمر السماء بالاقلاع ،ثم عطف غيض الماء على ذلك ،ثم عطف على ذلك قضاء الأمر بهلاك الهالكين ،ونجاة الناجين ،ثم عطف على ذلك استواء السفينة على الجودى ،ثم عطف على ذلك الدعاء على الهالكين فجاء عطف هذه الجمل على ترتيب وقوعها فى الوجود ،وائتلاف اللفظ مع المعنى لكون كل لفظة لايصلح فى موضعها غيرها ،

والايجاز لأنه سبحانه اقتص القصة بلفظها مستوعبة بحيث لم يخل منها بشىء فى أخصر عبارة ،بألفاظ غير مطولة والتسهيم ،لأن من أول الآية الى قوله تعالى : " اغلمى " يقتضى آخرها

---

(١) هود آية : ٣٧

والتذهيب : لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن ،كل لفظة سهلة مخارج الحروف عليها رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة ، والتركيب سليم من التعقيد وأسبابه ،

وحسن البيان من جهة أن السامع لايتوقف في فهم معنى الكلام ،ولا يشكل عليه شيء منه ،والتمكين لأن المفاصلة مستقرة في قرارها ، مطمئنة في مكانها غير قلقة ولامستدعاة والانسجام وهو تحدر الكلام بسهولة وعذوبة مع سيك ج جزالة لفظ كما ينسجم الماء القليل من الهواء ،ومافي مجموع ألفاظ الآية من الابداع ،وهو الذي سمى به هذا الباب ،اذ في كل لفظة بديع وبديعان ،لأنها كما تقدم سبع عشرة لفظة ،وتضمنت أحدا وعشرين ضربا من البلاغة ،سوى مايتعدد من ضروبها ،فان الاستعارة وقعت في موضعين :

" وهما الابتلاع والاقلاع "

فانظر رحمك الله الى عظمة هذا الكلام ،وماانطوى عليه نظمه ، وما تضمنه لفظه لتقدره قدره ،وهذا ماظهر لي منه على ضعف نظري ،وقلة مادتي من العلوم ،وكلال ذهني ،والله أعلم .(١)

والواقع أننا بذكرنا هذين الوجهين البيانيين من أوجه الاعجاز البياني للقرآن ، نكون قد وصلنا الى نوعين من الثلاثة أنواع التي يقوم بها الكلام ،كما قال الخطابي ،وانما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة

لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم (٢)

فاننا ذكرنا بعض نماذج من الاعجاز في الألفاظ وفي الأسلوب ويبقى المعنى الذي هو قائم ،والواقع أن الكلام على اعجاز القرآن البياني

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الاصبع المصري صـ ٣٤٠
(٢) بيان اعجاز القرآن للخطابي صـ ٢٤

طويل ولم نحظ بحديثنا عنه الا بقطرة من بحر ،وفى ختام هذاالحديث لايسعنا الا أن نذكر قول الخطابى :

" وانما تعذر على البشر الاتيان بمثله لأمور :

منها أن علمهم لايحيط بجميع أسماء اللغة العربية ،وبألفاظها التى هى ظروف المعانى والحوامل ،ولاتدرك أفهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة فى ذلك ،ولاتكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التى بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها ،الى أن يأتوا بكلام مثله ،وانما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم .

واذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة ،حتى لاترى شيئا من الألفاظ أفصح ،ولا أجزل ،ولا أعذب ، من ألفاظه ،ولاترى نظما أحسن تأليفا ،وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه .

وأن المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها والترقى الى أعلى درجات الفضل من نموتها وصفاتها ،

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة فى نوع واحد منه فلم توجد الا فى كلام العليم القدير الذى أحاط بكل شىء علما ،وأحصى كل شىء عددا (١)

واذا كنا قد تكلمنا عن الألفاظ والأسلوب فيما قبل فان موضوعنا الآتى هو عن القسم الثانى من اعجاز القرآن وهو المعانى .

---

(١) بيان اعجاز القرآن للخطابى ص ٢٤

تظهر بوضوح فيما يأتي :

١ = ان القرآن يتحدى في أكثر من مكان منه ،على أن يأتي أحد بمثل ما أتى ،ويقول الله سبحانه وتعالى :

" قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هـــذا القرآن لايأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا "(١)

يقول الامام الزركشي في دلالة هذه الآية :

فانه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ولوسلبوا القدرة لم يبـق فائدة لاجتماعهم ،لمنزلته منزلة اجتماع الموتى ،وليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره هذا ، مع أن الاجماع منعقد على اضافة الاعجاز الى القرآن ،فكيف يكون المعجز غيره ،ليس فيه صفة اعجاز ،بل المعجز هو الله تعالـــى، حيث سلبهم قدرتهم عن الاتيان بمثله .(٢)

ويمكننا أن نضيف الى هذه الآية الآيات التالية ،التي توضح لنا بالاضافة الى ماسبق مقدار قيمة القرآن الكريم ،عند الله سبحانه وتعالـــى وأنه لايجوز لنا وضع القرآن الكريم موضع الكلام العادي الذي يتأتى معارضتـــه لولا صرف الله سبحانه وتعالى الناس عن ذلك ،فان الوضع الصحيح للقـرآن الكريم كما تبينه لنا الآيات التالية ، هو أنه عجز في ذاته ،ولايستطيع أحـــد معارضته لعجز البشر عن بلوغ هذا السمو في التعبير وفي المعاني ،

يقول الله تعالى :

" ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أوقطعت به الأرض أوكلـــم به الموتى بل لله الأمر جميعا "(٣)

---

(١) سورة الاسراء آية ١٨٨

(٢) البرهان في علوم القرآن جـ ٢ صـ ٩٤ تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم

(٣) الرعد آية : ٣١

يقول تعالى :

" الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد "(١)

" قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القـــرآن لا يأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا "(٢)

٢ = يقول القاضي أبوبكر الباقلاني :

" ومما يبطل القول بالصرفة ،أنه لوكانت المعارضة ممكنة ،وانمـــا منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا وانما يكون المنع معجزا ،فلا يتضمن الكلام فضلا على غيره في نفسه .

وليس هذا بأعجب مما ذهب اليه فريق منهم ،أن الكل قادرون علـــى الاتيان بمثله ،وانما تأخروا عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لوتعلموه لوصلوا اليه ، ولا بأعجب من قول فريق منهم :

انه لافرق بين كلام البشر وكلام الله في هذا الباب ،وانما يصح من كل واحد منهما الاعجاز على حد واحد "(٣) .

٣ = أن المأثور عن العرب من شعر أونثر لايكاد يقارب القرآن علـــى الاطلاق ،فاذا جاز لنا القول بالصرفة ،فكيف يجوز لنا تشبيه ما لايماثل القرآن بالقرآن ،

ولوكان العرب يستطيعون ذلك لفعلوا وهم لهم أصولهم اللغويـــة

---

(١) الزمر ٢٣ (٢) سورة الاسراء آية ٨٨

(٣) ينظر في ذلك اعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني ص ٤٣ وص ٤٤ وكتـــاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي .

الكاملة فيهم ،ولهم باع طويل في ممارسة الشعر وقول النثر .

يقول أبوبكر الباقلاني في كتابه اعجاز القرآن :

" لوكانوا صرفوا على ماادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة ،وحسن النظم ، وعجيب التأليف ،لأنهم لم يتحدوا به ولم تلزمهم حجته ، فاذ لم يوجد في كلام قبله مثله علم أن ماادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان (١)

٤ = ان القول بالصرفة : لايختلف عن قول الله سبحانه وتعالى في شأن الوليد بن المغيرة

ذرني ومن خلقت وحيدا ،وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا ،ثم يطمع أن أزيد ،كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، انه فكر وقدر ،فقتل كيف قدر ،ثم قتل كيف قدر ،ثم نظر ، ثم عبس ، وبسر ،ثم أدبر واستكبر ، فقال : ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر (٢)

فان القول بالصرفة يدل على الاعجاز بشيء غير الذي المراد اعجازه ، وكذلك الأمر في السحر ،فهو يقيدهم عن الاتيان بمثله .

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه الممتاز اعجاز القرآن :

وعلى الجملة ،فان القول بالصرفة لايختلف عن قول العرب ، " ان هذا الا سحر يؤثر " ، وهذا زعم رده الله تعالى على أهله ،وأكذبهم فيه ، وجعل القول فيه ضربا من العبث ،

" أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون " (٣)

---

(١) اعجاز القرآن للقاضي أبوبكر الباقلاني

(٢) المدثر ١١ ــ ٢٥ (٣) الطور : ١٥

وفى تقديرنا أن أول ظهور القول بالصرفة كان فى العصر العباسى على يد النظام ،نتيجة للمؤثرات الأجنبية ،التى جاءت من ترجمة الكتب الأجنبية ،والاهتمام بدراستها وتدريسها ،مما أدى الى ظهور هذه العقيدة التى تقارب العقيدة الهندية فى نظرتها ،الى كتبها المقدسة ،فان فكرة القول بالصرفة هى أبعد ما تكون عن الجو الاسلامى ،فان المعتمد عند جمهرة علماء المسلمين منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى ذلك العصر ،هو القول بالاعجاز الذاتى للقرآن ،فظهور فكرة القول بالصرفة ،هذا الظهور المفاجىء يدلنا دلالة واضحة على اعتمادها على مؤثرات أجنبية هى فى تقديرنا تقارب نظرة الهنود الى كتبهم المقدسة ، ونشارك فى ذلك الرأى الشيخ محمد أبوزهرة حيث يقول :

" عرف العرب أنهم عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ،وعللوا عجزهم بما استرعاهم مافيه من حلاوة اللفظ ،وطلاوة المعنى ، والتركيب وعمق مااشتمل عليه حتى انه مغدق فى جذوره كلما تكشف القارىء عن عمقه رأى مالايصل اليه البشر ، وكلما اتجه الى أعلاه وجد ثمرا شهيا ، هذا أمر ظاهر ،ولكن الفلسفة التى تسيطر على عقول بعض الناس، ولا تكون فيها ثمرة ناضجة ،قد يتجهون بها الى كل مايرونه بديئا فى التفكير ، سواء أكان متصلا بالحق المجرد ،أم لم يكن متصلا ،وسواء أكان متفقا مع الايمان والواقع ،أم لم يكن بل ان المتفلسفين ربما اتجهوا الى الفكرة لا لأصالتها ولكن لغرابتها ،ولا لأنها لا بد منها لتحقيق الحق وابطال الباطل ،ولكن للترف العقلى لايفرقون بين أمر يتصل بالايمان وأمر لاصلة له بالايمان .

وان بعض المتفلسفين من علماء المسلمين اطلعوا على أقوال البراهمة في كتابهم (الفسيدا) وهو الذى يشتمل على مجموعة الأشعار ليس في كلام الناس ما يماثلها في زعمهم ،ويقول جمهور علمائهم :

ان البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها لأن براهما صرفهم عن أن يأتوا بمثلها .

يقول في ذلك أبوالريحان البيرونى في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أومرذولة مانصه :

ان خاصتهم يقولون : ان في مقدورهم أن يأتوا بأمثالها ولكنهم ممنوعون ذلك احتراما لها ،

ولم يبين البيرونى وجه المنع ،أهو منع تكليفى يسبقه الايمان بهذه الكتب ،وتكون دلائل وجوب الايمان من نواح أخرى ،أم هو منع تكوينى بمعنى أن براهما صرفهم بمقتضى التكوين عن أن يأتوا بمثلها ،والأخير هو الظاهر ،لأنه هو الذى يتفق مع قول جمهور علمائهم ،وما اشتهروا من أن القول بالصرفة نبع فى واديهم ، وعند ما دخلت الأفكار الهندية فى عهد أبى جعفر المنصور ، ومن والاه من حكام بنى العباس ،تلقفه الذين يحبون كل واحد من الأفكار ،ويركنون الى الاستغراب فى أقوالهم فدفعتهم الفلسفة الى أن يعتنقوا ذلك القول ويطبقوه على القرآن ،وان كان لاينطبق فقال قائلهم :

ان العرب اذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ما كان عجزهم لأمر ذاتى من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله .

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن للشيخ محمد أبوزهرة صـ ٧٩ ،وينظر فى ذلك تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أومرذولة لأبى الريحان البيرونى .

" الاعجاز التشريعي والأخلاقي للقرآن الكريم "

يحاول كثير من الناس والمفكرين دائما ،ابراز فكرة انتماء الاسلام الى أحد المذاهب الاقتصادية ،والاجتماعية التى وجدت فيما قبل أوالتى وجدت فى عصرنا الراهن ،بل يصل بهم الأمر الى حدالاختلاف والتناحرفيما بينهم ،كل منهم يحاول اثبات وجهة نظره بشتى الطرق والوسائل ، وعن طريق بعض الجزئيات التى قد تبدوا من الوهلة الأولى موهمة للتشابه بين الاسلام وأحدهذه المذاهب ،

فالبعض : يتكلم عن الديموقراطية فى الاسلام ،

والبعض الآخر عن الدكتاتورية فى الاسلام ،

وآخرين يتحدثون عن الرأسمالية ،أوالشيوعية ،أوالمثالية ، أوالواقعية فى الاسلام ،ومع ذلك كل يجد الرد الذى يرد به على الآخر ، ويجد الأدلة التى تعضد رأيه ،

والسبب الذى وصل بهم الى هذا أنهم لم ينظروا الى الاسلام ، ككل متكامل ،بل نظروا اليه عن طريق بعض الجزئيات ، التى توهم تعضيد رأيهم .

والذى نراه فى ذلك : أن الاسلام يختلف عن كل هذه المذاهب التى يحاولون التقريب بينها وبين الاسلام ،وبعضهم قد حسم النية لالباس الاسلام ثوب العصرية فيؤثرون بذلك على الشباب الذى يترك دينه وينحرف عنه ،لأنهم يرونه متخلفا ،ولايصح الاقتداء به فى هذا العصر ،

والبعض الآخر قد تكون وجهته خبيثة ،والمقصود بها

طغيان هذه المذاهب على الاسلام ، مقربين بينهما أول الأمر لمجرد الظهور بنية طيبة ، حتى تأخذ الثقة به محلها فى أول الأمر ، ثم يبتدع فى ذلك ما شاء له شيطانه من الابتداع .

ان الاسلام يختلف عن أى مذهب من المذاهب التى وجدت والتى ستوجد فى أى عصر ،

ان الاسلام هوالاسلام ،لم يجىء لحماية الفرد فقط ،ولم يأت لحماية الجماعة فقط ، بل جاء للاثنين معا ،

ان الاسلام ليس ابتداء فرد معين حتى تقرب بينه وبين عقول البشر سواء كان ذلك بنية طيبة ،أم بنية خبيثة ،انه انما جاء عن طريق الوحى الالهى المعصوم ،الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولاينافى ذلك كون الاسلام متطورا ، ولكنه تطور يهيمن فيه الاسلام على الزمان وعلى المكان ، فالتطور هنا يكون بالنسبة للزمان والمكان ،ثم يهيمن الاسلام على هذا الزمان وهذاالمكان ،

ان القرآن الكريم نزل لجميع العصور لايوجد فيه أى تخلف عنها بل فى كل عصر ثبتت صلاحيته التامة لحياة بأكملها ،سواء للفرد أو الجماعة ،واذاكان لنا أن نأخذ مثالا على النظرة الخاصة للقرآن التى انفرد بها عن غيره ،وثبت بها عدم انتمائه الى أى نظام وجد على ظهر الأرض قبله ، فاننا نجد المثال التالى أنه لايوجد أى نظام تشريعى فى العالم مزج بين المعاملات التشريعية والناحية الأخلاقية ،كما فعل ذلك القرآن ،

اننا نجد فى كل آية تتعرض للنواحى التشريعية مزج كامل مع الأخلاق فى أروع معانيه بل ان الحكمة نفسها التى تتراءى لنا من التشريع القرآنى تكون عادة حكمة أخلاقية .

نرى ذلك فى قوله تعالى بالنسبة للعدل :

" ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون "(١) ،

" ولايجرمنكم شنآن قوم على ألاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى " ،

" ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولوعلى أنفسكم أوالوالدين والأقربين ،ان يكن غنيا أوفقيرا فالله أولى بهما ،فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أوتعرضوا فان الله كان بماتعملون خبيرا "(٢)

نرى فى هذه الآيات مزجا كاملا بين العدل تشريعا والأخلاق كمبادىء يؤخذ بها فى التشريع ،نرى ذلك فى اقتران العدل بالاحسان فى الآية الأولى ،واقتران العدل بالتقوى فى الآية الثانية ،واقتران عدم اتباع الهوى بالعدل فى الآية الثالثة .

وعلى هذا المنهج يسير الاعجاز التشريعى والأخلاقى للقرآن الكريم ،ويوضح لنا ذلك قول الدكتور عبدالحليم محمود فى كتابه التوحيد الخالص أوالاسلام والعقل ،يقول :

" نريد أن نتحدث عن الاسلام وتكفين كلمة " الاسلام" تكفينى هذه الكلمة للدلالة على أن هذا الدين صحيح منزل من عند الله ،

ان معنى الاسلام ،الاستسلام لله فى كل مظهر من المظاهر وفى كل حركة من الحركات ،وفى كل أمر من الأمور ، ويصور المعنى لهذا

(١) المائدة : ٨ (٢) النساء : ١٣٥

التعبير الرائع الآية القرآنية الكريمة فى :

" قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين " (١) .

ان هذا التصوير للاسلام فى هذه الآية الكريمة رائع حقا ، استسلام لله ، أى دخول فى النطاق الالهى ابتعاد عن الهوى والشيطان ،

ان اسلام الوجه لله : فرق كبير بين هذا وبين الخروج عن النطاق الالهى بالشيوعية ، أو بالوجودية ،

وفيما يتعلق بالاسلام هناك النظم المعصومة ، هناك الأخلاق المعصومة ، والتشريع المعصوم ،

هناك اذن العصمة الكاملة ، ولكن الاستسلام لله يقتضى شيئا آخر ، هو : الجهاد والكفاح المستمر من أجل الحق والخير ، واعلاء كلمة الله ، فاذا لم يكن هناك جهاد من أجل الاسلام فلا اسلام ، ومن لم يجاهد من أجل اسلامه فليس بمسلم ،

فهناك اذن الجهاد ، وهناك الاتجاه الى جعل الانسان ربانيا أو الهيا (٢)

ونستطيع أن نختتم هذا الاعجاز فى التشريع بمقارنة يسيرة بين تشريع الاسلام وسائر النظم التشريعية ، فى الأخلاق ، والاجتماع والاقتصاد ، والسياسة ، اذ ان هذه النظم المختلفة تعالج موضوعات جزئية منفصلة بعضها عن بعض ،

---

(١) الأنعام آية : ٦٢ ، ٦٣

(٢) التوحيد الخالص أو الاسلام والعقل للدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٤٨ ، و ص ٢٤٩

١ = كل موضوع عالجه قوم وصفوا بأنهم علماء في هذا الفن وعباقرة قضوا في دراسته أعمارهم وخرجوا الينا بالنظرية الواحدة بعد التطواف الطويل .

٢ = جاءت هذه النظريات قاصرة عند التطبيق على بيئات محدودة وأوساط معينة ،وتناولها التعديل في حياة صاحبها وبعد وفاته حتى أن كان تطبيقها على بيئات محدودة ولكنها جميعا أثبتت عجزها عن القيام بصالح المجتمع عامة .

٣ = لا تجد رباطا وثيقا بين التشريعات المختلفة يؤلف منها وحدة تنتج سعادة الفرد أوالجماعة ،أوتكون الفرد الصالح ، أما في تشريع الاسلام الذى جاءنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فنجد فيه النظام الكامل الشامل الذى يؤلف بين الاجتماع ،والأخلاق ،والسياسة والاقتصاد ،ويصلح عليه نظام المجتمع كله في كل زمان ومكان ،وتستقيم به الحياة الفاضلة الذى يجد فيها الفرد والمجتمع كله سعادته الدنيوية والآخروية ،ويحقق السعادة البشرية في أعلى صورها ، ومع ذلك فقد جاءنا على يدفرد عاش في قلب الصحراء ،لم يدرس طبائع الكون ،ولا نظم العمران ،ولا علوم الاقتصاد أوالنفس أوالطبيعة ،أوالبيئة أوعالج مشاكلها جميعا بأسلوب واقعي عملي ،ونظام محدد فيه يسره مراعاة لطباع الناس جميعا ،وقدرهم وامكانياتهم ،وفيه قرب من فطوتهم البشرية يعالجها بحكمة ورفق ،ويصل بهم في النهاية الى أعلى الدرجات البشرية في الأخلاق والوفاق بين العقل والعاطفة وخلو من كل تعقيد فأين هذا من كل ما عرفته البشرية في كل قوانينها ونظمها الوضعية .

ويكفينا كختام لهذا الموضوع ولتوضيح المنهج القرآنـــى فى عدم اتباع أى مذهب من المذاهب التابعة من أهواء البشر قوله تعالى :

" واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ،ولوشئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أوتتركه يلهث "(١)

فان هذه الآية توضح لنا أن الانسلاخ عن آيات اللـــه هو عدم العمل بهـــا والاستجابة لها ، الانسلاخ يدل دلالة واضحة على أن الذى يبتعد عن الوحى والتعبير بلفظ الالهى المعصوم يتبعه الشيطان ،ويكـون من الغاوين ،وفى هذه الحالة يكون مثله كمثل الكلب : ان تحمل عليه يلهث أوتتركه يلهث ،فيتجه لاخلاده الى الأرض وهو هنا يمثل لنا المذاهـــب المادية بجميع صورها ،

واتباع الهوى فى هذا تمثيل للمذاهب والفلسفات الفرديـة بجميع صورها .

---

(١) الأعراف آية : ١٧٥ ، ١٧٦

" اعجاز القرآن فى اخباره عن أمور الغيب "

كان الرسول صلى الله عليه وسلم ،أميا لايقرأ ولايكتب ، وهذا من أهم أوجه اعجاز رسالته صلى الله عليه وسلم ،وبناء على أميته ،هذه لم يكن يعرف من أخبار الأمم السابقة التى ترد فى الكتب القديمة مايعرفه غيره من الأحبار والرهبان ،الذين درسوها دراسة عميقة ،بل وتفرغوا لها تفرغا كاملا ،

وقد أثبتنا من قبل تهافت الشبه التى وردت على التقائه بالبعض منهم فيكون أخذ عنهم بعض أخبار السابقين كذلك ،فان الرسول صلى الله عليه وسلم ،لم يشتهر عنه التنبؤ بالغيب فى الأمور المستقبلة ، بل ان كتب السيرة على الاطلاق لم تذكر لنا أى شىء يدل دلالة واضحة أوغير واضحة فيما يتعلق بتنبؤ الرسول صلى الله عليه وسلم بالغيب قبل البعثة ، بل تذكره دائما بمايدل على بعده عن هذا الطريق ،كل هذا يدلنا دلالة واضحة على اعجاز القرآن من الناحية الغيبية ، سواء فيما يتعلق بالماضى ، أو الحاضر ،أوالمستقبل ،بل ان القرآن الكريم نفسه يعبر عن ذلك فى أكثر من موضع ،يقول الله تعالى :

" وما كنت لديهم اذيلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذيختصمون "(١)

" وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون "(٢)

" وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمر "(٣)

---

(١) آل عمران الآية : ٤٤ (٢) سورة يوسف آية : ١٠٢
(٣) سورة القصص الآية : ٤٤

على أن الآيات التي توضح لنا موقف الرسول صلى الله عليه وسلم – من الاخبار بالغيب وأن ذلك ليس الا نتيجة للوحي وليس منبعثا من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم هي قوله تعالى :

" وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون "(١)

" تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل "(٢)

" نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين "(٣)

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز :

" لانقول ان العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية ومجمل ماجرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح وأشباه ذلك لم يصل قط الى الأميين فان هذه النتف اليسيرة قلما تخرب عن أحد من أهل البدو أوالحضر ، لأنها مما توارثته الأجيال ، وسارت به الأمثال ، وانما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب ، فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأميين ولم يكن يعرفه الا القليل من الدارسين ،

وانك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محررا في القرآن حتى الأرقام طبق الأرقام ، فترى مثلا في قصة نوح عليه السلام في القرآن : أنه لبث في قومه ألف سنة الا خمسين عاما ،

---

(١) العنكبوت آية : ٤٨ (٢) هود آية ٤٩

(٣) يوسف : ٣

وفى سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة ،

وترى فى قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب ،أنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية ،

وفى القرآن : أنهم لبثوا فى كهفهم (ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ،

وهذه السنون التسع هى فرق مابين عدد السنين الشمسية والقمرية ،قاله الزجاج يعنى بتكميل الكسر .

فانظر الى هذا الحساب الدقيق فى أمة أمية لاتكتب ولاتحسب كذلك بالعلم فى الأمى معجزة فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

نعم انها لعجيبة حقا : رجل أمى بين أظهر قوم أميين ، يحضر مشاهدهم فى غير الباطل والفجور ،ويعيش معيشتهم مشغولا برزق نفسه وزوجه وأولاده ،مراعيا بالأجر ،أوتاجرا بالأجر ،لاصلة له بالعلم والعلماء ، يقضى فى هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره ،ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها فيكلمنا بمالاعهد له به فى سالف حياته ،ومالم يتحدث به الى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك ،

ويبدى لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم فى دفاترهم وقماطرهم "(١)

واذاكان لنا أن نذكر أمثلة عن الاعجاز العينى للقرآن ،فاننا نجدها تتعدد من ذلك ؛

---

(١) النبأ العظيم الدكتور محمد عبدالله دراز صـ ٣٠ ـ صـ ٣١

١ ــ قصص الأنبياء السابقين ،وقد سبق أن ذكرنا مدى الاعجاز فـــى الاخبار عنها ،ويقول الله تعالى فى ذلك ،

" تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنـــت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين "(١)

٢ ــ اخباره عن المستقبل كما حدث فى اخباره عن هزيمة الفرس بعـــد فوزهم على الرومان ، مع عدم توقع حدوث ذلك عند أى شخص ، بل الكل كانوا يؤكدون عدم قيام دولة الرومان مرة أخرى .

يقول الله تعالى :

" ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين "(٢)

وقد حدث ما أخبر به القرآن الكريم ،وماكان لبشر أن يتنبـــأ بهذا ، بل ان العادة جرت على أن الذى يريد الزعامة يجارى النـــاس فى معتقداتهم .

٣ ــ ومن اخباره عن المستقبل ماكان قبيل غزوة بدر من اخباره عن أسـباب قيامها ، ومن اخباره عن نتيجتها ،يقول الله تعالى عن الأسباب :

" واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم "(٣) ،

لقد ود المسلمون العير وأراد الله سبحانه وتعالى النفير .

أما عن النتيجة مع توقع الهزيمة للمسلمين بكل المقاييس العسكريـــة

---

(١) هود : ٤٩ (٢) الروم : ١ : ٤ (٣) الأنفال : ٧

فيقول الله سبحانه وتعالى :

" سيهزم الجمع ويولون الدبر "(١)

٤ ـ اخبار القرآن عن الغيب فى تحدى الناس بأن يأتوا بمثل هذا القرآن ولم يستطع أى انسان حتى الآن أن يأتى بأصغر سورة من مثله على مر العصور حتى الآن .

يقول الله سبحانه وتعالى :

" قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا "(٢)

ويقول سبحانه وتعالى :

" فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة "(٣)

هذه هى لمحات من أوجه اعجاز القرآن الغيبى ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر ، وهى تدلنا على مبلغ الذروة التى وصل اليها القرآن فى هذا المجال ،لأن جل هذه الاخبار كان يأتى بما ليس متوقعا بأى مقياس عادى ،ولا يتأتى لبشر على الاطلاق ـ كائنا من كان ـ توقعه أوالاتيان به .

---

(١) القمر : ٤٥ (٢) الاسراء : ٨٨

(٣) البقرة ٢٤

" الشبهة الثالثة على دليل الرسالة والرد عليهـــا "

واستمر المشركون في فجاجهم وعنادهم ،فلم يجدوا في القرآن نفسه أي عيب يمكن لهم أن يأخذوه عليه ،بل انهم لايستطيعـــون الاتيان بأصغر سورة من مثله ،فابتدعوا شبهة جديدة هي موجهة اليهـــم أكثر مما هي موجهة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وهي قولهم :

" لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة" ، تلميحا بذلك الـــى أن نزوله مفرقا لايخلو من شبهة الصنعة البشرية ، وكان رد الله سبحانه وتعالى عليهم واضحا سهلا صريحا :

" كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا "(١)

ان الرد هنا يرمز الى أمور تبين لنا سبب نزول القرآن منجما ، والسبب الأول : هو تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بنزول القرآن عليه على فترات متتابعة ، بحيث يحفظ ما ينزل عليه أولا بأول وجزءا يجزء فيكون أدعى الى حفظه وتعليمه للناس شيئا فشيئا .

وقد قال له الله سبحانه وتعالى في ذلك :

" لاتحرك به لسانك لتعجل به ،ان علينا جمعه وقرآنه ،فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ،ثم ان علينا بيانه "(٢)

فان من تكفل الله سبحانه وتعالى بالقرآن وبجمعه أن ينزلـــه على فترات متتابعة ليحفظ في الصدور حفظا كاملا ويكون ذلك أدعى الـــى التعلق به ، فالقرآن لم ينزل لفترة معينة ، بل نزل لكل العصور .

---

(١) القيامة : ١٦ ــ ١٩
(٢) الفرقان آية : ٣٢

٢ ــ موالاة الوحي للرسول ، فيه تثبيت لفؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتثبيت لعزيمته ، فان المرء يستأنس بموالاة أصحابه له ، وتأييدهم اياه ، فكيف لايستأنس الرسول صلى الله عليه وسلم بموالاة ربه له ؟

ثالثا : يقول الله سبحانه وتعالى :

(ورتل القرآن ترتيلا) ،

وهذا يدل دلالة واضحة ، على أن الترتيل من عند الله سبحانه وتعالى ، وهذا لايتواءم الا بنزول القرآن منجما ، فانه اذا نزل القرآن جملة واحدة لم يتمكن الرسول صلى الله عليه وسلم من تعلم ترتيله ولا من تعليم غيره ذلك .

رابعا : ان نزول القرآن منجما يؤدى الى نزوله على حسب الوقائع فيكون أدعى الى سهولة تقبل التشريع ومعرفة الحكمة منه .

خامسا : التدرج بالناس في التشريع ، فان نزول القرآن جملة واحدة يؤدى الى فرضية التشريعات الجديدة مرة واحدة ، مما يكون فيه عسر شديد على الناس ، ربما يرفضون بسببه الدين الجديد ، فلو لم ينزل تحريم الخمر بالتدريج لكان في ذلك قسوة شديدة على الناس ، فان الكثيرين كانوا يدمنونها ويتاجرون فيها .

سادسا : ونضيف الى ذلك قول الشيخ أبي زهرة :

وهناك سبب آخر لنزول القرآن منجما نلمسه من حال العرب ومن شئونهم ، ذلك أن العرب كانوا أمة أمية ، والكتابة فيهم ليست رائجة ، بل يندر فيهم من يحوفها ، وأندرمنه من يتقنها ، فما كان في استطاعتهم أن يكتبوا القرآن كله اذا نزل جملة واحدة ، اذ يكون بسور وآياته عسيرا عليهم أن يكتبوه ، وان كتبوه لايعدمون الخطأ والتصحيف

ولقد كان من فائدة انزال القرآن منجما أنه كان ينزل لمناسبات ولأحداث فيكون فى هذه الأحداث بعض البيان لأحكامه والمبين الأول هـــو النبى صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى :

" وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم "(١)

" وقرآنا فرقنـاه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا " .

---

(١) النحل : ٤٤

الفصـــل الرابـــع

" شبهات المشركين على صاحـــب الرسالة والـــرد عليهـــا

لم تفلح دعاوى المشركين على دليل الرسالة ، وهو القرآن الكريم ، فانطلقوا يقيمون دعاويهم وأكاذيبهم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدره القرآن الكريم هذه الأكاذيب والدعـاوى فى نحور أصحابهـــا وتظهر لنا الشبهات والرد عليها فى قوله تعالى :

" وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأســـواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ، أويلقى اليه كنز أوتكون له جنـــة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا "

" يحكى لنا القرآن الكريم هنا ست شبهات أقامها المشركون :

ان الاعجاز فى نظرهم يتنافى مع كون الرسول صلى الله عليه وسلم يأكل كواحد منهم ، ويسعى على معاشه فى الأسواق كالبشر ، بل يجب فى نظرهم أن ينزل معه ملك فيساعده فى أمور دعوته ، أو يعطيه ربه كـــنزا ينفق منه بدون حساب ، أوعلى الأقل تكون له جنه ، أى بستان ، تغنيه عن أمور المعاش ، وبما أنه لم تتوافر له تلك الأمور التى هى فى نظرهم أســاس يتكأ عليه بالنسبة لنبى ، وهم فى هذا مخطئون ،

فان تميز الرسل عليهم الصلاة والسلام عن الآخرين ليس بأمـــور

من مراجع هذا الفصل : تفسير الألوسى ـ تفسير القاسمى ـ تفسير الفخر الرازى ـ تفسير البحر المحيط ـ أسباب نزول القرآن للواحدى ، اسباب النزول للسيوطى ، النبأ العظيم .

جسمانية ،وانما بما جبلهم الله عليه من الكمال ،وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم :

" قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد "(١)

فالرسول هنا بشر يوحى اليه ،والناس عادة تذكر البشرية ،فيجرى على الرسول صلى الله عليه وسلم مايجرى على البشر العادى : من حب الأموال ،والجاه ،والزينة ،يتذكرون كل ذلك وينسون يوحى اليه ،فهو بشر ولكنه لايسير فى أى أمر خاص به ،أوبالناس ،أوبالتشريع الابناء على مايوحى به اليه .

ثم زاد كفار مكة على ذلك ،وعبر عنهم الله سبحانه وتعالى بلفظ الظلم ،لافترائهم هذه الشبهات على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،يقول الامام الألوسى :

هم القائلون الأولون ،وانما وضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوه ،لكونه اضلالا خارجا عن حد الضلال مع ماضيه من نسبته صلى الله عليه وسلم ،الى ما يشهد العقل والنقل ببراءته منه ،أوالى مالايصلح أن يكون متمسكا لما يزعمون من نفى الرسالة .

وقيل : يحتمل أن يكون المراد ،وقال الكاملون فى الظلم منهم ،وأياما كان ،فالمراد أنهم قالوا للمؤمنين :(٢)

" ان تتبعون الا رجلا مسحورا "

واتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالسحر ،وأنه سحر فغلب على عقله .

---

(١) آخر سورة الكهف

(٢) تفسير الألوسى جـ ١٨ صـ ٢٣٨

ويرد الله سبحانه وتعالى على هذه الشبه ، بقوله تعالى :

" أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا "(١)

لقد اخترعوا لك يامحمد كلاما كله أباطيل ،وقد ضلوا فى ذلك ضلالا مبينا ، فبقوا متحيرين لايجدون فى نبوتك قولا يستغفرون عليه ، وان كان باطلا فى نفسه ،فان شبهاتهم وقدحهم فى أمر نبوتك انما يكون فى المعجزات الدالة عليها ،وما أتوا به لايفيد ذلك ،وهذا استعظام للحكايات الباطلة التى تفوه بها المشركون وتعجب منها .

ثم يكمل الله سبحانه وتعالى رده على شبه المشركين بقوله :

" تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا "(٢)

يقول الامام الواحدى فى سبب نزول هذه الآية :

أخبرنا أحمد بن محمد بن ابراهيم المقرئ ،قال : أخبرنا أحمد ابن أبى الفرات قال : أخبرنا عبدالله بن محمد بن يعقوب البخارى قال حدثنا جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال :

لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة وقالوا :

مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فنزل جبريل عليه السلام من عند ربه معزيا له فقال :

السلام عليك يارسول الله ،رب العزة يقرئك السلام ،

---

(١) الفرقان آية : ٩

(٢) الفرقان آية : ١٠

ويقول لك :

" وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق " أى يبتغون المعاش فى الدنيا ،

قال : فبينا جبريل عليه السلام ،والنبى صلى الله عليه وسلم، يتحدثان اذ ذاب جبريل عليه السلام حتى صار مثل الهردة ،

قيل : يارسول الله وماالهردة ؟

قال :الحدسة ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

مالك ذبت حتى صرت مثل الهردة ؟

فقال : يامحمد ،فتح باب من أبواب السماء ،ولم يكن فتح قبل ذلك اليوم ،وانى أخاف أن يعذب قومك عند تغييرهم اياك بالفاقة :

فأقبل النبى وجبريل عليهما السلام يبكيان اذ عاد جبريل عليه السلام الى حاله فقال :

أبشريامحمد هذا رضوان خازن الجنةقد أتاك بالرضا من ربك ،فأقبل رضوان حتى سلم ثم قال :

يامحمد ،رب العزة يقرئك السلام ـ ومعه سقط من نوريتلألأ ويقول لك ربك ،هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع مالاينتقص لك مما عندى فى الآخرة مثل جناح بعوضة ،

فنظر النبى صلى الله عليه وسلم الى جبريل عليه السلام كالمستشير له ،فضرب جبريل بيده الى الأرض فقال :

تواضع لله ،فقال :

يارضوان لا حاجة لى فيها ،الفقر أحب الى ،وأن أكون عبدا صابرا شكورا ،

فقال رضوان عليه السلام : أصبت ،أصاب الله بك ، وجاء نداء من السماء فرفع جبريل عليه السلام رأسه ،فاذا السموات قد فتحت أبوابها الى الحوض ،وأوحى الله تعالى الى جنة عدن ،أن تدلى غصنا من أغصانها عليه عذق ، عليه غرفة من زبرجدة خضراء، لها سبعون ألف باب من ياقوتة حمراء ،فقال : جبريل عليه السلام :

يامحمد ارفع بصرك ،فرفع ،فرأى منازل الأنبياء وغرفهم ،فاذا منازله فوق منازل الأنبياء فضلا له خاصة ،ومناد ينادى :

أرضيت يامحمد ؟

فقال النبى صلى الله عليه وسلم :رضيت ،فاجعل ما أردت أن تعطنى فى الدنيا ذخيرة عندك فى الشفاعة يوم القيامة .(١)

وسبب نزول الآية هنا يشرح لنا التفسير المراد كما ذكره الفخر الرازى فى تعليقه على الآية بقوله :

اعلم أن هذا هو الجواب الثانى عن تلك الشبهة ،فقوله :

" تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك "

أى الذى ذكروه من نعم الدنيا كالكنز والجنة ،وفسر ذلك الخير بقوله :

" جنات تجرى من تحتها الأنهار ،ويجعل لك قصورا "

نبه بذلك سبحانه على أنه قادر على أن يعطى الرسول كل ما ذكروه ،ولكنه تعالى يدبر عباده بحسب المصالح ،وعلى وفق المشيئة ، ولا اعتراض لأحد عليه فى شىء من أفعاله ،فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم

---

(١) أسباب نزول القرآن لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى ـ تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر صـ ٣٤٦

ويسد عليه أبواب الدنيا ،وفي حق الآخر بالعكس وماذاك الا لأنه فعال لما يريد ،

قال ابن عباس : خير من ذلك مما عيروك بفقده الجنة لأنهم عيروك بفقد الجنة الواحدة ،وهو سبحانه قادر على أن يعطيك جنات كثيرة .

وقال في رواية عكرمة :

خيرا من ذلك أي من المشي في الأسواق وابتغاء المعاش (١)

ويعد أن يعدد الله سبحانه وتعالى مصير الكافرين في الآخرة ومقدار جزاءهم الذي سيلقونه ، والعذاب الذي ينتظرهم ،يذكر ردا ثانيا على الشبه التي ذكروها ، وهو قوله تعالى :

" وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ،وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا

وهذا كالتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ،وتبيانا له بأنه لايختلف عن الأنبياء والرسل ،الذين أرسلوا من قبل ،وأن القوم ماينظرون الى النبوة الا على أنها الملك ،والغنى ،والجاه ،كما يرون في الدولة الفارسية ،أوالرومانية ،

ويمكن أن يضم الى هذا : أن هذا القول احتجاج على المشركين في قولهم ذلك ،فان كل من سبق من الرسل كل يسير على هذا المنوال فلماذا يكون سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بدعا في ذلك ،وهم لايختلفون عن الأمم السابقة ؟ وهذا أبلغ رد وأقواه بالنسبة لحال المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فان الرومان وغيرهم من أهل الكتاب

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٦ صـ ٤٥١

كانوا يؤمنون بأنبياء لهم كانوا يأكلون الطعام ،ويمشون في الأسواق ،
يؤمنون بهم رغم ما آتاهم الله من السطوة والجبروت والعزة والملك .

ثم يكمل الله سبحانه وتعالى الرد بقوله :

" وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا "

وهذا أيضا تسلية له صلى الله عليه وسلم ،عن قول المشركين :

" أويلقى اليه كنز أوتكون له جنة "

فقد جعل أغنياء الناس هنا ابتلاء لفقرائهم لينظر هل يصبرون ،
والله بصير بما يعملون عالما بالصواب فيما يبتلى به ،فلا يضيقن صدر رسول الله
صلى الله عليه وسلم ،ولا تستخفه أقوالهم .

ويمدد لنا الفخر الرازى بعض أوجه تفسير الآية بقوله :

١ = ان هذا في رؤساء المشركين وفقراء الصحابة ،فاذا رأى الشريف
الوضيع قد أسلم قبله أنف أن يسلم ،فأقام على كفره لئلا يكون للوضيع
السابقة والفضل عليه ،ودليله قوله تعالى :

لوكان خيرا ما سبقونا اليه

وهذا قول الكلبي ،والفراء ،والزجاج .

٢ = ان هذا عام في جميع الناس ،روى أبوالدرداء عن النبي صلى
الله عليه وسلم ،أنه قال :

ويل للعالم من الجاهل (١) ، وويل للسلطان من الرعية ،وويل للرعية
من السلطان ،وويل للمالك من المملوك ،وويل للشديد من الضعيف ،وللضعيف
من الشديد ،بعضهم لبعض فتنة وقرأ هذه الآية :

---

(١) أخرجه الديلمى عن أنس

٣ = ان هذا فى أصحاب البلاء والعافية ،هذا يقول لم لم أجعل مثله فى الخلق والخلق ،وفى العقل وفى العلم ،وفى الرزق وفى الأجـــل وهذا قول ابن عباس والحسن .

٤ = هذا احتجاج عليهم فى تخصيص محمد بالرسالة مع مساواتـه اياهم فى البشرية وصفاتها ، فابتلى المرسلين بالمرسل اليهم ،وأنواع أذاهـم ، على ماقال :

" ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركـوا أذى كثيرا "(١)

والمرسل اليهم يتأذون أيضا من المرسل بسبب الحسد ،وصيرورته مكلفا بالخدمة وبذل النفس والمال ،بعد أن كان رئيسا مخدوما ،

والأولى : حمل الآية على الكل لأن بين الجميع قولا مشتركا(٢)

وقول الفخر الرازى عن هذه المعانى للآية :

والأولى حمل الآية على الكل ، لأن بين الجميع قولا مشتركـا هو فى نظرنا الرأى الراجح ،لأن حملها على بحر ،وتسلية الرسول فقط هـو تحديد قاصر ،حيث أن المجال أيضا هو مجال الرد على شبه المشركـين وتفنيـد دعاواهم .

ثم تجىء لنا سورة الفرقان بشبهة أخرى للمشركين ، يزيدون فيها عتوا واستكبارا ،محاولين تحطيم رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بكـل السبل ،مع أنها تتهافت الواحدة تلو الأخرى ،يقول الله تعالى حكاية عنهم :

" وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أونرى ربنا "(٣)

---

(١) آل عمران آية ١٨٦ (٢) الفخر الرازى جـ ٦ ص ٤٦٣

(٣) الفرقان آية ٢١

ومعنى هذه الشبهة ،ومراد المشركين منها ،لماذا لم ينزل الله سبحانه وتعالى ملائكة يشهدون مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ،بأن رسالته حق ،وأنها آتية من عند الله سبحانه وتعالى ،أويروا الله سبحانه وتعالى فيخبرهم بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فان من علائم صدق الرسالة كما تخبر عن شبهتهم المتهافتة أن يشهد المرسل على صدق المرسل ،ومعنى عدم الشهادة برؤية الملائكة ،ورؤية الله سبحانه وتعالى ،هو كذب الداعى الى الرسالة

ويرد القرآن الكريم عليهم بقوله تعالى :

"لقد استكبروا فى أنفسهم وعتو عتوا كبيرا "

لقد استكبروا فى أنفسهم ،وظنوا أن لجاجهم هذا سيقضى على الرسالة المحمدية قضاءا مبرما ،واللام هذه واقعة جوابا للقسم ،أى : والله لقد استكبروا فى شأن أنفسهم وتجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان تجاوزا كبيرا بالغا النهاية الكبرى فى ذلك .

يقول الامام الألوسى :

وفى تعقيب حكاية باطل ،أولئك الكفرة بالجملة القسمية ايذان بغاية قبح ما هم عليه ،واشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم ،وهو من الفحوى فى الحقيقة ،ومثل ذلك شائع فى الكلام ،تقول لمن جنى جناية : فعلت : فعلت كذا وكذا استعظاما ، وتعجبا منه ، ويستعمل فى سائر الألسنة ،وجعل الزمخشرى من ذلك قول مهلهل :

وجارة جساس أبأنا بنابها كليبا غلت ناب كليب بواؤها (١) .

---

(١) تفسير الألوسى : جـ ١٩ صـ ٣

لقد طلبوا مالايخطىء اليه أولى العزم من المرسلين ،صلوات الله عليهم ،ولم يهتموا بأوجه اعجاز القرآن ،والآيات الباهرة ،التى أتى بهـا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعتوا فى ذلك عتوا كبيرا ، بتجاوزهـــم الظلم والطغيان .

ثم تمضى بنا سورة الفرقان فى الرد عليهم بالرد المفحم ،

يقول الله تعالى :

" يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا "(١)

ذكر لهم أن طلبهم هذا ليس بشرى لهم كما يعتقدون ،بل سيكون نكالا عليهم ،لدرجة أنهم سيقولون حجرا محجورا مخوفا من هذا اللقاء ورهبته ،يقول الامام الرازى :

اختلفوا فى ذلك اليوم فقال ابن عباس :

يريد عند الموت ،

وقال الباقون : يريد يوم القيامة ،

وانما يقال للكافر لابشرى لأن الكافر وان كان ضالا مضلا الا أنـــه يعتقد فى نفسه أنه كان هاديا مهتديا ،فكان يطمع فى ذلك الثواب العظيم ، ولأنهم ربما عملوا مارجموا فيه النفع كنصرة المظلوم ، وعطية الفقير ، وصلـــة الرحم ،ولكنه أبطلها بكفره ،

فبين سبحانه أنهم فى أول الأمر يشافهون بمايدل على نهاية اليـأس والخيبة ،وذلك هو النهاية فى الايـلام ،وهو المراد من قوله :

" وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون "(٢)

---

(١) الفرقان آية ٢٢

(٢) الفخر الرازى جـ ٦ صـ ٤٦٦

ويصل بهم الأمر فى النهاية أن يقولوا : حجرا محجورا للذى طلبوه كبشرى لهم .

يقول الفخر الرازى :

فى تفسير قوله حجرا محجورا ، ذكر سيبويه فى باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك اظهارها ، نحو معاذ الله ، وقعدك عمرك ، : وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو ، أو هجوم نازلة ، ونحو ذلك يضعونها وضع الاستعاذة ،

وقال سيبويه : يقول الرجل للرجل ، يفعل كذا وكذا ، فيقول : حجرا ، وهى من جحره اذا منعه ، لأن المستفيد طالب من الله أن يمنع المكروه ، فلا يلحقه ، فكان المعنى أسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا ، ومجيئه على فعل أو فعل فى قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد ، فان قيل لما ثبت أنه من باب المصادر فما معنى وصفه بكونه محجورا ؟

قلنا : جاء هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر ، كما قالوا ذبل ذابل ، فالذبل الهوان وموت مائت ، وحرام محرم (١) .

ثم تمضى بنا سورة الفرقان فى استعراض شبه المشركين على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول الله تعالى :

" واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا ، ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها (٢) "

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ صـ ٤٦٦

(٢) الفرقان آية : ٤١ ، ٤٢

تبين لنا هذه الآية مدى غرور المشركين واستكبارهم ، فان جميع الحجج التى ذكروها من قبل سقطت وتهافتت ،ولكنهم أصروا على طغيانهم ،فاستعملوا طريقة الاستهزاء بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذه الطريقة فى الجدل لاتستعمل الا بعد فقدان الحجة ،وضعف المنطق ،وهذا يدل على مقدار المتاهات التى وقع فيها المشركون فهم يعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحسنهم خلقا وخلقا ،وأوسطهم نسبا ، ويعلمون مقدار عناية الله سبحانه وتعالى به ، منذ مولده ، حتى بدء دعوته ،ومظاهر الخصوصية التى أحاطت به فى تلك الفترة ،بل ان أكبر المظاهر التى تدل على بطلان منطقهم قولهم :

" ان كان ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها "

فهذا القول يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن ماجاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،هو الحق ،الذى لامراد فيه وأن ماهم عليه هو الباطل ،وأنهم ماكان لهم قبل بمناقشة الحجج القوية ،التى أتى بها الاسلام على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتشارك فى ذلك رأى الفخر الرازى فى قوله :

انهم سموا ذلك اضلالا ،وذلك يدل على أنهم كانوا مبالغين فى تعظيم آلهتهم ،وفى استعظام ضيفه صلى الله عليه وسلم فى صرفهم عنه ، وذلك يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن هذا هو الحق ،فمن هذا الوجه يبطل قول أصحاب المعارف ،فى أنه لايكفر الا من يعرف الدلائل لأنهم جهلوه ثم نسبهم الله تعالى الى الكفر والضلال ،وقولهم لولا أن صبرنا عليها : يدل أيضا على ذلك ،ويدل هذا القول منهم على جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،واجتهاده فى صرفهم عن عبادة الأوثان ولولا ذلك لما قالوا :

" ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها " ،

وهكذا كان عليه السلام ،فانه فى أول الأمر بالغ فى ايراد الدلائل، والجواب عن الشبهات ،وتحمل ماكانوا يفعلونه : من أنواع السفاهة ،وسوء الأدب ،

والثالث ،أن هذا يدل على اعتراف القوم بأنهم لم يعترضوا البتة على دلائل الرسول صلى الله عليه وسلم ،وماعارضوها الا بمحض الجحود والتقليد .

الرابع ،الآية تدل على أن القوم صاروا فى ظهور حجته عليه السلام عليهم ،كالمجانين ،لأنهم استهزؤا به أولا ،ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا ،لولا أن قابلنا بالجحود والاصرار ،فهذا الكلام الأخير يدل على أن القوم سلموا له قوة الحجة ،وكمال العقل (١)

وبما أن القوم وصل بهم الأمر الى الاستهزاء بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم فلا ينفع معهم الا الرد بأسلوب معاملة الأسافل من الناس، وهو أسلوب القوة ،لقد حاول الرسول صلى الله عليه وسلم معهم بقوة العقل ، وباقناع الدليل فلم يجدى معهم ،ذلك شيئا فكان الرد القرآنى فى هذا المجال هو أبلغ رد وأحسنه :

" وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ،أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا " (٢)

فانهم عند مايشاهدون عذاب ربهم الشديد فى الدنيا والآخرة سوف يعرفون من كان منهم أضل سبيلا فاذا كانوا اتبعوا هواهم انقادوا له فان الرسول

---

(١) الفخر الرازى جـ ٦ صـ ٤٧٧
(٢) الفرقان آية ٤٢

صلى الله عليه وسلم ليس حفيظا عليه وليس مسئولا عنه وعما جرى له وقد سبق أن قال ذلك الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز :

" لست عليهم بمسيطر " ،

" وما أنت عليهم بجبار " (١) ،

" لااكراه فى الدين " (٢)

ثم يكمل الله سبحانه وتعالى الرد بما يقصم ظهورهم ،ويبين صفتهم الحقيقية ،

" أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أويعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا "

هاهنا بين الله سبحانه وتعالى القيمة الحقيقية لهؤلاء المشركين ،فبعد أن استعرضوا جميع حججهم ومنطقهم ،وما استطاعوا الوصول اليه بفارغ القول ،بين لنا الله سبحانه وتعالى أن كل ماقالوه أوفعلوه لايزيد عن قول الأنعام التى لا تسمع أوتعقل ،بل انهم عند الله سبحانه وتعالى أضل من ذلك ، وعبر بلفظ أكثرهم هنا للتعبير عن أن هناك قلة منهم ،كانوا قد سبقت لهم العناية الأزلية بالايمان ،ومنهم من سمع أوعقل ولكنه خاف على الرياسة أوالجاه .

يقول الامام الألوسى فى تفسير قوله تعالى :" [illegible] "

" ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا " :

لما أن الأنعام تنقاد لصاحبها الذى يتعهدها ،وتعرف من يحسن

---

(١) سورة ق آية : ٤٥ (٢) البقرة آية : ٢٥٦

اليها ،ومن يسيء اليها ،وتطلب ما ينفعها ،وتجتنب ما يضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها ،وتأوى الى مقاطنها ومرابضها .

وهؤلاء لاينقادون لربهم سبحانه وخالقهم ورازقهم ،ولا يعرفون احسانه تعالى اليهم ،من اساءة الشيطان المزين لهم اتباع الشهوات، الذى هو عدو مبين ،ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ،ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك ،ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى ،والمورد العذب الروى ،ولأنها ان لم تعتقد حقا مستتبعا لاكتساب الخير ،لم تعتقد باطلا مستوجبا لاقتراف الشر بخلاف هؤلاء ،حيث مهدوا قواعد الباطل ،وفرعوا عليها أحكام الشرور، ولأن أحكام جهالتهما وضلالتها مقصورة على أنفسها ،لاتتعدى الى أحد ، وجهالة هؤلاء مؤدية الى ثوران الفتنة والفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج ،فيما بين العباد ،ولأنها غير معطلة لقوة من القوى المودعة فيها ،بل صارفة لها الى ما خلقت له فلا تقصير من قبلها فى طلب الكمال ،وأما هؤلاء فبهم معطلون لقواهم العقلية ،مضيعون للفطرة الأصلية التى فطر الناس عليها (١) .

على أنه اذا كان لنا أن نضيف شيئا على هذه الردود التى ذكرها الله سبحانه وتعالى ،فاننا نضيف مايمكن ذكره عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحية أخلاقه ومعجزاته الحسية ،فان فيها الكفاية فيما نعتقد للدلالة على عظم تلك الشخصية وأن مشركى مكة كانوا مخطئين كل الخطأ بذكرهم هذه الشبهات التى جعلتهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

---

(١) تفسير الألوسى جـ ١٩ صـ ٢٥

" الفصـــــل الخامـــس "

" خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم "

ماهى الدرجة التى وصل اليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة للخلق ؟

وهل كان يشاركه فى هذا الخلق الأنبياء أوالرسل أوالملائكة ؟

وللاجابة على هذين السؤالين يقول لنا الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز :

" قل انّ صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين "(١)

تلك هى الدرجة التى وصل اليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة للأخلاق ،

انها ذروة الأخلاق الكريمة ،لقد بعث صلى الله عليه وسلم ، ليتمم مكارم الأخلاق ،يتممها بشخصه ،وفعله ،ورسالته ،لم تكن مكارم الأخلاق قد تمت من قبل ،حتى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

حقيقة كان الملائكة الذين لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، وكان هناك الأنبياء بأخلاقهم الكريمة ،

كان سيدنا ابراهيم ،الحليم الأواه المنيب ،

وكان سيدنا اسماعيل عليه السلام صادق الوعد ، وكان رسولا نبيا ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ،

وسيدنا عيسى عليه السلام كان عبدا لله آتاه الله الكتاب وجعله نبيا وجعله مباركا أينما كان وأوصاه بالصلاة والزكاة مادام حيا .

ولكن لم يوجد أحد من هؤلاء يصل الى درجة الأخلاق التى وصل اليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ان القرآن الكريم عند مايحسم لنا الأمر بقوله تعالى :

" قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين "

يبين لنا أن الكون كان ناقصا ،لقد كان العالم بحاجة الى أول المسلمين ،

يقول الدكتور عبدالحليم محمود فى كتابه الاسلام والايمان :

كان الكون ناقصا مادة ومعنى ،كان ينقصه أن تتعطر أرضه بأزكى الأجساد ،وأن يتعطر جوّه بأزكى الأرواح ،وكان لابد من وجود كائن بهذه المثابة ، يكمل الله به الدين ،ويتم به النعمة ،ويرضى رسالته دينا عاما خالدا للانسانية أجمع : هو اسلام الوجه لله :

وينزل القرآن محددا اسلام الوجه لله وسائل ،ومحددا اسلام الوجه لله غايات ،

محددا اسلام الوجه لله طرقا وأساليب ،ومحددا له بواعث وأهدافا .

ومن أجل أن الاسلام هو اسلام الوجه لله والتسليم له والاستسلام لما يحبه ويرضاه :

" كان من يبتغي غير الاسلام دينا فلن يقبل منه "

وكيف يقبل منه ما يتنافى مع اسلام الوجه لله ؟

ان اسلام الوجه لله ،هو جوهر التدين ،انه الدين القيم انه الدين الخالد ،والنص الوحيد ،النص الالهى الفريد فى العالم كله

الذى يبين كيفية اسلام الوجه لله ، انما هو القرآن ،

واذا ماوصل الانسان الى اسلام الوجه لله ،كان بذلك فى ذروة الانسانية وفى الذروة من مكارم الأخلاق ،

ويتفاوت الناس فى إسلام وجوههم لله ،ولا بد من أن يكون أحدهم أول ،فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولهم باطلاق مطلق (١) ،

أما لماذا كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أول المسلمين على الاطلاق ؟ ،

فذلك مايوضحه لنا قول السيدة عائشة رضى الله عنها عنه صلى الله عليه وسلم ، وذلك عند ما سئلت عن أخلاقه فقالت: " كان خلقه القرآن " (٢) ،

ومع وضوح قولها فقد يسأل سائل : ان القرآن الكريم يجد عدة درجات للأخلاق الكريمة ،ففى أى درجة كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ان القرآن يحدثنا عن الخلق الكريم فى حده الأدنى ،ويحدثنا عن أسمى مكارم الأخلاق ،

انه يحدثنا عن المقتصد ،

وعن السابق بالخيرات ،

وعن أصحاب اليمين ،

ويتحدث عن المقربين ،ويذكر لنا أن المقربين أقل عددا من أصحاب اليمين فهم ثلة من الأولين ،وقليل من الآخرين ،

---

(١) الاسلام والايمان للدكتور عبد الحليم محمود صـ ٧٦ ـ صـ ٧٧

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه ،وأبوداود فى سننه عن عائشة رضى الله عنها .

أما أصحاب اليمين فهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ،

ونجد فى القرآن الكريم الأمثلة على ذلك :

يقول الله تعالى :

" وجزاء سيئة سيئة مثلها "(١)

ان مقابلة السيئة بالسيئة عدل ،

ولكن مع هذه العدالة هناك درجة أعلى ،وهى :

كظم الغيظ مع القدرة على مقابلة السيئة بسيئة مثلها ،

ثم يرسم لنا القرآن الكريم درجة أعلى درجة ،كظم الغيظ وهى : العفو ،والعفو مع المقدرة أسمى من كظم الغيظ ،

ثم يصل بنا الأمر فى الدائرة القرآنية الى مقام الاحسان ، وهو مقام المقربين .

يقول الله تعالى :

" والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين "(٢)

" وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله "

فماذا كانت تريد السيدة عائشة بقولها :

" كان خلقه القرآن " ؟

ان الدرجة التى وصل اليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكارم الأخلاق ،يقول عنها الله سبحانه وتعالى مخاطبا رسوله :

" وانك لعلى خلق عظيم "(٣)

---

(١) الشورى آية : ٤٠ (٢) آل عمران آية : ١٣٤

(٣) ن آية : ٤

يقول ابن عباس رضى الله عنهما فيما معناه :

" على دين عظيم ، لا دين أحب الى الله ولا أرضى عنه منه ، وهو دين الاسلام "

وقال قتادة :

هو ما كان يأتمره من أوامر الله ، وينتهى عنه مما نهى الله تعالى :

والمعنى : انك على الخلق الذى أمرك الله به فى القرآن ،

وقال الواسطى :

أثنى عليه بحسن قبوله ، لما أسداه اليه من نعمه وفضله بذلك على غيره ، لأنه جبله على ذلك الخلق ،

ويقول صاحب الشفاء :

أثنى عليه بما منحه من هباته وهداه اليه ، وأكد ذلك تتميما للتمجيد بحرفى التأكيد ، فقال تعالى :

" وانك لعلى خلق عظيم "

قيل القرآن :

وقيل الاسلام ،

وقيل الطبع الكريم ،

وقيل ليس لك همة الا الله ا . هـ

لقد تحقق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأكل سورة قول الله تعالى :

" قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك

له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين "

لقد تحقق فيه جوهر الرسالة الاسلامية ،وهو اسلام الوجه لله تعالى ،فكان أول المسلمين ،

واذا كان لنا أن نذكر نماذج من أخلاقه صلى الله عليه وسلم ، فاننا لايسعنا الا أن نذكر صفتين تعتبران من أهم صفاته صلى الله عليه وسلم :

أولاهما : الرحمة ،

وثانيتهما : الشجاعة ،

ولنتحدث عن أولاهما ،فنقول :

الرحمة :

تعتبر الرحمة من أهم أهداف الرسالة الاسلامية ،وقد تمثلت في سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،تمثلا كاملا ، وما كان قول الله سبحانه وتعالى عنه بدعا من القول عند ما خاطبه قائلا :

" وما أرسلناك الا رحمة للعالمين "(١)

لقد شملت رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كل العوالم التي خلقها سبحانه وتعالى ،ولم تقتصر على الأهل أوالأصدقاء ،كما هو المعتاد ، بل ولم تقتصر على بني الانسان فحسب ،بل تعدت رحمته صلوات الله وسلامه عليه الى الحيوان كذلك ،

والله سبحانه وتعالى الذي يصف نفسه بالرحمة في كل شيء كما نرى ذلك في مفتتح كل سورة " بسم الله الرحمن الرحيم " بل وفي مفتتح

(١) الأنبياء : آية : ١٠٧

كل شيء نقول : " بسم الله الرحمن الرحيم "

يقول عنه :

" وكان بالمؤمنين رحيما "

والله " خير الراحمين "(١)، وهو سبحانه " خير الغافرين "(٢)

والله سبحانه وتعالى " كتب على نفسه الرحمة "(٣)

ومن آياته سبحانه وتعالى :

" خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة "(٤)

ويطلب الله سبحانه وتعالى ألا نقنط من رحمته :

" قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم "(٥)

أما اذا قنط الانسان من رحمة ربه فانه يكون من الضالين :

" قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون "(٦)

فان الله هو أرحم الراحمين ،

" قال : رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين "

ان الله سبحانه يصف نفسه بالرحمة فى أكمل معانيها ،فكان رسوله الذى اختاره هداية للعالمين ممثلا لهذه الرحمة فى أكمل معانيها أيضا .

---

(١) سورة المؤمنون آية ١١٨ (٢) سورة الأعراف : ١٥٥
(٣) سورة الأنعام : ٢١٢ (٤) الروم آية : ٢١
(٥) سورة الزمر : ٥٣ (٦) سورة الحجر آية ٥٦

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مخبرا عن نفسه :

" انما أنا رحمة مهداة "(١)

ويروى الامام مسلم في صحيحه :

" قيل يارسول الله : ادع على المشركين "

قال : انى لم أبعث لعانا وانما بعثت رحمة "(٢)

والواقع أن الذى يمثل هذه الصفة فى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق تمثيل قول السيدة خديجة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه البخارى :

" انك لتصل الرحم ،وتحمل الكل ،وتكسب المعدوم ،وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق "

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه رحيما بالصغار ،

رأى أحد الأعراب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل أحد أحفاده ،فقال باستغراب :

" أتقبلون أبناءكم؟ ان لى عشرة من الأولاد ما قبلت واحدا منهم قط "،

فأفهمه صلى الله عليه وسلم باستهجان أن الله قد نزع الرحمة من قلبه .

وكان صلوات الله عليه رحمة بالحيوان :

" مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على بستان رجل من

---

(١) ذكر ابن كثير أسانيد هذا الحديث عند تفسير قوله تعالى :
" وما أرسلناك الا رحمة للعالمين "

(٢) وفيما أخرجه البخارى فى التاريخ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم : " انما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا " ا . هـ

الأنصار فدخل ،فاذا جمل يئن وتذرف عيناه ،فأتاه النبى صلى الله عليه وسلم ، فمسح عليه ،فسكت ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" من رب هذا الجمل " ؟

فجاء فتى من الأنصار فقال :

هذا لى يارسول الله ،

فقال له : ألا تتقى الله عز وجل فى هذه البهيمة التى ملكك الله ؟ انك تجيعه وتؤذيه ،فخجل الأنصارى ،

على أنه اذاكانت هذه صفات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة للرحمة فى شخصه ،فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رحمة مهداة للعالمين ،كان يحث على الرحمة ويدعو اليها ،وماكان قول الله سبحانه وتعالى عنه :

" لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم "

فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم (١) " جزافا من القول ،فان هديه صلى الله عليه وسلم بالنسبة للرحمة كان مستمرا فى كل وقت وفى كل حين .

فى بعض المرات كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث القوم عن الرحمة ويحث عليها فقال له بعض أصحابه :

اننا نرحم أزواجنا وأولادنا وأهلينا

ولكن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أن هذا الفهم

---

(١) التوبة آية : ١٢٨ ، ١٢٩

قاصر عن الصورة التى يريدها فعقب عليهم بقوله :

ماهذا أريد ، انما أريد الرحمة العامة ،

انه يريد أن تتغلغل الرحمة فى كيانهم حتى تصبح طبيعتهم فى حد ذاتها ،

ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى :

" أطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى فانى جعلت فيهم رحمتى ،

ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم : فانى جعلت فيهم سخطى "

ويقول: لا تنزع الرحمة الا من شقى " (١)

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

" الراحمون يرحمهم الرحمن " (٢)

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ، وأبوداود ، والترمذى ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم فى المستدرك ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ،

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ، وأبوداود ، والترمذى ، والحاكم فى المستدرك عن ابن عمر رضى الله عنه .

" أحاديث للرسول صلى الله عليه وسلم فى الرحمة "

" عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت لا هى أطعمتها وسقتها اذ هى حبستها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض "(١)

مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعير قد لصق ظهره ببطنه فقال :

" اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة "(٢)

عن جرير بن عبدالله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من لا يرحم الناس لا يرحمه الله "(٣)

وعن أبى موسى رضى الله عنه : أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : لن تؤمنوا حتى تراحموا "

قالوا : يارسول الله كلنا رحيم ! قال :

" انه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة "(٤)

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" من لم يرحم الناس لم يرحمه الله "(٥)

وقال صلى الله عليه وسلم :

" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا "(٦)

---

(١) رواه البخارى ورواه أحمد من حديث جابر فزاد فى آخره فوجبت لها النار بذلك ، (٢) رواه أبوداود (٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأحمد (٤) رواه الطبرانى (٥) رواه الطبرانى (٦) رواه البخارى ومسلم .

وعن جرير رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" من لايرحم من فى الأرض لايرحمه من فى السماء " (١)

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء " (٢)

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا :

" أتقبلون صبيانكم " ، فقال : نعم ،

قالوا : لكنا لانقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" أو أملك ان كان الله نزع من قلوبكم الرحمة " (٣)

وقال صلى الله عليه وسلم :

" انما صلى أحدكم بالناس فليخفف ، فان فيهم الضعيف ، والسقيم ، والكبير ، واذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ماشاء " (٤)

وعن أبن عمر رضى الله عنهما قال :

" المسلم أخو المسلم : لايظلمه ولايسلمه ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة ، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة " (٥)

وقال صلى الله عليه وسلم : المسلم أخو المسلم : لايخونه ،

---

(١) رواه الطبرانى
(٢) رواه أبوداود والترمذى وابن حبان
(٣) رواه البخارى ومسلم
(٤) رواه البخارى ومسلم
(٥) رواه البخارى ومسلم

ولايكذبه ولا يخذله كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه التقوى هاهنا بحسب المسلم من الشر أن يحقر أخاه المسلم "(١)

وقال : صلى الله عليه وسلم :

" لاتحاسدوا ،ولا تناجشوا ،ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ،وكونوا عباد الله اخوانا ،

المسلم أخو المسلم ،لايظلمه ،ولا يحقره ،ولا يخذله ، التقوى هاهنا ،ويشير الى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ،كل المسلم على المسلم حرام ،دمه ،وماله ،وعرضه "(٢)

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة فى نفسه ،ورحمة فى رسالته ،وختاما نقول ماقال الله تعالى :

" قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ،يهدى به الله من اتبع رضوان سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم "(٣)

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن
(٢) رواه مسلم
(٣) سورة المائدة آية ١٥ ـ ١٦

" هديه صلى الله عليه وسلم فى الجهاد "

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاملا لراية الجهاد فى كل وقت وحين ،لم يتراجع فى موقعة قط ،وكان يقود جيشه بنفسه ، ولايولى يوم الزحف انه صلوات الله وسلامه عليه لم يتراجع يوم أحد ، ولم يهزم فيها ،لقد بقى حتى آخر لحظة يقاتل ،وكسرت رباعيته ،وسالت دماؤه ،وكانوا يتقون به فى المعركة ،

والواقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جهاده كان يحقق الصورة المثلى للآية الكريمة :

" انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون "(١)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحض دائما على الجهاد ويأمر به ولتحقيق كلمة الاسلام وجعلها هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ،

مر رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب فيه عيينة ماء عذبة فأعجبته فقال :

لواعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب : ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال :

لاتفعل ،فان مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته

---

(١) الحجرات آية : ١٥

في بيته سبعين عاما ،ألاتحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ إ أغزوا في سبيل الله ،من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة (١)

وروى أبوداود باسناد جيد عن أبي أمامة رضى الله عنه :

أن رجلا قال : يارسول الله : ائذن لي في السياحة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم :-

ان سياحة أمتي : الجهاد في سبيل الله عز وجل (٢)

وروى أبوداود - باسناد صحيح - عن أبي موسى رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ،كان اذا خاف قوما قال :

" اللهم انا نجعلك في نحورهم ،ونعوذ بك من شرورهم " (٣)

ولكن هل المقصود بالجهاد الجهاد الحربي فقط ؟

أوالمقصود كل أنواع الجهاد ؟

الواقع أننا اذا نظرنا الى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم نجد أنواعا أخرى من الجهاد :

" جهاد الحاكم اذ لم يقم بمراعاة الحدود والمحافظة على الشريعة الاسلامية "،

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر " (٤)

ومن أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "

---

(١) رواه الترمذي (٢) رواه أبوداود (٣) رواه أبوداود

(٤) رواه الترمذي وأبوداود

روى الترمذى عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

" والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ،ولتنهون عن المنكـــر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم "(١)

ومن أفضل الجهاد ابعاد المجتمع عن المهالك ،

روى الامام البخارى عن النعمان بن بشير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا علـى سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ،وكان الذين فى أسفلهـا اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : " لو أنا فرقنـــا فى نصيبنـــا خرقا ولم نؤ ذ من فوقنا ،فان تركوهم وما أرادوا هلكـوا جميعا ،وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا "(٢)

وأخيرا فاننا مطالبون بالجهاد فى كل وقت وحين ،تأسيا بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلا وقلبا وقولا .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ،فان لم يستطع فبلسانـــه ، فان لم يستطع فبقلبه ،وذلك أضعف الايمان "(٣)

---

(١) رواه الترمذى (٢) رواه البخارى
(٣) رواه مسلم .

" المعجزات الحسية لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم "

وصل المشركون الى حد الاستهزاء بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم :

" أهذا الذى بعث الله رسولا " ؟

رغم ماعرفوه من أخلاقه الحميدة ، التى سبق أن ذكرنا قسما منها ، ورغم ماعرفوه عن كثير من معجزاته الحسية التى سنذكر الآن بعضا منها .

حادثة انشقاق القمر :

قال الله تعالى :

" اقتربت الساعة وانشق القمر "

وقد أخرج الشيخان (١) عن أنس قال :

" ان أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر مرتين "

وأخرج الشيخان عن ابن مسعود قال :

انشق القمر بمكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" اشهدوا "

وأخرج الشيخان عن ابن مسعود قال :

" انفلق القمر ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) البخارى ومسلم

فصار فرقتين فلقة من وراء الجبل وفلقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" اشهدوا "

وأخرج البيهقي ، وأبو نعيم ، عن جبير بن مطعم قال :

انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى صار فرقتين على هذا الجبل ، وعلى هذا الجبل فقال الناس:

" سحرنا محمد ، فقال رجل :

ان كان سحركم فلم يسحر الناس كلهم ،

وأخرج الشيخان عن ابن عباس :

أن القمر انشق على زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وأخرج أبو نعيم — من طريق عطاء والضحاك — عن ابن عباس قال :

اجتمع المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا :

ان كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين نصفا على أبي قبيس ، ونصفا على قعيقعان — وكانت ليلة بدر — فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يعطيه ما سألوا فأمسى القمر نصفين نصفا على أبي قبيس ، ونصفا على قعيقعان ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

اشهدوا "

وأخرج من وجه آخر عن الضحاك عن ابن عباس :

أنه صار فرقتين احداهما : على الصفا ، والأخرى على المروة

قدر مابين العصر الى الليل ،ينظرون اليه ثم غاب ،

يقول الامام السيوطى :

قال العلماء : انشقاق القمر آية عظيمة ،آية عظيمة ،لايكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء ،وذلك أنه ظهر فى السماء خارجا من جملة طباع مافى هذا العالم المركب من الطبائع ،فليس مما يطمع فى الوصول اليه بحيلة ،فلذلك صار البرهان به أظهر (١)

هذا عن حادث شق القمر وقد تواردت فيه الروايات بما يفيد لنا أن أمره كان ظاهرا واضحا لالبس فيه ،وأنه كان تحت أعين المشركين ،ولكنهم عتوا واستكبروا ، واستمروا فى طغيانهم .

عصمته من الناس :

أخرج الترمذى ،والحاكم ،والبيهقى ،وأبونعيم ،عن عائشة قالت: كان النبى صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية : " والله يعصمك من الناس " (٢)

فأخرج رأسه من القبة فقال : لهم :

" ياأيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله "

وأخرج أحمد ،والطبرانى ،وأبونعيم ،عن جمدة قال :

شهدت النبى صلى الله عليه وسلم وأتى برجل فقيل : هذا أراد أن يقتلك ،

(١) الخصائص الكبرى أوكفاية الطالب اللبيب فى خصائص الحبيب للحافظ جلال الدين عبدالرحمن ابى بكر السيوطى جـ ١ صـ ٣١٤

(٢) المائدة آية ٦٧

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لن تراع ولن تراع لو أردت ذلك لم يسلطك الله علىّ

وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال :

قال أبوجهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل : نعم

فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ، أو لأعفرن وجهه فى التراب ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يصلى ليطأ على رقبته ، فما فجأهم منه الا وهو ينكص على عقبيه يتقى بيديه ، فقيل له مالك ؟ قال :

ان بينى وبينه خندقا من نار وهولا وأجنحة فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لودنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا ، وأنزل الله ،

" كلا ان الانسان ليطغى " الى آخر السورة (١)

بعض المعجزات الأخرى :

أخرج ابن أبى شيبة ، وأبويعلى ، والدارمى ، والبيهقى ، وأبونعيم من طريق الأعمش عن أبى سفيان عن أنس قال :

جاء جبريل الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو خارج من مكة قد خضبه أهل مكة بالدماء ، فقال : مالك ؟

قال خضبنى هؤلاء بالدماء فعلوا وفعلوا ،

قال : تريد أن أريك آية ؟ قال : نعم ادع تلك الشجرة فدعاها فجاءت تخط الأرض حتى قامت بين يديه ، فقال مرها فلترجع قال :

---

(١) العلق آية : ٦ ـ ١٩

ارجعي الى مكانك ،فرجعت الى مكانها قال حسبي (١)

در الجذعة للبن :

أخرج الطيالسي ،وابن سعد ،وابن أبي شيبة ،والبيهقي وأبونعيم ،عن ابن مسعود قال :

كنت غلاما يافعا أدعي عتبة لعقبة ابن أبي معيط بمكة ،فأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وأبوبكر ،وقد فرّا من المشركين ،فقالا :

ياغلام عندك لبن تسقينا ؟

قلت : اني مؤتمن ،

فقالا : هل عندك من جذعة لم ينزل عليها الفحل بعد ؟

قلت : نعم ،فأتيتهما بها فاعتقلها ودعا فجفل الضرع فأتاه أبوبكر بصخرة مقعرة ،فحلب فيها ثم شرب هو وأبوبكر وسقاني ، ثم قال للضرع : اقلص فقلص كما كان (٢)

معجزته صلى الله عليه وسلم في الجذعة التي أطعم منها أربعين رجلا من قومه :

أخرج ابن اسحاق ،والبيهقي ،من طريقة حدثني من سمع عبدالله ابن الحارث بن نوفل ،عن ابن عباس ،عن علي بن أبي طالب قال :

لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" وأنذر عشيرتك الأقربين " (٣)

---

(١) الخصائص الكبرى للسيوطي جـ ١ صـ ٣٢

(٢) الخصائص الكبرى للسيوطي جـ ١ صـ ٣٠٣

(٣) الشعراء آية : ٢١٤

قال : ياعلى اصنع لنا رجل شاة على صاع من طعام وأعدلنا عس لبن ثم اجمع بنى عبدالمطلب ففعلت فاجتمعوا له وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أوينقصونه فيهم أعمامه أبوطالب ،وحمزة ،والعباس ،وأبولهب ، فقدمت اليهم تلك الجفنة ،فأخذ منها رسول الله صلى الله عليه وسلم حذية فشقها بأسنانه ،ثم رمى بها فى نواحيها ،وقال كلوابسم الله ، فأكل القوم حتى نهلوا عنه مانرى الا آثار أصابعهم ،والله ان كان الرجل منهم يأكل مثلها ثم قال :

اسقهم ياعلى ،فجئت بذلك القعب فشربوا منه ، حتى نهلوا جميعا ، وأيم الله ان كان الرجل منهم ليشرب مثله ،فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بدره أبولهب الى الكلام فقال :

لقد سحركم صاحبكم ،فتفرقوا ،ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فلما كان الغد قال :

ياعلى عدلنا بمثل الذى صنعت بالأمس من الطعام والشراب ، ففعلت ثم جمعتهم له فصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،كما صنع بالأمس ، فأكلوا وشربوا حتى نهلوا ،ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يابنى عبدالمطلب ،انى والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ،انى قد جئتكم بأمرالدنيا والآخرة ،

أخرجه أبونعيم من طريق ابن اسحاق عن عبدالغفار بن القاسم عن المنهال ابن عمرو عن عبدالله بن الحارث بن نوفل به (١) .

---

(١) الخصائص الكبرى للسيوطى جـ ١ صـ ٣٠٧

" تتمـــــــة تتعلـــــق :

بالجـــــــزاء

ووووووووووووووووووووووووو

" تتمـــة تتعلـــــق بالجـــــزاء "

عند ما نتحدث عن الجزاء ونجعله تتمة للبابين السابقين فانما نتحدث عنه باعتباره نتيجة للايمان بهذين المبدأين الهامين : الألوهيـة ، والنبوة ،

وتأتى أهمية هذه التتمة أيضا لتعظيم الله سبحانه وتعالـى لتكذيبهم بالساعة ،

" بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا "(١)

ويشمل التهديد أيضا تصوير سورة الفرقان لجو الآخرة بالنسـبة لمن لا يؤمن بالله ، ولا برسوله صلى الله عليه وسلم :

اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ،

واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا ،

ولا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا "(٢) ،

ثم يقارن الله سبحانه وتعالى موقف الكافرين بموقف المؤمنين :

قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جـــزاء ومصيرا ،

لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا "(٣)

هذا التصدير القرآنى لجو الحياة الآخرة ، يدعونا الى أن نكتـب هذه التتمة عن الحياة الأخرى ،

وقبل أن نشرع فى تفسير الآيات المتعلقة بهذا الموضوع نعلـق

(١) الفرقان آية : ١١ . (٢) الفرقان آية ١٢ ـ ١٤
(٣) الفرقان آية : ١٥ ، ١٦

بمقدمة عن الجزاء الأخـروى :

الحيـــاة :

الحياة تعلق الروح بالبدن واتصاله به (١)

أوهى الصفة التى يكون الموصوف بها ذا علم وقدرة (٢)

هذه هى الحياة فى تعاريف العلماء ،والواقع أن الله سبحانه وتعالى خلقنا فى هذه الحياة الدنيا لنعرف كمال قدرته ،واحاطة علمـــه ، فنعبده وحده لا شريك له ،فانه خلقنا من بطون أمهاتنا ،لانعلم شيئـــا ، ولا نقدر على شىء ،ولا نملك شيئا ،ولا نقدر على منع ضر ،ولا دفع شـــر ، ثم مكننا الله سبحانه وتعالى من هذه الحياة الدنيا ،وسخر لنا ما فـــى بحرها وبرها وجوها ،وجعل لنا السلطان على دواب الماء وعلمنا مالم نكن نعلم ،

ومع ذلك كفرنا بنعم الله ،ولم نضع فى اعتبارنا : أنه لم يخلقنـا الا لنعبده وحده لا شريك له (٣) ،بل اندفعنا وراء شهواتنا ،ووراء مصالحنـا الدنيوية اندفاعا أنسانا كل ما يتعلق بحق الله ،سبحانه وتعالى ،وجعلنا الحياة الدنيا هى كل مطلبنا ،وهى الأمل الذى تهفو اليه النفـــوس فى كل وقت وحين ،ونسينا الحياة الآخرة التى هى الحيوان لوكنا نعلم ،

روى الامام أحمد فى مسنده ــ من حديث بشر بن جحاش القرشى ــ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،بصق يوما فى كفه ،فوضع عليها اصبعه ، ثم قال : قال الله تعالى :

" يابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك

---

(١) من تفسير فتح البيان جـ ٤ صـ ٦١١

(٢) من تفسير الفخر الرازى جـ ٢٠ صـ ٥٤

(٣) " وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون "

وهـ دلتك مشيت بين بردين ،وللأرض منك وئيـد ،فجمعت ومنعت ، حـتى اذا بلغت التراقى قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة (١)

والواقع : ان الانسان ليطغى ،أن رآه استغنى ،فينسى أصله ، ويكذب بالحسنى ،ويجهل أنه راحل من هذه الدنيا الى الحيـــــاة الأخرى ،

عن أبى الدرداء رضى الله عنه ،عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

" لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه ،الفقر ،والمرض ،والمـــوت ، وانه مع ذلك لوثاب " (٢)

وفى شرح الصدور للسيوطى بسنده ،الى ابن أبى شيبة فـــى مصنفه ،والامام أحمد فى كتاب الزهد ،عن حبيب بن الشهيد ،عـــن الحسن ،قال :

لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة :

ان الأرض لاتسعهم ،

قال انى جاعل موتا ،

قالوا : اذا لايهنأ لهم العيش ،

قال : انى جاعل أملا (٣)

وعن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يهرم ابن آدم ويبقى معه : اثنتان : الحرص ،وطول الامل (٤)

---

(١) مسند الامام أحمد بن حنبل جـ ٤ صـ ١٢٠

(٢) أنظر تفسير القرطبى جـ ١٨ صـ ٢٠٦

(٣) أخرجه الامام أحمد وابن أبى شيبة (٤) البخارى ومسلم فى صحيحتيهما

وعن الامام على كرم الله وجهه يرفعه :

ان أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل (١)

فان اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الأمل يقرب الدنيا ويبعد الآخرة ، ولايدرى الانسان أن الموت أقرب اليه من حبل الوريد ،

ويوضح لنا ذلك الامام الحسن البصرى بقوله :

من أراد الدنيا على الآخرة عاقبه الله بست عقوبات :

ثلاث فى الدنيا ، وثلاث فى الآخرة .

أما التى فى الدنيا ، فأمل ليس له منتهى ، وحرص غالب ليس له حد ، وأخذ منه حلاوة العبادة .

وأما التى فى الآخرة :

فهول يوم القيامة ، والحساب الشديد ، والحسرة الطويلة (٢)

وقد بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن طول الأمل فى الدنيا مذموم ، ويؤدى الى أن ينسى الانسان آخرته ويغتر بدنياه :

" كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك فى أهل القبور " (٣)

---

(١) فى الصحيحين ، والنسائى ، وأحمد

(٢) من كتاب المنبهات لمؤلفه أحمد محمد الحجى ،

(٣) روى أوله البخارى ، وآخره الامام أحمد والترمذى وابن ماجه ، وفى رواية : وعد نفسك من أهل القبور ، كما جاء فى مجمع الزوائد .

الموت :

يقول الله تعالى :

" الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى "(١)

وقد بين لنا العلماء حقيقة الموت أخذا من النصوص الشرعية ، والبراهين العقلية ، فهو ليس بعدم محض ، ولا فناء صرف ، وانما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ظاهرا وباطنا ، ومفارقة وحيلولة بينهما ، وتبدل من حال الى حال ، وانتقال من دار الى دار ، بخلاف النوم ، فانه انقطاع الروح عن ظاهر البدن من بعض الوجوه(٢)

يقول الامام ابن عباس فى تفسير قوله تعالى :

" الله يتوفى الأنفس " .. الآية

تلتقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات فى المنام فيتساءلون ماشاء الله ، ثم يمسك الله أرواح الأموات ، ويرسل أرواح الأحياء الى أجل مسمى ، لايخلط شىء منها ، فذلك قوله تعالى :

" ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون "(٣)

حقيقة الروح :

اختلف العلماء فى حقيقة الروح ، فريق أمسك عن الكلام والبحث فيها واعتبرها سرا من أسرار الله سبحانه وتعالى ، استأثر الله بعلمه

---

(١) الزمر آية : ٤٢

(٢) أنظر شرح الصدور ، ومشرى الكئيب للسيوطى صـ ١ ـ صـ ١٢

(٣) أخرجه بن مردويه ، وعبد ابن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ فى العظمة ،

ولم يؤته أحدا من البشر ،واستدلوا على ذلك بقوله تعالى :

" قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا "(١)

وعن ابن مسعود رضى الله عنه وأرضاه قال :

كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى قرب المدينة ،وهى متكىء على عسيب ،فمر بقوم من اليهود فقال فى بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ،

فقال بعضهم لا تسألوه ،فقالوا يامحمد ماالروح ؟

فمازال متكئا على العسيب فعلمت أنه يوحى اليه ،فقال :

" ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا "(٢)

ومن هذه الطائفة أيضا الجنيد رضى الله عنه ،يقول :

الروح شىء استأثر الله تعالى بعلمه ،فلم يطلع عليه أحدا من خلقه ، فلا يجوز لعباده البحث عنه بأكثر من أنه موجود .

وقد ثبت هذا الرأى عن الامام ابن عباس رضى الله عنهما ،أنه كان لا يفسر الروح ،فعن عكرمة قال :

سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الروح ،قال :

الروح من أمر ربى لاتنالوا هذه المسألة ،فلا تزيدوا عليها ،قولوا كما قال الله تعالى وعلم نبيه :

" وما أوتيتم من العلم الا قليلا "(٣)

أما الطائفة الثانية التى عرفت الروح فيعبر عنها الامام ابن القيم بقوله

---

(١) الاسراء آية : ٨٥ (٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى الصحيحين

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم كما فى شرح الصدور .

فى كتابه الروح :

والصحيح أن الروح جسم مخالف بالماهية ،لهذا الجسم المحسوس وهو ـ أى الروح ـ جسم نورانى علوى خفيف ،حى متحرك شفاف ،ينفذ فى جوهر الأعضاء ،ويسرى فيها سريان الماء فى العود الأخضر ،وسريان الماء فى الورد ،والدهن فى الزيتون ،والنار فى الفحم ،فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف ،بقى هذا الجسم اللطيف متشابكا بهذه الأعضاء وأفادها هذه الأثار من الحس والحركة ،والارادة

واذا فسدت هذه الأعضاء بسبب ينافى الروح كاستيلاء الأخلاط الغليظة عليها ،وخرجت عن قبول تلك الأثار فارق الروح البدن ،وانفصل الى عالم الأرواح ا ٠ هـ

والواقع أن الرأى الأول هو الرأى الراجح فى نظرنا وهو يمثل الجو الاسلامى العام ،فالله سبحانه وتعالى اعتبرها من أمره ،ولم يبين ماهيتها ،ولم يخبر بهذا رسوله صلى الله عليه وسلم ،فلا ندرى حقيقتها ولا كنهها ٠

" البعـــث "

ادعى المشركون والملحدون على مر العصور أنه لايوجد بعث بعد هذه الحياة الدنيا ، فكان قولهم دائما :

" زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا "(١)

" أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد "(٢)

" ومن يحيي العظام وهي رميم "(٣)

" وقالوا ماهي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر "(٤)

وكان رد الله سبحانه وتعالى مبطلا لزعمهم وزيف ادعائهم :

" قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير "

" اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم ان الله سريع الحساب "(٥)

فالبعث كائن لامحالة ، وهو النشأة الآخرة ، التي يرجع فيهـــا الانسان الى الله سبحانه وتعالى ، فيحاسب على حياته التي أمضاها ، ففيه يكون سعادة الانسان أوشقاؤه خالدا في أحدهما ومدى ما عليـــه ، وقد بين لنا القرآن كيفية البعث عند الموت ، وكيفيته عند قيام الساعـــة ، يقول الله سبحانه وتعالى :

" وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه "(٦)

ويقول : " ثم انكم يوم القيامة تبعثون "(٧)

ويقول : " فاذاهم من الأجداث الى ربهم ينسلون "(٨)

---

(١) التغابن آية : ٧ (٢) الرعد آية : ٥

(٣) يس آية : ٧٨ (٤) الجاثية : ٢٤

(٥) غافر آية : ١٧ (٦) الروم آية : ٢٧

(٧) المؤمنون آية : ١٦ (٨) يس آية : ٥١

ويقول :

فسيقولون من يعيدنا ؟ قل : الذى فطركم أول مرة (١)

ويقول :

" أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه " (٢)

ويقول : " كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين " (٣)

وقد ذكرت لنا الأحاديث النبوية الشريفة كثيرا مما يتعلق بهذا الشأن نذكر منها :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

جاء العاص بن وائل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ففته بيده فقال :

يامحمد أيحيى الله هذا بعد ما أرى ؟

قال : نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم فنزلت الآيات من آخر سورة يس :

" أولم ير الانسان " الى آخر السورة (٤)

وعنه رضى الله عنهما قال :

قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال :

" ياأيها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا انا كنا فاعلين " (٥)

وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت : فقلت الرجال والنساء

---

(١) الاسراء آية : ٥١ (٢) القيامة آية ٣ ، ٤ (٣) الأنبياء آية : ١٠٤

(٤) أخرجه بن جرير وابن المنذر وأبو حاتم والاسماعيلى فى معجمه والحافظ بن مردويه والضياء فى المختارة والبيهقى فى البعث كما فى اللوامع جـ٢ ص١٥٨

(٥) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ،

جميعا ينظر بعضهم الى بعض ؟

قال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك ،

نفخة الصور الأولى :

وهي نفخة الفزع ،والتي بها تنتهي أحوال العالم :

" ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض الا من شاء الله " (١)

ويوضح لنا الحديث الشريف التالي : ما يحدث من هول ذلك اليوم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ان الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخصا ببصره الى العرش ينتظر متى يؤمر ،

قلت : يارسول الله وماالصور ؟

قال : القرن ،

قلت : أي شيء هو ؟

قال : عظيم ان عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات :

الأولى : نفخة الفزع ،والثانية : نفخة الصعق ، والثالثة : نفخة القيام لرب العالمين ،

فيأمر الله اسرافيل بالنفخة الأولى ،فيقول : أنفخ نفخة الفزع ،

---

(١) النمل آية : ٨٧

فينفخ فيفزع أهل السماء والأرض الا من شاء الله ،فيأمره فيمدها ويطيلها ، ولا يفتر وهى التى يقول الله تعالى :

" وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق "(١)

، فيسير الله الجبال فتمر مر السحاب ،فتكون سرابا وترتج الأرض بأهلها رجا فتكون كالسفينة الموقرة فى البحر تضربها الأمواج ،وكالقنديل المعلق بالعرش تؤرجحه الأرواح ،وهى التى يقول الله عنها :

" يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة "(٢)

فتميل الأرض بالناس على ظهرها فتذهل المراضع ،وتضع الحوامل ،وتشيب الولدان ،وتطير الشياطين هاربة من الفزع ،حتى تأتى الأقطار فتتلقاها الملائكة ، تضرب وجوهها فترجع ويولى الناس مدبرين ، وينادى بعضهم بعضا ،وهو الذى يقول الله تعالى :

" يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم "(٣)

فبينما هم على ذلك اذ تصدعت الأرض ،فانصدعت من قطر الى قطر ،فرأوا أمرا عظيما ، ثم نظروا الى السماء ،فاذا هى كالمهل ثم انشقت فانتثرت نجومها وانخسفت شمسها وقمرها ،

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأموات يومئذ لا يعلمون بشىء من ذلك ،

قلت يارسول الله من استثنى الله تعالى فى قوله :

" الا من شاء الله " ؟

قال أولئك الشهداء ـ انما يتصل الفزع الى الأحياء ،وهم أحياء

---

(١) سورة ص آية ١٥ (٢) النازعات آية : ٦ ، ٧

(٣) غافر آية : ٣٢ ، ٣٣

عند ربهم يرزقون ،وقاهم الله فزع ذلك اليوم ،وآمنهم منه ،وهو عذاب يبعثه الله على أشرار خلقه ،يقول الله :

" يأيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم ،يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ،وتضع كل ذات حمل حملها ،وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد "(١)

فيمكثون فى ذلك ماشاء الله(٢)

النفخة الثانية :

وهى نفخة الصعق ،وهى المشار اليها فى قوله تعالى :

(ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله)(٢)

ويوضحها بقية الحديث المتقدم ذكره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ثم يأمر الله اسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات والأرض الا من شاء الله ،فيقول الله — وهو أعلم — فمن بقى ؟

فيقول أى رب بقيت أنت الحى القيوم ،الذى لايموت ، وبقيت حملة العرش ،وبقى جبريل ،وميكائيل ،وبقيت أنا فيقول الله تعالى :

فليمت جبريل وميكائيل فيموتان ،ثم يأتى تلك الموت الى الجبار فيقول : " رب قد مات حملة العرش ،فيقول : وهو أعلم فمن بقى ؟ فيقول

---

(١) أول الحج آية ١ — ٢

(٢) من حديث طويل وهو مخرج فى تفسير ابن جرير والطبرانى فى المطولات وفى مسند أبى يعلى وفى البعث للبيهقى وفى المطولات لابى موسى المدنى وفى كتاب الطاعة والعصيان لعلى ابن معبد وعبد بن حميد وأبى الشيخ فى العظمة كلهم عن أبى هريرة ،ينظر فى ذلك النهاية لابن كثير جـ ١ صـ ١٧٢ واللوامع جـ ٢ صـ ١٦١ (٣) الزمر آية : ٦٨

أنت الحي القيوم ،الذى لايموت ،وقيت أنا ،فيقول أنت خلق من خلقني خلقتك لما رأيت ،فمت فيموت ،فاذا لم يبق الا الله الواحد القهار ، وطوى السماء والأرض كطى السجل للكتب ،وقال :

أنا الجبار ،لمن الملك اليوم ،ثلاث مرات ،فلم يجبه إحد ثم يقول لنفسه : "لله الواحد القهار"

وتبدل الأرض غير الأرض والسموات فيبسطها ويمدها مد الأديم لاترى فيها عوجا ولا أمتا "الحديث"(١)

الحشر :

والحشر معناه الجمع أى جمع أجزاء الانسان بعد التفرقة واحياء الأبدان بعد موتها وحضورها للحساب .

يقول الله تعالى :

"يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا"(٢) ،أى زمرا تسوقهم الملائكة

ومما يشرح ذلك ،قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة ، شاخصة أبصارهم ينتظرون فصل القضاء .(٣)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه :

يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعا ويلجمهم العرق حتى يبلغ آذانهم(٤)

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم بروايات أخرى ،وأخرجه بنحوه أيضا ابن ماجه وأبوداود ، باب الرؤية . (٢) آية ١٨ من سورة النبأ

(٣) أخرجه ابن ابى الدنيا والطبرانى من عدة طرق احدها صحيح والحاكم وقال صحيح الاسناد . (٤) ورد فى الصحيحين .

وعن المقداد رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

اذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين قال :

فتصهرهم الشمس فيكونون فى العرق كقدر أعمالهم ،

منهم من يأخذه الى عقبيه ،

ومنهم من يأخذه الى حقويه ،

ومنهم من يلجمه الجاما (١)

ومن أوصاف بعض من يحشر يوم القيامة التى ذكرها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف من المتكبرين ،

عن جابر رضى الله عنه مرفوعا :

يبعث الله يوم القيامة ناسا فى صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم فيقال : ماهؤلاء فى صور الذر ؟

فيقال : هؤلاء المتكبرون فى الدنيا (٢) ،

وعن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا

يجاء بالجبارين والمتكبرين يوم القيامة رجال فى صورة الذر يطؤهم الناس من هوانهم على الله ، حتى يقضى بين الناس ، قال :

ثم يذهب بهم الى نار الأنيار ، قيل يارسول الله ومانار الأنيار؟

قال : عصارة أهل النار (٣) .

---

(١) مسلم ومثله عن أبى بكر بن أبى الدنيا من رواية المقداد بن الأسود كما فى النهاية لابن كثير جـ ١ ص ٢٢٣ ،

(٢) رواه البزار (٣) الامام أحمد فى كتاب الزهد كما فى نهاية ابن كثير جـ ١ ص ٢٢٧

النفخة الثالثة :

وهى نفخة البعث والنشور ويقول عنها الله سبحانه وتعالى :

" ونفخ فى الصور فاذاهم من الأجداث الى ربهم ينسلون "(١)

ويقول الله تعالى :

" ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون "(٢)

" يوم ينادى المنادى "(٣)

" يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج "(٤)

ولأبى هريرة حديث فى ذلك :

ان الله يرسل مطرا على الأرض ،فينزل عليها أربعين يوما حتى يكون فوقهم اثنى عشر زراعا فيأمر الله تعالى الأجساد أن تنبت كنبات البقل حتى اذا تكاملت أجسادهم ،كما كانت ،قال الله تعالى :

" ليحى حملة العرش ،ليحى جبريل ،وميكائيل ،واسرافيل ،وعزرائيل ،

ثم يأمر الله تعالى اسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ،ثم يدعو الأرواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نورا ،والأخرى ظلمة فيقبضها جميعا ،

ثم يلقيها فى الصور ثم يأمره ،أن ينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح كلها كأنها النحل ،قد ملأت ما بين السماء والأرض ،ثم يقول الله تعالى :

" وعزتى وجلالى لترجعن كل روح الى جسدها " فتدخل الأرواح من الخياشيم ،ثم تمشى مشى السم فى اللديغ ،ثم تنشق الأرض عنهم سراعا فأنا أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها ،الى ربكم تنسلون ،أى تخرجون

---

(١) يس آية ٥١ (٢) الزمر آية : ٦٨

(٣) ق آية : ٤١ (٤) ق آية : ٤٢

من الأجداث أحياء ،فيقول الكافرون والمنافقون حينئذ :

" ياويلنا من بعثنا من مرقدنا "(١)

ويقول المؤمنون :

" هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون "(٢)

---

(١) يس آية : ٥٢

(٢) الحديث شواهد مخرجة في الصحيحين وغيرهما ، كما تؤيده الآيات القرآنية الكثيرة .

الحســـــــاب :

الحساب هو تعريف الله عز وجل الخلائق ،مقادير الجزاء على أعمالهم ،وتذكيره اياهم ما قد نسوه من ذلك (١)

وقد ثبت في القرآن الكريم بقول الله تعالى :

" فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون " (٢)

وقوله تعالى :

" أولئك لهم سوء الحساب " (٣)

وقوله تعالى :

" ووجدوا ما عملوا حاضرا " (٤)

وقول الله تعالى :

" فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ،ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " (٥)

وأصح الأقوال أن الله تعالى يحاسب عباده في شأن أعمالهـــم وثوابها وعقابها .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلـــم قال :

" لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسـأل عن أربع خصال :

عن عمره فيما أفناه ،وعن علمـه وما عمل به ،وعن ماله من أيـــن اكتسبه وفيما أنفقه ،وعن جسمه فيما أبلاه " (٦)

---

(١) قاله الثقلي كما في اللوامع جـ ٢ صـ ١٧١
(٢) سورة الحجر آية : ٩٢ ، ٩٣ (٣) الرعد آية : ١٨
(٤) الكهف آية : ٤٩ (٥) الزلزلة آية : ٧ ، ٨
(٦) رواه الامام أحمد بن أبي الدنيا .

وعن عبدالله بن أنيس رضى الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

يحشر الله العباد يوم القيامة ، أو قال الناس : عراة غرلا بهما ،

قال قلنا وما بهما ؟

قال : ليس معهم شيء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الديان ، لاينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقضيه منه حتى اللطمة ،

قال : وكيف وانما نأتي عراة غرلا بهما ؟

قال : الحسنات والسيئات (١)

وعن الحسن قال : سمعت أبا موسى الأشعري رضي الله عنه يقول :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فعرضتان جدال ومعاذير ، وعرضة تطاير الصحف :

" فمن أوتي كتابه بيمينه وحوسب حسابا يسيرا دخل الجنة ، ومن أوتي كتابه بشماله دخل النار " (٢)

الميزان

واذا نقص الحساب كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فاذا كان بعد المحاسبة ، اذ المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن لاظهار

---

(١) رواه الامام احمد والترمذي وأبو بكر
(٢) الامام أحمد والترمذي وابن أبي الدنيا ولكنه ضعيف انظر هامش العقيدة الطحاوية .

فى الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم "

وعن أنس رضى الله عنه قال : سألت النبى صلى الله عليه وسلم أن يشفع فى يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل "

قلت : يارسول الله ، فأين أطلبك ؟

قال : أطلبنى أول ما تطلبنى على الصراط "

قلت فان لم ألقك على الصراط ؟

قال : فاطلبنى عند الميزان "

قلت: فان لم ألقك ؟

قال : فاطلبنى عند الحوض ، قال : فانى لا أخطىء هذه الثلاثة المواطن "(١)

وصح " أن المؤمنين اذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض ، فاذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة "(٢)

---

(١) أخرجه الترمذى وحسنه والبيهقى

(٢) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

" حقيقة الجنة "

والجنة التى وعد المتقون هى دار الثواب أعدها الله لهم وهى فى الأصل مأخوذة من الجن بمعنى الستر وتطلق على البستان الذى سترت أشجاره أرضه وعلى الأرض التى بها شجر ونخل، كما تطلق نفس الشجر ثم صارت علما على دار الثواب التى فيها من أنواع النعيم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

وجمعت الجنة جمع قلة لقلتها عددا مع اشتمال كل واحدة منها على درجات متفاوتة بحسب تفاوت درجات الأعمال .

وقد ورد أنها سبع جنات هى الفردوس والمأوى والخلد والنعيم ودار السلام ودار الاجلال وهذا رأى ابن عباس .

وذهب آخرون الى أنها أربع فقط بدليل قوله تعالى فى سورة الرحمن (ولمن خاف مقام ربه جنتان) هما النعيم والمأوى .

ثم قال تعالى : (ومن دونهما جنتان) عدن والفردوس .

وقيل الجنة واحدة والأسماء المتقدمة صادقة عليها والحق الذى يجب الايمان به أن الجنة هى دار الثواب التى وعدها الله عباده الصالحين .

أما أنها واحدة أو أكثر فهذا بحث لايترتب عليه كبير فائدة ولم يرد فى ذلك نص صريح أو مسند صحيح .

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الجنة بقوله :

(تجرى من تحتها الأنهار)

يتحدث عن النعيم الذى يلاقيه أهلها بقوله :

" على سرر موضونة "

" متكئين عليها متقابلين "

" يطوف عليهم ولدان مخلدون "

" بأكواب وأباريق وكأس من معين "

" لا يصدعون عنها ولا ينزفون "

" وفاكهة مما يتخيرون "

" ولحم طير مما يشتهون "

" وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون "

" جزاء بما كانوا يعملون "

" لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما سلاما "

ويتحدث عنهم أيضا بقوله :

" في سدر مخضود "

" وطلح منضود "

" وماء مسكوب "

" وفاكهة كثيرة "

" لا مقطوعة ولا ممنوعة "

" وفرش مرفوعة "

" انا أنشأناهن انشاء "
" فجعلناهن أبكارا "
" عربا أترابا "

" لأصحاب اليمين "

حقيقـــة جهنم :

ولقد أخبر سبحانه أنه أعد للمنافقين والمشركين جهنم لتكون لهم دار عذاب مقيم خالدين فيها وساء هذا العقاب جزاء لهم لسوء صنيعهم وساءت جهنم لهم مصيرا ،

وجهنم اسم من أسماء النار الأخروية وتسمى أيضا سعيرا وتسمى لظى وتسمى سقر ،وتسمى الهاوية وتسمى الجحيم ،وتسمى الحطمة ،

وقيل ان هذه أسماء لطبقات متفاوتة فى النار لكل طبقة طائفة خاصة ،وليس لهذا القول مستند فى اختصاص كل اسم بطبقة معينة ،ولا فى اختصاص كل طبقة بطائفة وكونها درجات متفاوتة فى أنواع العذاب لايستلزم أن هذه أسماء لطبقات مختلفة ،

فالواجب اعتقاده أن لله تعالى دار عقاب أعدها للمنافقين والمشركين ليخلدوا فيها وسيعذب بها من شاء من عصاة المؤمنين قبل أن يدخلهم الجنة .

وقد صرح القرآن الكريم أن للنار سبعة أبواب لكل باب طائفة خاصة من العصاة (وان جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم .

وقد عين قوم لكل باب فريقا من العصاة يدخلون منه ،ولا سبيل الى القطع فى مثل ذلك :

" وجود الجنة والنـــار "

وقد ذهب الجمهور الى أن الجنة والنار موجودتان الآن لأن هذا هو

المتبـــادر من قوله تعالى فى صفة النار :

" وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا " ،

" واتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين "

وقوله تعالى فى صفة الجنة :

" وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين "

" سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله " ، حيث عبر فى جميعها بالماضى وهو " أعدت " ،

وقوله تعالى :

" النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة أدخلـــوا آل فرعون أشد العذاب "

وقوله تعالى عن الرسول صلى الله عليه وسلم :

" ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى " ولا مقتضى للعدول عن هذا الظاهر ، ويرى بعض المعتزلة أن الجنة والنـــار سيوجدان يوم الجزاء ولا وجود لهما الآن وقد افترقت مسالك هذا الفريـــق فى الاستدلال فمنهم من سلك مسلكا عقليا محتجا بأن الجنة والنار دارا جـــزاء والجزاء انما يكون فى الدار الآخرة بعد البعث فالحكمة تقتضى ايجادهمـــا يومئذ ، أما ايجادهما الآن فهو خال عن الحكمة فيكون عبثا ، والله تعالى منزه عن العبث فى أفعاله ..

والجواب أن الحكمة فى ايجادهما الآن لاتنحصر فى الجزاء فيجـــوز أن يكون لايجادهما الآن حكمة لانعلمها كما هو الشأن فى كثير من أفعالـــه

تعالى يعجز العقل عن ادراك حكمه وعدم الاطلاع على الحكمة لايقتضي عدمها فيجب التسليم بما ورد فى الآثار ،ومن هذا الفريق من سلك طريق النقل محتجا بقوله تعالى :

" كل شيء هالك الا وجهه " فلوكانت الجنة والنار موجودتين الآن للحقهما الهلاك وقد ضمن لهما عز وجل البقاء والخلود ،وقال فى وصف الجنة :

" أكلها دائم وظلها " وهذا الدوام ينافى طريان العدم عليهما فوجب ألا توجد الجنة والنار الا بعد البعث حتى لايعتريهما الفناء ،وجاب بأن المراد بالهلاك فى قوله تعالى :

" كل شيء هالك الا وجهه " الهلاك الحكمى بمعنى أن الممكن لما كان وجوده ضعيفا بالنسبة الى واجب الوجود جل شأنه لاستفادة وجود الممكن من غيره كان فى حكم الهالك المعدوم وهذا أولى من الأجوبة الأخرى مثل : المراد بالهلاك ،الهلاك الصورى الذى هو تفرق الأجزاء لحظة وهو لاينا فى دوام الذات ومثل قولهم : المراد بدوام أكل الجنة الدوام البدلى لاستحالة دوام مأكول بعينه .

ولا أدرى كيف تمسك هذا الفريق من المعتزلة بهذه الآية مع امكان تأويلها وتمشيها مع الآيات الأخرى والأحاديث الكثيرة .

ولو تأمل المتكرون وجود الجنة والنار قليلا ، وأنصفوا فى حكمهم وقرأوا السنة بامعان لوجدوا فى كثير من الأحاديث الصحيحة التصريح بوجودهما الآن ،ولا عترفوا بأنه ليس هناك ماينافيه عقلا ، أولم يسمعوا قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث الاسراء الذى أخرجه البخارى وغيره :

" ثم أدخلت الجنة فاذا فيها حبائل اللؤلؤ واذا ترابها المسك "

هذه هي مقدمة تفسير الآيات ذكرناها لتكون مدخلا لهذا التفسير .

ينظر في هذا الموضوع كتب التوحيد والتفسير بالحديث حيث فصلت فيه تفصيلا كبيرا وكذلك تفسير سورة الفتح للدكتور احمد السيد الكومي ، وكتاب السفينة الماخرة في البرزخ والحياة الآخرة .

كأن من رد الله سبحانه وتعالى على المشركين اخباره لهم عن أمرهم في الآخرة ،ومصيرهم الذى سيلقونه فيها ،مما يزيد من قيمة رده صلى الله عليه عليه وسلم على المشركين ،وبيين مقدار ما سينالهم من العذاب فيها اذا هم استمروا في لجاجهم وعنادهم ،يقول الله تعالى :

" بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا "(١)

كأن الله سبحانه وتعالى يقول : ما منعهم من الايمان بك ،وما جئت به من الحق ،الا تكذيبهم بالساعة لكسلهم عن الاستعداد لها وحبا في حياتهم الدنيا ليفعلوا فيها ما يشاؤون ،دون احساس بمسئولية الساعة وتبعاتها .

ويجوز أن يكون الكلام هنا انتقالا الى حكاية نوع آخر من أباطيلهم متعلق بأمر المعاد ،وما قيل كان متعلقا بأمر التوحيد ،والنبوة ،ويقول في ذلك الألوسى :

" ولا يضر في ذلك العود الى ما يتعلق بالكلام السابق ،واختلاف أساليب الحكاية لاختلاف المحكى ،وما ألطف تصدير حكاية ما يتعلق بالآخرة بحرف الانتقالية "(٢)

ويمكن أن تحمل الآية على المعنيين ،على أننا نرجح المعنى الأول ، لأن المقام مقام رد على شبه المشركين ،وبيان تهافتهم ،وتشارك في ذلك رأى الفخر الرازى حيث يقول :

---

(١) الفرقان آية : ١١

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم السبع المثاني جـ ١٨ صـ ٢١٨

فهذا جواب ثالث عن تلك الشبهة ،كأنه سبحانه قال : ليس ما تعلقوا به شبهة علمية في نفس المسألة ،بل الذي حملهم على تكذيبك تكذيبهم بالساعة استبعادا لا استحالة لها ،

ويحتمل أن يكون المعنى : أنهم يكذبون بالساعة فلا يرجون ثوابا ولاعقابا ،ولا يتحملون كلفة النظر والفكر ،فلهذا لا يتفقون بما يورد عليهم من الدلائل ثم قال :

" وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا " (١)

لبيان ما لهم في الآخرة ،بسبب تكذيبهم بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وعدم ايمانهم بما جاءوا منها تكذيبهم بالساعة ،فقد أعد الله سبحانه وتعالى سعيرا ،أي نارا شديدة الايقاد ،

يقول الامام الألوسي : " أي هيئنا لهم نارا عظيمة شديدة الاشتعال ، شأنها كيت ،وكيت ،بسبب تكذيبهم بها ،على مايشعر به وضع الموصول ،موضع ضميرهم ،أولكل من كذب بها كائنا من كان ،وهم داخلون في ذلك دخولا أوليا (٢)

ويقول الفخر الرازي قوله :

" وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا " صريح في أنه تعالى أعد جهنم " (٣)

" اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا " (٤)

زيادة بيان لمقدار العذاب الذي سينال المشركين نتيجة أعمالهم وطغيانهم وانكارهم ،واذا رأتهم هنا صفة للسعير ،واسناد الرؤية اليها

---

(١) الفخر الرازي جـ ٢٤ صـ ٥٥
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني جـ ١٨ صـ ٢١٨
(٣) الفخر الرازي جـ ٢٤ صـ ٥٤ (٤) الفرقان آية : ١٢

لا يمنع أن تكون حقيقية ولا داعي لتأويلها ، وهذا هو الرأي المعتمد عند الألوسي ، حيث يقول :

واسناد الرؤية اليها حقيقة على ما هو الظاهر وكذا نسبة التقيظ والزفير فيما بعد ، اذ لا امتناع في أن يخلق الله تعالى النار حية يقظة زافرة على الكفار ، فلا حاجة الى تأويل الظواهر الدالة على أن لها ادراكا كهذه الآية : وقوله تعالى : " يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد " (١)

وقوله صلى الله عليه وسلم — كما في صحيح البخاري —

شكت النار الى ربها فقالت : رب أكل بعضي بعضا ، فأذن لها بنفسين : نفس في الشتاء ، ونفس في الصيف ،

الى غير ذلك واذا صح ما أخرجه الطبراني ، وابن مردويه من طريق مكحول ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده بين عين جهنم ،

قالوا يارسول الله هل لجهنم من عين ؟

قال : نعم أما سمعتم الله تعالى يقول :

اذا رأتهم من مكان بعيد ، فهل تراهم الا بعينين ؟

كان ماقلناه هو الصحيح ، واسنادها اليها لا اليهم للايذان بأن التقيظ والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها اياهم (٢)

ويشارك الامام الألوسي في الرأي ، الامام الفخر الرازي ، حيث يقول :

" مذهب أصحابنا أن البنية ليست شرطا في الحياة ، فالنار

---

(١) سورة ق آية : ٣٠

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للامام الألوسي جـ ٢٤ صـ ٢٢٠

على ماهي عليه يجوز أن يخلق الله الحياة ،والعقل والنطق ،فيها ،

وعند المعتزلة ذلك غير جائز ،وهؤلاء المعتزلة ليس لهم في هذا الباب حجة الاستقراء العادات ،ولوصدق ذلك لوجب التكذيب بانخراق العادات في حق الرسل ،فهؤلاء قولهم متناقض،بل انكار العـــادات لايليق الا بأصول الفلاسفة ،فعلى هذا قال أصحابنا قول الله تعالـــى في صفة : النار :

" اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظـا وزفيرا "

يجب اجراؤه على الظاهر ،لأنه لا امتناع في أن تكون الجنة جنـــة رائية مغتاظة على الكفار ،

فاذا رأتهم النار " من مكان بعيد " ،وهو أقصى مايمكن أنه يـــرى منه " سمعوا لها تغيظا وزفيرا " ،أي سمعوا لها صوت تغيظ ، وقد يكون على الحقيقـة أي صوت تغيظ ،وقد يكون ما عبر عنه الفخر الرازي بقوله :

" والمعنى علموا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا ،وهذا قول قطرب وهو كقول الشاعر متقلدا سيفا ورمحا ،أي والمراد تغيـظ الخزنة "(١)

إما الزفير فهو اخراج النفس بعد مدة ،والزفير هنا على حقيقتـــه ، يقول الامام الألوسي :

والأخبار ظاهرة في أن النار هي التي تزفر وأن الزفـير على حقيقته ،(٢)

" واذا ألقوا منها مكانا ضيقـا مقرنين دعوا هنالك ثبورا "(٣)

---

(١) الفخر الرازي جـ ٢٤ صـ ٥٦

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني جـ ١٨ صـ ٢٢٠

(٣) الفرقان آية : ١٣ و ١٤ كما جاء في قوله تعالى : "

ثم يأتي وصف الله تعالى لموقف الكافرين في جهنم عنه مايلقوا فيهـــا ، أي اذا ألقوافيها في مكان ضيق ، والضيق هنا صفة للمكان ،لبيان زيـــادة الكرب وشدته ،على عكس وصفه للجنة بالسعة ،بأن عرضها السموات والأرض (١) ،

ويقول الألوسى نقلا عن ابن عباس :

أنها تضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح

ومقرنين المقصود بها مقيدين رغم ما هم فيه من العذاب الشديـــد ، يقول الامام أبوحيان التوحيدى :

مقرنين قرنت أيديهم الى أعناقهم بالسلاسل ،

وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة ،وفي أرجلهم الأصفاد (٢)

وتكون نتيجة وجودهم في مكان ضيق ،وقرنهم بالأصفاد والعذاب الرهيب الذى يعانونه أن "دعوا هناك لك ثبورا " ،أي يدعو في ذلك المكان الرهيب "ثبورا " أي هلاكا فيتمنون الهلاك ليسلموا مما هو أشد منه ،

يقول أبوحيان :

والظاهر دعاء الثبور ،وهو الهلاك فيقولون واثبـــوراه ،أي يقال ياثبـــور ، فهذا أوانك (٣)

فيكون الرد عليهم :

" لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا "

تنبيه على خلودهم في العذاب ،ولاينالون مـا يتمنونه من الهـــلاك المنجى ، يقول الامام الألوسى :

---

(١) كما جاء في قوله تعالى : " وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السمـوات والأرض أعدت للمتقين "

(٢) البحر المحيط جـ ٦ صـ ٤٨٤

(٣) " " " "

كأنه قيل فماذا يكون عند دعائهم المذكور ، فقيل : يقال لهم ذلك ، والمراد به اقناطهم عما علقوا به أطماعهم من الهلاك ، وتنبيههم على أن عذابهم الملجىء لهم الى ذلك أيدى لاخلاص لهم منه ، على أبلغ وجه ، حيث أشار الى أن المخلص مما هم فيه من العذاب عادة غير مخلص ، وما يخلص غير ممكن ، فكأنه قيل : " لاتدعوا اليوم هلاكا واحدا ، فانه لايخلصكم "(١)

" وادعوا ثبورا " وادعوا هلاكا (كثيرا) لاحد لكثرته ترون فيه العذاب أشتاتا وألوانا .

يقول الفخر الرازى :

ومعنى ادعوا ثبورا كثيرا ، أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدا ، انما هو ثبور كثير ، اما لأن العذاب أنواع وألوان لكل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أولأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها ، أولأن العذاب دائم خالص عن الشوب فلهم في كل وقت من الأوقات التي لانهاية لها ثبور ، أولأنهم ربما يجدون بسبب ذلك القول نوعا من الخفة ، فان المعذب اذا صاح وبكى وجد بسببه نوعا من الخفة فيزجرون عن ذلك ويخبرون بأن هذا الثبور سيزداد كل يوم ليزداد حزنهم وغمهم نعوذ بالله منه "(٢)

" قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كان لهم جزاء ومصيرا ، لهم فيها مايشاؤون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا "(٣)

ويقارن الله سبحانه وتعالى موقف الكافرين في الآخرة بموقف المؤمنين باستفهام يراد به التوقيف والتوبيخ وتفضيل الجنة على النار :

---

(١) تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني جـ ١٨ صـ ٢٢٢
(٢) الفخر الرازي جـ ٢٤ ص ٥٦
(٣) الفرقان آية : ١٥ ، ١٦

قال ابن عطية :

وحيث كان الكلام استفهاما جاز فيه مجيء لفظه للتفضيل بين الجنة والنار في الخير ،لأن الموقف جائز له أن يوقف محاورة على ما شاء ليرى هل يجيبه بالصواب أوالخطأ ،وانما منع سيبويه وغيره من التفضيل ، اذاكان الكلام خبرا لأن فيه مخالفة ،وأما اذاكان استفهاما فذلك سائغ . انتهى ،

وما ذكره يخالفه قوله فشركما لخيركما الفداء ،

وقوله : " السجن أحب الى "(١) ، فان هذا خبر ،

وكذلك قولهم : العسل أحلى من الخل ،الا أن تقيد الخبر بأنه اذا كان واضحا الحكم فيه للسامع بحيث لايختلج في ذهنه ولايتردد أيهما أفضل ،فانه يجوز ،وضمير التى محذوف ،أى وعدها ،وضمير مايشاؤون كذلك ، أى مايشاؤونه ،وفي قوله : مايشاؤونه دليل على أن حصول المرادات بأسرها لاتكون الا في الجنة وشمل قوله : جزاء ومصيرا ،الثواب ومحله كما قال " نعم الثواب وحسنت مرتفقا "(٢)

وفي ضده : " بئس الشراب وساءت مرتفقا "(٣)

لأنه بطيب المكان يتضاعف النعيم كما أنه برداءته يتضاعف العذاب وعدا أى موعودا مسئولا سألته الملائكة في قولهم :

---

(١) يوسف آية : ٣٣

(٢) الكهف آية : ٣١

(٣) الكهف آية ٢٩

والظلم هنا المقصود به : الاشراك بالله سبحانه وتعالى ، وهو قول ابن عباس والحسن وابن جريج (١) كما قال : لك صاحب البحر المحيط

والظلم هنا الظاهر أنه عام على اعتبار دخول المعاصى فى الظلم ، فيكون خطابا للمؤمنين وللكافرين فيذوق الظالم اذا كان كافرا أو مؤمنا عاصيا عذابا شديدا فى جهنم يتناسب مع حالته .

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان التوحيدى جـ ٦ صـ ٤٩٠

" البـــــاب الثالـــــث "

* مدخل الى الأخـلاق الاسلاميـــة
* صفات عباد الرحمن على ضوء الكتاب والسنة

" الفصـــــل الأول "

" مدخل الى الأخلاق الاسلاميـة "

مدخل الى الأخلاق الاسلاميـــة

ان الحديث عن الأخلاق الاسلامية هو حديث عن المقربين ، والوصول الى القرب من الله تعالى ، ليس بالأمر السهل ، انه يحتاج الى كثير من المجاهدة من أجل تزكية النفس ، ولن يصل الانسان الى تزكية النفس الا اذا تحرر من متـــاع الدنيا ، ومتاع الدنيا بينه الله تعالى بقوله :

" زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة مـــن الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا "(١)

ويعقب الله على ذلك بقوله :

" والله عنده حسن المآب "

والعدول عن متاع الدنيا الى حسن المآب عند الله سبحانه وتعالـــى وهو عدول عن النقص فى اتجاه نحو الكمال ـ له ثمنه من الجد فى العبـــادة ، والأخذ بالعزائم .

ان ثمنه هو ما عبر عنه الامام الغزالى فى اجمال مجمل :

" تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها ، والاقبال بكنـه الهمة على الله تعالى "(٢) .

وكل ذلك يتعارض مع ما زين للانسان من متاع الدنيا :

لابد منذ المبدأ ـ من " الارادة الرياضية " على حد تعبـــير ابن سينا ارادة صارمة فى محاولة القرب من الله تعالى : مصدر الكمال ومصـــدر التجليات ، ولا بد من اتجاه الكيان الانسانى ـ فى صورة قوية الى الحق سبحانه

(١) ـ آل عمران آية : ١٤ (٢) احياء علوم الدين للامام الغزالى

وتعالى ،

والحديث عن الأخلاق الاسلامية ـ اذن ـ انما هو حديث عن : ثلة من الأولين ،وقليل من الآخرين ،وهو اذن حديث " لقليل من الآخرين " انه حديث للمجتبين من عباد الله :

" الله يجتبي اليه من يشاء "(١)

متى بدأ هذا الاتجاه في الاسلام :

انه بدأ مع شرق حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

ان الأنبياء يصطنعهم الله تعالى لنفسه(٢) ،ويصنعهم على عينة(٣) ،وهم جميعا بأعيننا(٤) ،

ونحن حينما نقرأ سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد حديثا من أحاديثه صلى الله عليه وسلم يلخص سيرته (قبل) مولده ،انه صلى الله عليه وسلم يقول :

" ان الله تعالى خلق الخلق فجعلني في خير فرقتهم وخير الفرقتين ،ثم تخير القبائل فجعلني في خير قبيلة ،ثم تخير البيوت فجعلني في خير بيوتهم ،فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا "(٥)

أما بعد مولده صلى الله عليه وسلم فاننا نقرأ في السيرة الشريفة هذه الحادثة الرمزية حادثة شق الصدر ،

---

(١) سورة الشورى آية : ١٣

(٢) يقول الله تعالى عن سيدنا موسى " واصطنعتك لنفسي "

(٣) يقول الله تعالى عن سيدنا موسى : (ولتصنع على عيني)

(٤) قال الله تعالى عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم " واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا "

(٥) رواه الترمذي عن العباس بن عبد المطلب بسند صحيح .

وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه منذ الطفولة المبكرة : لقد كان صلوات الله وسلامه عليه اذ ذاك فى بادية بنى سعد عند مرضعته وبينما هو يلعب مع الغلمان — على مايروى الامام مسلم — أتاه جبريل ،فأخذه فأضجعه فشق عن قلبه فاستخرجه فاستخرج منه علقة فقال :

هذا حظ الشيطان منك ،ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده الى مكانه .

وجاء الغلمان يسعون الى أمه يعنى مرضعته — أن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ،وكان ذلك وهو ابن أربع سنين تقريبا ،فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر ،فقد روى الامام أحمد ،وابن حبان ،والحاكم ،وابن عساكر ،عن أبى بن كعب أن أباهريرة رضى الله عنه كان جريئا أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال :

يارسول الله ،ما أول ما رأيت فى أمر النبوة ؟

فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وقال :

لقد سألت أباهريرة ،انى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر ، واذا بكلام فوق رأسى واذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟

قال : نعم ،

فاستقبلانى بوجوه لم تر لخلق قط ،وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ،فأقبلا الى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بمضدى لا أجد لأحدهما مسا .

فقال أحدهما لصاحبه : اضجعه ،فأضجعانى بلا قسر ولا هصر ،

وقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ،

فهوى أحدهما الى صدرى ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع ،

فقال له :

أخرج الغل والحسد ،فأخرج شيئا كهيئة العلقة ،ثم نبذها فطرحها ،فقال له :

أدخل الرأفة والرحمة فاذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ،ثم هزا بهام رجلى اليمنى فقال : أعدوا وأسلم .

فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير ،

وان المغزى الواضح لهذه الحادثة انما هو تزكية للنفس فى بواكير الحياة الانسانية ،وفى بواكير الحياة الروحية ،وذلك أنه اذا استخرج حظ الشيطان من القلب أصبح القلب طاهرا ،ليس للشيطان عليه من سبيل .

مراحل الطريق الى الله :

وأول مراحل الطريق الى الله : التوبة الصادقة ،التى تنتزع فى قوة ـ حظ الشيطان من القلب ،

وتمضى السنون برسول الله صلى الله عليه وسلم ،وليس للشيطان عليه من سبيل ،

انه فى طهر الملائكة ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى أن كانت الليلة المباركة :

" انا أنزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين ،فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمرا من عندنا انا كنا مرسلين ، رحمة من ربك انه هو السميع العليم "(١)

---

(١) الدخان آية : ٣ ـ ٦

وهى ليلة القدر ،يقول تعالى :

" انـا أنزلناه فى ليلة القدر ،وما أدراك ماليلة القـــدر ،
ليلـة القدر خـير من ألف شـهر ،تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل
أمر ،سلام هى حتى مطلع الفجر "(١)

وكان ذلك فى رمضان—يقول سبحانه :

" شـهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى
والفرقان "(٢)

وكانت الكلمات الأولى من الوحى :

" اقرأ باسم ربك الذى خلق "(٣) ،

وكانت اقرأ رمزا لكل الأعمال التى يأتيها الانسان ،وذلـــك
أنه يجب على الانسان أن تكون أعماله (باسم ربك) ما يأتى منها ومايدع ،
ومما يبين الاتجاه هذا الذى بدأ منذ مشرق الرسالة ،قول اللـه
فيما بعد :

" ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق "(٤) ،

فالأكل مما لم يذكر اسم الله عليه فسق محرم على المؤمن ،

ويقول تعالى :

" حرمت عليكم الميتة ،والدم ،ولحم الخنزير ،وما أهل لغير اللـه
به ،والمنخنقة ،والموقوذة ،والمتردية ،والنطيحة ،وما أكل السبع الا ماذكيتـم ،
وما ذبح على النصب ،وأن تستقسموا بالأزلام ،ذلكم فسق "(٥)

---

(١) سورة القدر بتمامها (٢) البقرة آية : ١٨٥ (٣) القلم آية : ١
(٤) الأنعام آية : ١٢١ (٥) المائدة آية : ٣

" فما أهل به لغير الله فسق ،وما ذبح على النصب فسق ،وكل ما كان لغير الله فهو فسق محرم ،كما جاءت به الآيات الكريمة ،وكانت على الطريق المشروع ،

أما الطيبات : فهى ما اتجه الانسان بها الى الله سبحانه ، انها ما كانت باسم الرب ،ما كانت باسم التربية الالهية ،ما كانت باسم المربى ،ويشرح الله تعالى ذلك فى الآيات الكثيرة التى نذكرها بحسب الترتيب القرآنى هينا فيها الاتجاه الى الله واسلام الوجه له سبحانه :

" بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ،فله أجره عند ربه ،ولا خوف عليهم ،ولاهم يحزنون "(١)

" ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ،واتبع ملة ابراهيم حنيفا "(٢)

انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين "(٣)

"ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن ،فقد استمسك بالعروة الوثقى ، والى الله عاقبة الأمور "(٤)

" فأقم وجهك للدين حنيفا ،فطرة الله التى فطر الناس عليها ،لاتبديل لخلق الله ،ذلك الدين القيم "(٥)

فأقم وجهك للدين القيم "(٦)

---

(١) البقرة : ١١٢ (٢) النساء : ١٢٥
(٣) الأنعام : ٧٩ (٤) لقمان : ٢٢
(٥) الروم : ٣٠ (٦) الروم : ٤٣

ويجمل الله تعالى كل ذلك فيقول :

" قل ان صلاتى ،ونسكى ،ومحياى ،ومماتى ،لله رب العالمين ، لا شريك له ،وبذلك أمرت ،وأنا أول المسلمين "(١)

أن تكون الحياة : نوما ويقظة ، قولا وصمتا ،حركة وسكونا ، خالصة لله تعالى ،بل والممات أيضا يكون خالصا لله فى سبيله ،

وينبثق عن كل ذلك فى صورة ختمية :

فضيلة الاخـــلاص :

ولقد تحدث الاسلام- قرآنا وسنة- عن الاخلاص لله وحـــده فى صورة مستفيضة ،

ومن ذلك الآيات القرآنية الكريمة الآتية :

" انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق ،فاعبد الله مخلصا له الديـــن ، ألا لله الدين الخالص "(٢)

" فادعوا الله مخلصين له الدين ،ولوكره الكافرون "(٣)

" وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ،ويقيمـــوا الصلاة ،ويؤ توا الزكاة ،وذلك دين القيمة "(٤) ،

وفى السنة المطهرة :

ماروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلـــى الله عليه وسلم :

من فارق الدنيا على الاخلاص لله وحده لا شريك له ،وأقام الصلاة ،وآتى

---

(١) الأنعام (١٩٢-١٩٣) (٢) الزمر : ٢-٣ (٣) غافـــر : ١٤
(٤) البينـــة : ٥

الزكاة ،فارقها والله عنه راض (١)

وعن معاذ بن جبل أنه قال ـ حين بعث الى اليمن ـ يارسول الله أوصني ؟ ،قال صلى الله عليه وسلم :

اخلص دينك يكفك العمل القليل (٢)

ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه البيهقي ـ عن الايمان ،فقال : (الاخلاص)

ويروى الامام مسلم ـ رضى الله عنه ـ عن أبي هريرة رضوان الله عليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" ان الله لاينظر الى أجسامكم ولا الى صوركم ،ولكن ينظر الى قلوبكم " (٣)

وروى البزار ـ باسناد لابأس به ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،قال ـ فيما يرويه عن ربه ـ ان الله تبارك وتعالى يقول :

" أنا خير شريك فمن أشرك معي شريكا فهو لشريكي ،ياأيها الناس أخلصوا أعمالكم فان الله تعالى لايقبل من الأعمال الا ماخلص له ولا تقولوا : هذا لله وللرحم فانها للرحم وليس لله منها شيء ولا تقولوا : هذه لله ولوجوهكم فانها لوجوهكم وليس لله منها شيء " (٤)

وكل ماذكر تجمعه كلمة واحدة هي الاسلام ،

وسواء نظرنا لكلمة اسلام من الوجهة اللغوية ،أونظرنا اليها من الوجهة الدينية ،فانها تشتمل على كل المعاني التي ذكرناها .

أما من الوجهة اللغوية ،فيقول ابن الأنباري " المتوفى ٣٢٨ هـ " :

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم (٢) قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين

(٣) اخرجه مسلم في صحيحه ،وابن ماجه في سننه ،

(٤) أخرجه البزار والبيهقي

المسلم : معناه المخلص لله عبادته ،من قولهم : سلم الشيء لفلان خلص له ،فالاسلام معناه اخلاص الدين والعقيدة لله تعالى

أما من الوجهة الدينية ،فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاسلام فقال :

أن يسلم لله وجهك ،وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك ،

ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال :

الايمان : الاخلاص ،

ولايخرج كل ذلك عن كلمة الاخلاص : لا اله الا الله ،

وكلمة الاخلاص توضحها سورة الاخلاص :

بسم الله الرحمن الرحيم : " قل هو الله أحد ،الله الصمد" ،الذي يستعان به ويلجأ اليه ،ويقصد في اليسير من الأمور والعظيم منها ، لم يلد ولم يولد ،ولم يكن له كفوا أحد " ،

ويتناسق مع كلمة الاخلاص ،وسورة الاخلاص ،موضحا ومفسرا قوله تعالى :

" اياك نعبد واياك نستعين "

ويتناسق مع كل ذلك موضحا أيضا ومفسرا :

" قل اللهم مالك الملك : تؤتي الملك من تشاء ،وتنزع الملك ممن تشاء ،وتعز من تشاء ،وتذل من تشاء ،بيدك الخير ، انك على كل شيء قدير "(١)

كل ما في الكون من : حركة وسكون ،وقول وعمل ،وفكر وحال :

الكيف من كل ذلك والكم والزمن والمكان !

---

(١) آل عمران آية : ٢٦

" وهو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن "

وتأتى أحاديث مستفيضة فى بيان كلمة الاسلام ، منها :

ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه عن رب العزة سبحانه ـ :

" ياعبادى : انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ؛

ياعبادى : كلكم ضال الا من هديته فاستهدونى أهدكم ؛

ياعبادى : كلكم جائع الا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ؛

ياعبادى : كلكم عار الا من كسوته فاستكسونى أكسكم ؛

ياعبادى : انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم ؛

ياعبادى : انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ؛

ياعبادى : لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم : كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا !

ياعبادى : لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل انسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى الا كما ينقص المخيط اذا أدخل البحر ،

ياعبادى انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه ،

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم يوما فقال : ياغلام انى

أعلمك كلمات :

" احفظ الله يحفظك ـ احفظ الله تجده تجاهك" ،

اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله ،

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك إ،

وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك ،رفعت الأقلام وجفت الصحف (١) .

وفي رواية :

" احفظ الله تجده أمامك ،تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ،واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ،وما أصابك لم يكن ليخطئك ،

واعلم أن النصر مع الصبر ،وأن الفرج مع الكرب ،وأن مع العسر يسرا ،

وكل هذا من معاني : " لااله الا الله "

ولا اله الا الله : هي التوحيد والاسلام طابعه وشعاره هو التوحيد ،

التوحيد :

توحيد الله في ذاته ،وتوحيده في قوله :

أما ذاته فهي أحديته ،وأما أفعاله فهو سبحانه في حكمته السامية ،

" يخلق مايشاء ويختار سبحانه لهم الخيرة في أمرهم (٢) ،

وليس لأحد من الأمر معه شيء ،لا معقب لحكمه ،ولاراد لقضائه ،

وهو أحكم الحاكمين ،وأرحم الراحمين ،واليه يرجع الأمر كله واليه المصير .

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح

(٢) القصص آية : ٦٨

والاسلام اذن هو اسلام الوجه لله ، انه اسلام الذات لله ، وهـــو " اياك نعبد واياك نستعين " ، وهو :

" لا اله الا الله " ، وهو " التوحيـــد " ،

واذا كان الامام الشبلي يعرف التصوف بقوله :

يبدؤه معرفة الله ، ونهايته توحيده (١) ،

فان هذا هو المراد في الخلق الاسلامي ،

ان بدأه معرفته تعالى على أساس من العلم — وفي جو من المعرفة الصادقة ، معرفته : أحدا عالما مريدا قادرا ،

معرفته : جليلا جميلا — معرفته : هيبة وأنسا تذوب من هيبته الجبال ، ويأنس به عباده الذين أنعم عليهم ،

ونهايته توحيده : " لا اله الا الله "

وتوحيد الله سبحانه يتفاوت فيه الناس الى ملايين ملايين الدرجـــات ،

ان منهم من يقول : " لا اله الا الله "

ومنهم من يقتنع بأن " لا اله الا الله "

ومنهم من يؤمن بأن " لا اله الا الله "

ومنهم من يعتقد أن " لا اله الا الله "

ولكن الذروة ، ذروة الايمان والاسلام ، ذروة العقيدة ، وذروة الســـلوك أيضا هي :

" أشهد أن لا اله الا الله "

وهؤلاء الذين يشهدون أن : " لا اله الا الله " انما يشهدونهـــا

---

(١) المنقذ من الضلال للدكتور عبد الحليم محمود ، وينظر في ذلك الرسالـــة القشيرية للامام أبي القاسم القشيري

مع ملائكته سبحانه :

" شهد الله أنه : لا الـه الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا الـه الا هو العزيز الحكيم " (١)

انهم يشهدون التوحيد ، وشهادة التوحيد هي قمة الايمـــــان ، وهي قمة التدين وهم بطبيعة الأمر قلة :

" ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين " ،

واذا كان الامام الكتاني يصف التصوف فيقول انه :

صفاء ومحبة ومعرفة (٢)

فان تعريفه يتناسق مع : " أشهد أن لاالـه الا الله "

وهذه القمة هي الهدف الأخير ، وهي الغاية التي تعز على مـــن رامها الا بالجهد المتواصل ، ومع توفيق الله سبحانه لايصل اليها الا مـــن اجتباهم الله تعالى :

انه لايصل اليها الا المقربون مع صعوبتها الشاهقة ، فان باب الله مفتوح أمام الذين يسيرون على ظراطه ليدخلوا في اطار من أنعم عليهم ،

" أشهد أن لا الـه الا الله : كيف نصل اليها ؟ "

كيف نصل الى هذا الهدف ؟ كيف نرتقي الى هذه القمة ؟

ان الله سبحانه وتعالى يأمر فيقول :

" ففروا الى الله " (٣)

ويذكر سبحانه قول سيدنا ابراهيم ،

---

(١) آل عمران آية ١٨ .

(٢) المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، وينظر التعـــرف لمذهب أهل التصوف .

(٣) الذاريات آية ٥٠ .

" انى ذاهب الى ربى "(١)

"انى مهاجر الى ربى "(٢)

كيف نهاجر الى الله ؟

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ،والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه "(٣)

ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل رواه الامام أحمد باسناد صحيح :

" أى الايمان أفضل ؟

قال : الهجرة ،

فقيل له : وما الهجرة؟

قال : ان تهجر السوء ،

فقيل له : أى الهجرة أفضل ؟

فقال : الجهاد "

وعن أم أنس رضى الله عنها أنها قالت : يارسول الله أوصنى :

قال : " اهجرى المعاصى فانها أفضل الهجرة ،وحافظى على الفرائض فانها أفضل الجهاد ،وأكثرى من ذكر الله فانك لاتأتين الله بشىء أحب اليه من كثرة ذكره "(٤)

وفى رواية لهما عن أم أنس :

" واذكرى الله كثيرا فانه أحب الأعمال الى الله أن تلقاه بها "(٥)

---

(١) الصافات آية : ٩٩ (٢) العنكبوت : ٢٦

(٣) أخرجه البخارى وابوداود والنسائى عن ابن عمر وقال حديث صحيح ،

(٤) رواه الطبرانى باسناد جيد (٥) قال الطبرانى : ام انس هذه يعنى الثانية ليست ام أنس بن مالك .

وتبدأ هذه الهجرة بالنية :

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عمر بن الخطـــاب رضى الله عنه :

" انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرئ مانوى ، فمن كانـــت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيـا يصيبها أوامرأة ينكحها فهجرته الى ماهاجر اليه "(١)

أن يهجر الانسان السوء فى النية ،وأن يصبح القلب سليما :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم :

" ان الله لاينظر الى أجسامكم ،ولا الى صوركم ، ولكن ينظر الى قلوبكم "(٢) ،وأن يهجر السوء فى الأعمال فتصبح أعماله دائما مجردة عن الاثم ، وأن يجاهد فذلك أفضل الهجرة .

والجهاد فى سبيل الله هو جهاد أوسع وأشمل ما تحتمله الكلمة :

انه جهاد النفس لتتزكى ،

وجهاد الأسرة لتستقيم ،

وجهاد فى المجتمع ليهتدى الى التى هى أقوم ،

وجهاد الأعداء فى كافة المجالات ،

" والمؤمنون أشداء على الكفار رحماء بينهم "

ولقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجهاد بكل هذه الألوان منه ، وذلك أول الطريق :

---

(١) متفق عليه

(٢) أخرجه الامام مسلم

والذهاب الى الله هجرة دائمة اليه ،انه هجرة :

من ظلمات الكفر الى نور الايمان ،

ومن ظلمات البدعة الى نور السنة ،

ومن ظلمات الغفلة الى نور اليقظة ،

ومن ظلمات الحظوظ الى نور الحقوق ،

ومن ظلمات طلب الدنيا الى نور طلب الآخرة ،

ومن ظلمات المعصية الى نور الطاعة ،

ومن ظلمات الكثائف الى نور اللطائف ،

ومن ظلمات الهوى الى نور اليقين ،

ومن ظلمات الدعوى الى اشراق نور التبرى من الحول والقوة ،

ومن ظلمات الكون الى شهود المكون ،

ومن ظلمات التدبير الى اشراق نور التفويض ،الى غير ذلك مما يحصره العدد (١) ،

والنهج الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة بالذات هو :

" ففروا الى الله " ،

وتعليل الفرار :

(انى لكم منه نذير مبين)

---

(١) أنظر لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى ،

ويقول الامام الصاوى عن ذلك :

قوله تعالى : " ففروا الى الله " مفرع على ما علم من توحيد الله ،والمعنى :

حيث : حيث علمتم أن الله واحد لاشريك له ،وأنه الضار النافع المعطى المانع ،فالجأوا اليه ،وأهرعوا الى طاعته ،

والفرار مراتب :

ففرار العامة من الكفر والمعاصى الى الايمان والطاعة ،

وفرار الخاصة من كل شاغل عن الله : كالمال والولد ،الى شهود الله والانهماك فى طاعته ،فلا يصرف جزء من أجزائه لغير الله ،فكما أن الله فى خلق العبد واحد ،فليكن العبد فى اقباله على ربه واحدا ، بحيث لايجعل فى قلبه غير حب ربه ،وفى ذلك فليتنافس المتنافسون " ،

كيف يفر الانسان الى الله ؟

ماهو المنهج ؟؟؟

ان هذا المنهج رسمه الله سبحانه وتعالى فى كثير من آيات القرآن الكريم ،موجزا أحيانا فيكون :

" من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ،فلنحيينه حياة طيبة ،ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون "(١) ،

أو : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض "(٢)

---

(١) النحل آية : ٩٧ (٢) الأعراف آية : ٩٦

أو : " ان الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ،ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون نزلا من غفور رحيم "(١)

ونحب أن نتحدث فى شىء من التفصيل الموجز عن منهج أجمله القرآن فى آيات محددة من الكتاب الكريم :

يقول تعالى فى سورة الزمر : تلك السورة التى أخرج النسائى عن عائشة رضى الله عنها ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها كل ليلة :

" قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم "(٢)

عن أبى عبدالرحمن المزنى يقول سمعت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" ما أحب أن لى الدنيا ومافيها بهذه الآية :

" قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم " الى آخر الآية فقال رجل يارسول الله ،فمن أشرك ؟ فسكت النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

" ألا ومن أشرك " ثلاث مرات "(٣) ،

وجاء فى مسند الامام أحمد " أن

أن رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيخ كبير يدعم

(١) فصلت آية : ٣٠ـ٣٢ (٢) الزمر آية : ٥٣

(٣) تفرد به الامام أحمد فى مسنده

على عصاه فقال :

يارسول الله : ان لي غدرات وفجرات : فهل يغفر لي ؟

فقال صلى الله عليه وسلم :

" ألست تشهد أن : لا اله الا الله ؟ "

فقال : بلى وأشهد أنك رسول الله "

قال صلى الله عليه وسلم : قد غفر لك غدراتك وفجراتك " (١)

انّ الله سبحانه وتعالى يفتح الطريق واسعا أمام الطالبين مغفرته "الراجين رحمته "لأن لايقنط أحد من رحمة ربه "فانه :

" لايقنط من رحمة ربه الا الضالون " "

ولاييأس من روحه تعالى "فانه :

" لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون "

فاذا كان الحج المبرور يطهر الانسان من ذنوبه حتى يخرج منها " كيوم ولدته أمه كما نصت السنة المطهرة على هذا "وروت الكتب الصحاح "

فان الجو الاسلامي كله مفعم بفتح أبوابا الرحمة أمام عباد الله المخلصين :

" من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه " (٢) "و :

" من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه " (٣)

والاسلام يجب ماقبله .

---

(١)

(٢) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه "

(٣) أخرجه أحمد في مسنده والبخاري ومسلم في صحيحيهما .

وتبين لنا سورة الزمر فى آياتها الكريمة مقدار رحمة اللـــه الواسعة وترسم لنا الطريق لذلك ،

يقول الله سبحانه وتعالى :

" وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العـــذاب ثم لا تنصرون "(١)

فالطريق الى مغفرة الله ورحمته هو التوبة الخالصة النصوح ، وهى الانابة الى الله سبحانه وتعالى أى : التوبة فى أسمـــى درجاتها ،

واسلام الوجه لله سبحانه وتعالى ،

وبعد أن يندم الانسان على ذنوبه ويخرج منها ويتبرأ ترسم لـه الآية التى تتلو ذلك طريقه :

" واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكـم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون "(٢)

وأحسن ما أنزل الينا من ربنا هو القرآن الحكيم ـ انه :

" يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين "

مهيمن على غيره ، مبين للحق فيما يختلف فيه أهل الكتـــب السماوية ثم يتلو ذلك آيات ثلاث تبين موقف الانسان الذى لم يتـــب أو الذى تاب ولم يتبع ، :

" أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله وان كنـــت لمن الساخرين " ،

---

(١) الزمر آية : ٥٤ (٢) الزمر آية ٥٥

" أوتقول : لو أن الله هداني لكنت من المتقين ؛
أوتقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين "(١)

وكل ذلك لاجدوى منه ،والرد عليه واضح حاسم من الله سبحانه وتعالى :

" بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين "(٢)

ويبين الله حالة هؤلاء يوم القيامة فيقول :

" يوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين "(٣) ؟

لاشك أن فيها مثوى للمتكبرين مثوى يختلف ويتفاوت باختلاف درجاتهم في الكبرياء والمعاصي وتفاوتهم فيها ،

ويختم الله سبحانه هذه الآيات التي ترسم المنهج وتبين المصير بالنسبة للذين تابوا ،وأنابوا ،واتبعوا الذكر الذي نزل عليهم من ربهم ، بقوله تعالى :

" وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لايمسهم السوء ولاهم يحزنون "(٤)

في هذا المنهج الواضح نتبين رحمة الله الواسعة الشاملة العامة ،التي لاتضيق بمن لجأ اليها ،فلا يأس ولاقنوط من غفران الله سبحانه وتعالى :

ويكفينا قوله صلى الله عليه وسلم (أنا نبي التوبة "(٥)

---

(١) الزمر آية :٥٦ـ٥٨ (٢) الزمر آية : ٥٩ (٣) الزمر آية : ٦٠
(٤) الزمر آية : ٦١ ، (٥) جزء من حديث صحيح أخرجه أحمد ومسلم عن أبي موسى ،وأخرجه الطبراني ونصه : أنا محمد وأحمد ،والمقفى والحاشر ونبي التوبة ،ونبي الرحمة "

فاذا كانت التوبة هى أول الطريق ،فان لها من المكانة فى الجو الاسلامى ما يتناسب مع تأثيرها فى حسن الخلق .

وبعد : فان الآيات القرآنية التى أجملت المنهج تحدثت بعد التوبة عن :

" وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون " ،

" واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون "

ولقد رسم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج العمل وبين ثمرته ،

روى الامام البخارى بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن ربه :

" من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ،وماتقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضت عليه ،ومايزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ،فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ،وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ،ورجله التى يمشى بها ،وان سألنى أعطيته ،ولئن استعاذنى لأعيذنه "

والتوبة الصادقة تثمر العمل ، ولكن هذا العمل يتفاوت فى درجاته ،

ولقد أبان الله سبحانه وتعالى درجات من العاملين :

فمنهم ظالم لنفسه ،

ومنهم مقتصد ،

ومنهم سابق بالخيرات ،

وهؤلاء السابقون بالخيرات بين الله تعالى مالهم عنده فقال :

" جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير "

" وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور "

" الذى أحلنا دار المقامة من فضله لايمسنا فيها نصب ولايمسنا فيها لغوب " (١) ،

ولقد بين الله سبحانه فى سورة الواقعة طبقات الناس بالنسبة للاتباع والهداية ،فقال سبحانه :

" وكنتم أزواجا ثلاثة (أى أصنافا ثلاثة)" :

أ = فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ،

ب = وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ،

جـ = والسابقون السابقون ،أولئك المقربون " ا ٠ هـ

وهؤلاء المقربون ليسوا بالكثيرين ،انهم ـ على حد التعبير القرآنى ـ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ،

ويتحدث الله سبحانه وتعالى عن النعيم الذى أعد للمقربين فيقول بعد ذكرهم فى السورة نفسها فى الآية الخامسة عشرة وما بعدها : (٢)

" على سرر موضونة

" متكئين عليها متقابلين "

" يطوف عليهم ولدان مخلدون "

---

(١) فاطر آية : ٣٣ ـ ٣٥ (٢) موضونة : أى مصفوفة أو مشبكة بالدر والياقوت او الذهب ،

" بأكواب وأباريق وكأس من معين "(١)

" لا يصدعون عنها ولا ينزفون "(٢)

" وفاكهة مما يتخيرون "

" ولحم طير مما يشتهون "

" وحور عين "

" كأمثال اللؤلؤ المكنون "

" جزاء بما كانوا يعملون "

" لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما "

" الا قيلا سلاما سلاما "

أما أصحاب اليمين فانهم :

" ثلة من الأولين وثلة من الآخرين "

وهنا لم يقل القرآن الكريم وقليل من الآخرين كما ذكر فى المقربين ، وذلك لأن المقربين صفوة الصفوة وهم بحكم ذلك أقل عددا ،

ويصف الله سبحانه وتعالى — فى السورة نفسها — النعيم الذى أعده لأصحاب اليمين فيقول — فى الآية الثامنة والعشرين وما بعدها :

" وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين "(٣) " فى سدر مخضود "

" وطلح منضود "(٤)

" وظل ممدود "

" وماء مسكوب "

" وفاكهة كثيرة "

---

(١) معين : أى نمير جارية (٢) لا يتفرقون عنها أو لا تذهب بعقولهم بكثرة شربها

(٣) أى لا شوك فيها أو موقر بالثمار ، والسدر : شجر النبق ،

(٤) الطلح : شجر الموز ، والمقصود : الذى نضد أى جعل طبقات متراصة من أسفله الى أعلاه ،

" لا مقطوعة ولا ممنوعة "

" وفرش مرفوعة "

" انا أنشأناهن انشاء "

" فجعلناهن ابكارا "

" عربا أترابا "

" لأصحاب اليمين "

ثم يذكر الله سبحانه وتعالى أصحاب الشمال وما أعد لهم من عذاب فيقول :

في الآية الثانية والأربعين ومابعدها ـ بعد قوله :

" وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال " :

" في سموم وحميم "(١)

" وظل من يحموم "(٢)

" لابارد ولاكريم "

" انهم كانوا قبل ذلك مترفين "

"وكانوا يصرون على الحنث العظيم "(٣)

" وكانوا يقولون : أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون "

" قل ان الأولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم "

"ثم انكم أيها الضالون المكذبون "

---

(١) السموم : حر النار الذي يتعدد في المسام والحميم : الماء الشديد الحرارة

(٢) اليحموم : الدخان الأسود (٣) الحنث العظيم : الذنب العظيم ، من الأقاويل الباطلة والعقائد الفاسدة

" لآكلون من شجر من زقوم "

" فمالئون منها البطون " (١)

" فشاربون عليه من الحميم "

" فشاربون شرب الهيم "

" هذا نزلهم يوم الدين "

وفى السورة الجميلة سورة الانسان ،والتى تسمى أيضا : سورة الأبرار ، يتحدث سبحانه وتعالى عن الأبرار فيقول فى الأسلوب القرآنى الجميل " المعجز فى الآية الخامسة ومابعدها :

" انّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا "

" عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا "

" يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا "

" ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا "

" انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا "

" انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا "

" فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا "

" وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا "

" متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا "(٢)

" ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا "(٣)

---

(١) شجر الزقوم : من أخبث أشجار البادية فى المرارة والبشاعة

(٢) أى لايرون فيها حرا ولا بردا .

(٣) أى : سهلت ثمارها لمتناولها

" ويطاف عليهم بئانية من فضة ،وأكواب كانت قواريرا "

" قوارير من فضة قدروها تقديرا "(١)

" ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا "

" عينا فيها تسمى سلسبيلا "

" ويطوف عليهم ولدان مخلدون ،اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا "

" واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا "

" عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق (٢) وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا "

" ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا " ا ٠ هـ

ويتحدث الحق تبارك وتعالى عن الأبرار فى سورة المطففين فيقول :

فى صورة من الأسلوب العالى فى الآية الثامنة عشرة وما بعدها :

" كلا ان كتاب الأبرار لفى عليين (٣) "

" وما أدراك ماعليون "

" كتاب مرقوم "

" يشهده المقربون "

" ان الأبرار لفى نعيم "

" على الأرائك ينظرون "

" تعرف فى وجوههم نضرة النعيم "

" يسقون من رحيق مختوم "

---

(١) أى قدرها لهم السقاة على قدر ريهم لايزيد ولاينقص وهو أكد للشارب ٠

(٢) الاستبرق الديباج الغليظ ٠

(٣) أى أن ديوان أعماله أهل الخير فى أعلا الدرجات كما أن كتاب الفجار فى أسفل الدرجات ٠

" ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون "

" ومزاجه من تسنيم "

" عينا يشرب بها المقربون "

ومهما كانت منزلة الأبرار من الرفعة والتفضل فان المقربين يتفضل الله عليهم بأكثر .

يقول الامام الألوسى عند قوله تعالى :

" ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون " :

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وأبو صالح :

" يشرب بها المقربون صرفا وتمزج للأبرار "

ومذهب الجمهور :

" ان الأبرار هم أصحاب اليمين ، وأن المقربين هم السابقون كأنهم انما كان شرابهم صرف التسنيم لاشتغالهم عن الرحيق المختوم بمحبة الحى القيوم ، فهى الرحيق التى لايقاس بها رحيق والمدامة التى تواصى على شربها ذوو الأذواق والتحقيق :

على نفسه فليبك من ضاع عمره ... وليس له منها نصيب ولا سهم

ونعود الى التوبة من جديد :

اذا صدقت نقلت الانسان مباشرة الى " أهل اليمين "

ومن أهل اليمين من يلتزم أداء الواجبات وترك المنهيات ، ويكتفى بذلك

وهذا يصدق عليه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أفلح ان صدق)

روى الامام البخارى بسنده عن طلحة بن عبيد الله يقول :

جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه مايقول حتى دنا فاذا هو يسأل عن الاسلام ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" خمس صلوات فى اليوم والليلة "

فقال : هل على غيرها ؟

قال : لا الا أن تطوع ،

قال : وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة ،قال : هل على غيرها ؟

قال : لا الا أن تطوع ،

قال : فأدبر الرجل وهو يقول :

" والله لا أزيد على هذا ولا أنقص إ ،

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" أفلح ان صدق "

وهذا المؤمن وأمثاله والقريب منه يستمرون طيلة حياتهم بتوفيق الله " من أهل اليمين " ،

ولكن التوبة الصادقة تقود الانسان أحيانا الى أداء الواجبات والانتهاء عن المنهيات ثم العمل فى قوة فى سبيل الله ،فتكون التوبة ثمرة اراحة لاتلين فى الاتجاه الى الله ،وتكون ثمرة الارادة الصادقة والتوبة النصوح :

رياضة يتجه الانسان بها خالصة الى الله تعالى :

يتوافر فى هؤلاء ،ماعبر عنه ابن سينا عن العارفين ،من أن طريقهم

يتلخص فى :

" رياضـــة وارادة "

والرياضة هنا : عبادة خالصة لوجه الله تعالى ،مصحوبة عادة بصوم

انهم الذين :

" يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه "(١)

وهم الذين :

" تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهـم ينفقون " ،

ويعقب الله سبحانه وتعالى على وصفهم الطيب هذا بقوله :

" فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون "(٢) ،

وهم الذين :

" لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ،واقام الصلاة وايتاء الزكـــاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ،

" ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ،والله يرزق من يشـاء بغير حساب "(٣)

ولقد وصف الله سبحانه طريق المتجهين اليه عدة مرات فى القـــرآن الكريم :

وصف طريقهم ووصف ماينتظرهم فى الدنيا والآخرة من ذلك مايقوله سبحانه :

---

(١) الكهف آية : ٢٨ (٢) السجدة آية : ١٦ ، ١٧

(٣) النور : ٣٧ ــ ٣٨

" التائبون ،العابدون ،الحامدون ،السائحون ،الراكعون ،
الساجدون ،الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله
وبشر المؤمنين "(١)

والوصفان : الأول والثانى : يقف عندهما أصحاب اليمين ،
أما المقربون فانهم أيضا : حامدون ،

وقد أمر الله تعالى بالحمد فقال سبحانه :

" قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى "(٢) ،

والحمد لله آخر دعاء أهل الجنة ،

" وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين "(٣)

ولأهل الحمد بيوت في الجنة ،روى الامام " الترمذى وحسنه "
بسنده عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال :

" اذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته :

" قبضتم ولد عبدى "؟

فيقولون : نعم

فيقول : فماذا قال عبدى ؟

فيقول : حمدك واسترجع ،

فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد " أ هـ

---

(١) التوبة آية : ١١٢ (٢) النمل آية : ٥٩

(٣) يونس آية : ١٠

وروى الامام مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ان الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها " ا . هـ

وكما يختم الانسان عمله بالحمد ، فانه يبدأه أيضا بالحمد ، عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد فهو أقطع "(١)

والحامدون هم أول من يدعى الى الجنة :

أخرج ابن مردويه ، وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الشعب ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

" أول من يدعى الى الجنة الحامدون الذين يحمدون على السراء والضراء " ، وجاء عن عائشة رضى الله عنها قالت :

كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا أتاه الأمر يسره ، قال :

" الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، واذا أتاه الأمر يكرهه قال : الحمد لله على كل حال "

والمقربون أيضا سائحون :

والواقع أن الاختلاف فى معنى السياحة هنا لا مبرر له ، وذلك أنها تتضمن كل ماقيل فيها ويتصف المقربون بكل ماقيل فيها :

ان السائحين هم الصابرون ، وقد جاء عن عائشة رضى الله عنها :

---

(١) حديث حسن رواه أبو داود وغيره

" سياحة هذه الأمة الصيام "

لأنه رياضة روحية ينكشف بها كثير من أحوال الملك والملكوت ، فشبه الاطلاع عليها بالاطلاع على البلدان ، والأماكن النائية ، اذ لا يزال المرتاض يتوصل من مقام الى مقام الى مقام ويدخل من مدائن المعارف الى مدينة بعد أخرى على مطايا الفكر (١)

والسائحون هم المهاجرون :

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد : أن السائحين هم المهاجرون وليس في أمة محمد صلى الله عليه وسلم سياحة الا الهجرة ،

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن عكرمة : أنهم طلبة العلم ، لأنهم يسيحون في الأرض لطلبه ،

والسائحون هم المجاهدون :

أخرج الحاكم وصححه ، والطبراني ، وغيرهما عن أبي أمامة ، أن رجلا استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في السياحة فقال :

" ان سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى "

والمقربون راكعون ساجدون :

انهم راكعون ساجدون في صلواتهم وهاتان الصفتان رمزان للخضوع والخشوع لله تعالى ، وكما أن من معاني السجود وضع الجبهة على الأرض في الصلاة فان من معانيه الخشية ، والخضوع ، والسجود بهذه المعاني جميعا من سمات المقربين الأصيلة يقول سبحانه :

" واسجد واقترب "

---

(١) تفسير الآلوسي جـ ١ صـ ٣١

أى اقترب من الله سبحانه وتعالى بسجودك ،سجود الجبهة وسجود القلب الذى نسجد بسجوده الجوارح ،وان للقلب سجودا يعرفه الصوفية ،واذا سجد القلب سجدت الجوارح ،ولا يتأتى مع سجود القلب والجوارح أن يقترف الانسان المعصية ،

واذا سجد القلب فمعنى ذلك حسنت الخاتمة بتوفيق الله تعالى ،وذلك أنه اذا سجد فانه لا يرفع من سجوده الا بلقاء الله تعالى ،ومادام ساجدا فانه هو والجوارح فى جو دائم من رضاء الله تعالى ،لأنه هو والجوارح فى جو دائم من خشية الله تعالى ،

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد " (١)

وكثرة السجود طريق الى الجنة :

روى الامام مسلم هذا الحديث اللطيف الطريف الرائع :

عن أبى فراس ربيعة بن كعب الأسلمى ـ خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من أهل الصفة رضى الله عنه قال :

كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فآتيه بوضوئه وحاجته فقال : سلنى ؟

فقلت أسألك مرافقتك فى الجنة ،

فقال : أغير ذلك ؟

قلت هو ذاك ،

قال صلى الله عليه وسلم : " أعنى على نفسك بكثرة السجود "

وذلك يعنى : أعنى على نزعاتك وأهوائك بسلوكك طريق الخشية وأصل مظهر له : السجود ،فاذا ما وصل الانسان الى السجود فقد وصل الى

---

(١) وتمام الحديث : فأكثر وافيه من الدعاء ،وهو حديث صحيح أخرجه مسلم فى صحيحه وأبوداود فى سننه ،والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه ،

منتهى التواضع لله سبحانه وتعالى ، انه وصل الى العبودية فى أظهر مظاهرها ، ووصل فى الوقت نفسه الى أقرب مايكون العبد من ربه وعندئذ يترتب على ذلك مسئوليته فتكون :

" الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر "

وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما رواه الامام مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه قال : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان "(١)

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى الا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم انها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل (٢) .

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى من عوامل خيرية الأمة الاسلامية : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فقال تعالى :

---

(١) اخرجه أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه عن أبى سعيد رضى الله

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه

" كنتم خير أمة أخرجت للناس : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله "(١)

ولقد لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان عدة من الرسل منهم : داود وعيسى بن مريم عليهما السلام لأنهم ماكانوا ينهون عن المنكر فقال سبحانه :

" لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون "(٢)

وثمرة السجود الحقيقي اذن :

" الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر "

وانه لمن الملاحظ الواضح أن المدارس الصوفية الصادقة التي تسلك الطرق مهمتها الأولى : الدعوة الى الله المتضمنة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

هؤلاء المقربون من دورهم الأصيل ماعبر الله عنه سبحانه بقوله :

" والحافظون لحدود الله "

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

لاتزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله لايضرها من خالفها(٣)

وفي رواية : " لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق

---

(١) آل عمران آية : ١١٠ (٢) المائدة آية : ٧٨ ، ٧٩

(٣) رواه ابن ماجة

حتى تقوم الساعة (١) ،

ولكن الأسلوب القرآنى المعجز بدأ كل هذه الصفات بأعظم صفة للمقربين ،انه سبحانه قبل أن يشرح فى تعداد صفاتهم التى بدأها بقوله : (التائبون) قال :

" ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم " (٢)

ان المؤمن فى عقد الايمان باع نفسه وماله لله ،وهذا العقد بينه وبين الله :

فالمؤمن هو البائع !

والشارى هو الله !

والمبيع هو النفس والمال ،

والثمن هو الجنة ،أى هذا النوع من النعيم الذى بلغ من النفاسة الى مالا عين رأت ،ولا أذن سمعت ،ولا خطر على قلب بشر !

أما مكان التسليم فانه المعركة ،ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" الجنة تحت ظلال السيوف "

وليس من شروط هذا العقد أن يستشهد المقاتل ،كلا !

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك .

(٢) التوبة آية : ١١١

فمن قاتل وانتصر وعاد سالما فله الجنة ، ...

ان الجنة للمقاتل سواء استشهد أوانتصر وعاد الى بيته ...

ولقد روى الحسن رضى الله عنه ،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : — فيما يتعلق ببيع النفس — :

" ان فوق كل برّ برّ حتى يبذل العبد دمه ،فاذا فعل ذلك فلا بر فوق ذلك "

وقال الشاعر — عن بيع النفس — :

الجود بالمال جود فيه مكرمة ∴ والجود بالنفس أقصى غاية الجود!

وقال الحسن : مر أعرابي على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية :

" ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ... "

فقال : كلام من هذا ؟

قال : كلام الله ،

قال : بيع والله مربح ،لانقيله ولانستقياه ،نخرج الى الغزو واستشهد ،

ولقد سجل الله هذا العقد فى التوراة والانجيل فقال :

" وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به "

ولأجل ذلك حينما سمع الصحابة هذه الآية الكريمة قالوا :

"ربح البيع لانقيل ولانستقيل "

أما التقدير الصادق لهذا العقد ،فانه الذى قرره الله سبحانه

وتعالى بقوله : (وذلك هوالفوز العظيم)

واذا وقف أهل اليمين ـ بعد التوبة ـ عند العبادة المفروضة أوعندها وعند سنتها الراتبة فان المقربين ـ وقد ذكرنا من صفاتهم مع العبادة المفروضة ،

أنهم :

" الحامدون ،السائحون ،الراكعون ،الساجدون ،الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله " ،

وقد يتساءل انسان :

أليس للمقربين صفات أخرى غير هذه ؟

والواقع أن للمقربين صفات جميلة أخرى كثيرة ،ولكن صفاتهم فى جوهرها الأصيل تنطوى فى صفة " الساجدون " حين نفهم من السجود :

سجود القلب ،وسجود الجوارح بسجوده ،وكل هذه الصفات تتبلور فى تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم للاسلام :

أن يسلم لله قلبك ،وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك "

وتتبلور فى " اياك نعبد واياك نستعين "

وتتبلور فى : التوحيد الذى يتناسق معه الشبلى فيعرف التصوف بأنه :

بدؤه معرفته ،ونهايته توحيده (١)

ولكنها تتبلور فى صورة هى قمتها وهى :

---

(١) المنقذ من الضلال للامام الغزالى تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود

" أشهد أن لااله الا الله "

هذه الشهادة التي سماها الامام الكتاني يعرف التصوف بأنه :
صفـــاء ومشـــاهدة (١) ،

" ومن اجتباهم الله تعالى تقودهم تهيئهم العميقة الى :
الذكـــر ،

واذا كان لأركان الاسلام نفلها وسننها : صلاة التطوع وصيام التطوع ... الخ فان نفـــل :

الركن الأول منها : الذكر ،ذكر الله تعالى بكل طرقـــه ، وذكره سبحانه عن طريق الصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ،وذلـك أنه سبحانه وتعالى أمر بها ،

والركن الأول هو :

" أشهد أن لاالـه الا الله سبحانه وتعالى ،وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وكما أن الركن الأول أهم الأركان وأساسها ،فان نفـله أهـــم السنن ،

ومن هنا كان اهتمام الاسلام بالذكر اهتماما لا حدود له ،

يقول الامام القشيري وهو من زعماء الصوفية وكتابهم :
والذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه (٢) ،

---

(١) المنقذ من الضلال للامام الغزالي تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود .

(٢) الرسالة القشيرية للامام أبي القشيري تحقيق الدكتور عبد الحليـــم محمود والدكتور محمود بن الشريف .

ثم يستدرك الامام ليكون أكثر دقة ،فيقول :

" بل هو العمدة في هذا الطريق "

ثم يحسم الأمر حسما فيقول :

" ولايصل أحد الى الله الا بدوام الذكر "

أما عن حدود الذكر فان الامام القشيري يقول :

" ومن خصائص الذكر : أنه غير مؤقت بما قبل من وقت من الأوقات الا والعبد مأمور بذكر الله ، اما فرضا ،واما ندبا ، والصلاة وان كانت أشرف العبادات فقد لاتجوز في بعض الأوقات، والذكر بالقلب مستدام في عموم الحالات " ا . هـ

وللامام الصاوي الرجل العالم الصالح صاحب الحاشية المباركة على تفسير " الجلالين " توجيهات نفيسة فيما يتعلق بالذكر ،انه يقول :

" ولا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ،فربما ذكر مع غفلة يجر لذكر مع حضور ،لأنهم شبهوا الذكر بقدح الزناد ،فلايترك الانسان القدح لعدم ايقاده من أول مرة مثلا مبل يكرر حتى يوقد فاذا ولع القلب نارت الأعضاء فلا يقدر الشيطان على وسوسته ،لقوله تعالى :

" ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا "(١)

وخفت العبادة على الأعضاء ،فلا يكون على الشخص كلفة فيها ، قال العارف :

اذا رفع الحجاب فلا ملالة .. بتوفيق الاله ولا مشقة

---

(١) الأعراف آية : ٢٠١

ويكفى الذاكر من الشرف ،قول الله تعالى فى الحديث القدسى :

" أنا جليس من ذكرنى "(١)

وقوله تعالى :

" واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون "(٢)

ويقول الامام النووى :

" الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان "

والأفضل منه ماكان بالقلب واللسان جميعا ، فان اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل ،ثم لاينبغى أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفا من أن يظن به الرياء ،بل يذكرهما جميعا ويقصد وجه الله تعالى وقد قدمنا عن الفضيل رحمه الله :

" ان ترك العمل لأجل الناس رياء "

ولوفتح الانسان عليه باب ملاحظة الناس ،والاحتراز من تطرق ظنونهم الباطلة لا نسد عليه أكثر أبواب الخير ،وضيع على نفسه شيئا عظيما من مهمات الدين ،وليس هذا طريقة العارفين .

وهؤلاء جميعا يتسابقون القرآن الكريم ،ويتناسقون معه ، وذلك أن القرآن الكريم لم يعين للذكر وقتا معينا ؛

وذلك أن جميع الأوقات صالحة للذكر يقول تعالى :

---

(١) رواه الديلمى عن عائشة مرفوعا ،وأخرجه أبو الشيخ عن محمد بن نصر الحارثى ،ورواه الحاكم وصححه عن أنس بلفظ قال الله تعالى : " عبدى أنا عند ظنك بى ،وأنا معك اذا ذكرتنى " ، وروى أحمد وابن ماجه بسند صحيح : أنا مع عبدى ماذكرنى "

(٢) الأنفال : ٤٥ ،الجمعة ١٠ ،حاشية الصاوى على الجلالين جـ ١ صـ ٩٣ .

" وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة " يخلف كل واحد الآخر " لمن أراد أن يذكر أوأراد شكورا "

لقد جعل الله سبحانه جميع آناء الليل والنهار صالحة للذكر :

يقول ابن عباس فى قوله تعالى :

" فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم " (١)

يقول : أى بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، والسفر والحضر ، والغنى والفقر ، والمرض والصحة ، والسر والعلانية ،

والآيات فى القرآن كثيرة تبين أن ذكر الله مستحب فى جميع الأمكنة والأزمنة وفى هذا المعنى يقول فى أوصاف أولى الألباب :

" الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ،

ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار ،

ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ،

ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة ، انك لاتخلف الميعاد " (٢)

وأما عن ذكر اللسان وذكر القلب فان صاحب الرسالة القشيرية يقول:

" فاذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه : فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه "

---

(١) النساء آية : ١٠٣

(٢) آل عمران آية : ١٩١ ـ ١٩٤

واذا كان المسلمون يتابعون القرآن ويتناسقون معه فى موضوع الذكر ،فانهم فى كل ذلك يقتدون برسول الله صلى الله عليه وسلم ويتخذونه قدوة ،وهو امام الذاكرين ،وامام كل المقبلين على طريق الله تعالى ولم يصل ولن يصل انسان الى الله تعالى منذ أرسل صلوات الله وسلامه عليه الى أن يرث الله الأرض ومن عليها الا عن طريقه صلى الله عليه وسلم .

ولرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذكر ،أوقاته وأمكنته وصيغه وثوابه وأنواره ،وتجليات الله ،بسببه على الذاكرين ... ،أحاديث مستفيضة كلها أنوار وتجليات كلها أقباس من نور القرآن .

الفصـــل الثانـــي

" صفـات عباد الرحمن على ضوء الكتـــاب والســـــنة "

" وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما "(١)

بعد أن ذكر الله فى الآية السابقة جعله الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ، ناسب بعد ذلك أن يتكلم على أوصاف المؤمنين ومدى طاعتهم لله سبحانه وتعالى ، وشكرهم وذكرهم وحسن عبادتهم وأجتنابهم للمحرمات .

وعباد الرحمن : مبتدأ خبره " أولئك يجزون الغرفة " ، أوخبره الموصول بعده ، وعباد جمع عبد ، كبحار جمع بحر ، من العبودية وهى الرضا بما يفعله الرب ،

وقال الراغب : العبودية اظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ويمكن اعتبار الممنيين فى تفسير العبادة ، لأن الرضا بما يفعله الرب هو غاية التذلل .

" الذين يمشون على الأرض هونا " وهو صفة لمصدر محذوف ، أى مشيا هونا ، أوحال من فاعل يمشون ، أى يمشون ذاهبين فى غاية التواضع والسكينة ، لايخفقون بنعالهم ، ولايضربون الأرض بأرجلهم غرورا وخيلاء ،

والهون مصدر بمعنى اللين ، ووضعه موضع الصفة زيادة فى المبالغة ،

" واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " لما بين الله حال المؤمن فى خاصة نفسه ذكر حاله مع أفراد المجتمع ، وأن الحلم هو مثال

---

(١) الفرقان آية : ٦٣

من أمثلة الأخلاق الاسلامية التي يجب أن تتبع ، والمراد أنه اذا هاجمهم أحد من الناس أواعتدى عليهم لم يردوا السيئة بالسيئة ،ولم يعتدوا عليه اعتداء بهيميا ،ولكنهم دائما خلقهم الحلم والترفع مع الايمان والثقة في أن الله سينتقم من هؤلاء الجاهلين ، وهذا ما فيه من السعادة في الآخرة والأولى ،وليس معنى ذلك أن الحلم يؤخذ به في جميع الأمور وجميع الحوادث ،فان الغضب لأمور الشريعة والدين وللعرض والكرامة يجب على الانسان ،فان تعرض المؤمن للهوان والضياع فالغضب لهذا مما يوجب عليه .

وسلاما : مصدر وضع موضع التسليم ،ومؤكد لفعله المضمر ، والتقديم نسلم منكم تسليما ، والمعنى اذ واجههم السفهاء بالشيء من القول والفحش من اللسان ،قالوا لهم : سلاما ،أي تسليما منكم وهو سلام متاركة وبعد ،لا سلام تحية ،

لقد تضمنت الآية الكريمة صفتين من أهم صفات المؤمنين وأجلها :

أولاهما : السكينة ، والثانية : التواضع ، ونجد ذلك في كثير من الأحاديث النبوية التي تحض على ذلك وتحث عليه فذكر منها :

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :

كأني أنظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول :

اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون "(١)

---

(١) أخرجه الشيخان في صحيحيهما .

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها قالت: ماضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده ولا امرأة ولاخادما الا أن يجاهد فى سبيل الله وما نيل منه شىء قط فينتقم من صاحبه الا أن ينتهك شىء من محارم الله تعالى فينتقم لله تعالى "(١)

وعن عياض رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ان الله أوحى الى أن تواضعوا حتى لايفخر أحد على أحد ،ولايبغى أحد على أحد "(٢)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" ما انقصت صدقة من مال ،وما زاد الله عبدا بعفو الا عزا وما تواضع أحد لله الا رفعه الله "(٣)

وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

لايدخل الجنة من كان فى قلب مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة :

قال : " ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس "(٤)

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى صلى

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه . (٢) أخرجه مسلم فى صحيحه

(٣) أخرجه مسلم (٤) رواه مسلم

الله عليه وسلم قال : احتجت الجنة والنار ،

" فقالت النار : فيّ الجبارون والمتكبرون ،

وقالت الجنة : فى ضعفاء الناس ومساكينهم ، فقضى الله بينهما أنك الجنة رحمتى أرحم بك من أشاء ،وانك النار عذابى أعذب بك من أشاء ،ولكليتكما على ملؤها "(١)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" ليس الشديد بالصرعة ،انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب "(٢) ،

ثم يقول الله تعالى :

" والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما "(٣)

البيتوتة : أن يدركك الليل ، نمت أولم تنم ،قال الزجاج : كل من أدركه الليل قيل بات وان لم ينم ،كما يقال بات فلان قلقا ،

وقياما جمع قائم كصيام جمع صائم ،أومصدر أجرى مجراه ،

وسجد أجمع ساجد كضرب فى ضارب وهو خبر ليبيتون "

قال العلامة الجمل فى حاشيته على الجلالين :

ويضعف أن تكون تامة ،أى يدخلون فى البيانات ،وسجدا حال ،ولربهم متعلق بسجدا : وقدم للفاصلة والتخصيص ،أى يبيتون

---

(١) اخرجه الامام مسلم ، (٢) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما

(٣) الفرقان آية : ٦٤

ساجدين قائمين لربهم سبحانه ،

وذكروا هذا الوصف دون لفظ الجلالة للاشارة الى قيامهم بخدمة سيدهم وغامرهم باحسانه ومريهم ،

وتخصيص البيتوتة : لأن العبادة فى الليل أحرز وأبعد عن الرياء ،

وعندى أن تقديم سجدا على قياما لأن السجود أكمل درجات الخشوع ،ولأن العبد أقرب مايكون من ربه وهو ساجد ،

وهذا الوصف من الآية للمؤمنين هو وصف لحالهم مع ربهم ، بعد أن وصف فيما سبق حالهم فى تعاملهم مع الخلق ،فان كل هم هؤلاء العباد هو احراز رضا الله سبحانه وتعالى ،والتقرب منه ،سواء فى معاملتهم مع الناس ،أومع الله سبحانه وتعالى ،بخلاف غيرهم الذين يقضون الليل فى اللهو والفراغ ، والبعد عن الله سبحانه وتعالى .

وروى الشيخان عن السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له :

" لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفرالله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

قال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ "

وروى الشيخان عن سالم بن عبدالله بن عمربن الخطاب رضى الله عنهم ،عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" نعم الرجل عبدالله ،لوكان يصلى من الليل ،قال سالم: فكان عبدالله بعد ذلك لاينام من الليل الا قليلا "

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ،قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ياعبدالله لاتكن مثل فلان ،كان يقوم الليل فترك قيام الليل "(١) .

وعن عبدالله بن سلام رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

" أيها الناس افشوا السلام ،وأطعموا الطعام ،وصلوا بالليل والناس نيام ،تدخلوا الجنة بسلام "(٢) .

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم ،كان ينام أول الليل ،ويقوم آخره فيصلى "(٣) .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" أحب الصلاة الى الله صلاة داود ،وأحب الصيام الى الله صيام داوود ،كان ينام نصف الليل ،ويقوم ثلثه ،وينام سدسه ،ويصوم يوما ويفطر يوما "(٤) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ،وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل "(٥) .

---

(١) رواه البخارى ومسلم
(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح
(٣) رواه البخارى ومسلم
(٤) أخرجه البخارى ومسلم
(٥) رواه مسلم .

وعن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر من الشهر حتى نظن ألا يصوم منه ، ويصوم حتى نظن ألا نفطر منه شيئا ،

وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليا الا رأيته ، ولا نائما الا رأيته " (١) ،

" والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما ، انها ساءت مستقرا ومقاما " (٢)

بعد أن مدح الله سبحانه وتعالى عباده بقيام الليل وسجودهم له ، ذكر خوفهم وخشيتهم من عقابه وعذابه فهم لم يغتروا بعبادتهم اياه ، ولم يروول فيها سببا لدخولهم الجنة ، بل يرون أن النجاة من عذاب الله يكون بفضل الله ورحمته ،

والغرام — كما فى الصحاح — الشر الدائم والعذاب ، وقوله تعالى :

" ان عذابها كان غراما "

قال أبو عبيد :

أى هلاكا ولزاما ا . هـ

وقال الزمخشرى : أى هلاكا وخسرانا ملحا لازما ،

والمعنى والذين يقولون فى أغلب وأعم أوقاتهم طالبين من الله

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه

(٢) الفرقان آية : ٦٥ ، ٦٦

ومتضرعين اليه سبحانه وتعالى ،أن لايكون جزاؤهم جهنم ،فقد قال الله سبحانه وتعالى معبرا عن هذا المعنى :

" والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون "(١)

وهذا مدح لهم لأنه تحقيق لايمانهم بالجزاء ،

أحاديث في وصف عذاب جهنم :

أخرج الترمذي والبخاري في تاريخه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" لجهنم سبعة أبواب منها باب لمن سل السيف على أمتي " ،

وروى الطبراني في الأوسط : أن جبريل جاء النبي صلى الله عليه وسلم : فقال :

" ياجبريل مالي أراك متغير اللون ؟

فقال : ماجئتك حتى أمر الله عز وجل بمنافخ النار ، فقال صلى الله عليه وسلم :

" ياجبريل : صف لي النار أوانعت جهنم " :

فقال جبريل : ان الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ،ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، ثم

---

(١) المؤمنون آية : ٦٠

ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت ،فهي سوداء مظلمة لايضيء شررها ولايطفأ لهبها ،

" والذى بعثك بالحق نبيا : لو أن قدر ثقب ابرة : فتح من جهنم لمات من فى الأرض كلهم جميعا "،

" والذى بعثك بالحق : لو أن خازنا من خزنة جهنم برز الى أهل الدنيا لمات من فى الأرض كلهم جميعا : من قبح وجهه ونتن ريحه "،

" والذى بعثك بالحق : لو أن حلقة من حلق سلسل أهل النار الذى نعت الله فى كتابه : وضعت على جبال الدنيا : لارفضت: ووما تقارن : حتى تنتهى الى الأرض السفلى ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" حسبى ياجبريل : لايتصدع قلبى فأموت ،

قال : فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ،الى جبريل وهويبكي : فقال تبكى ياجبريل وأنت من الله بالمكان الذى أنت به ؟

فقال : ومالى لا أبكى : وأنا أحق بالبكاء : لعلى أكون فى علم الله : على غير الحالة التى أنا عليها : ،وما أدرى لعلى أبتلى بما ابتلي به ابليس ،فقد كان من الملائكة ،،وما أدرى لعلى أبتلى بما ابتلى به هاروت وماروت ،

قال : فبكى النبى صلى الله عليه وسلم : وبكى جبريل : فما زالا يبكيان حتى نودى : أن ياجبريل ويامحمد : ان الله قد

آمنكما أن تعصياه : فارتفع جبريل ،وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمر بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون ،

فقال : أتضحكون وتلعبون ووراءكم جهنم ،فلو تعلمون ما أعلم : لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا : ولما أسقم الطعام والشراب ولخرجتم الى الصعدات :تجأرون الى الله عز وجل :

" فنودى : يامحمد : لاتقنط عبادى : انما بعثتك مبشرا ولم أبعثك معسرا "

فقال صلى الله عليه وسلم: سددوا وقاربوا ،

وأخرج أحمد والطبرانى وابن حبان : فى صحيحه : والحاكم وصححه :

" أن فى النار حيات كأمثال أعناق البخت :

تلسع احداهن اللسعة فيجد حرها سبعون خريفا ،

وان فى النار عقارب كأمثال البغال الموكفة تلسع احداهن اللسعة فيجد حموها أربعين سنة "

وأخرج الترمذى وابن حبان فى صحيحه : والحاكم وصححه : عن صلى الله عليه وسلم : فى قول اللهتبارك وتعالى (كالمهل) قال : كعكر الزيت :

فاذا قرب الى وجهه سقط فروة وجهه فيه ،

وأخرج الترمذى : وقال حسن صحيح غريب :

ان الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجميع حتى يخلص

الى جوفه فيسلت مافى جوفه حتى يمرق من قدميه : وهو الصهر : ثم يعاد كما كان : والحميم الماء الحار : الذى يحرق ،

وقال الضحاك : الحميم يغلى منذ خلق السموات والأرض الى يوم القيامة يسقونه : ويصب على رؤوسهم ،

وقيل مايجتمع من دموع أعينهم فى حياض النار فيسقونه : ،

وقيل غير ذلك : وهو المذكور فى قوله تبارك وتعالى :

" وسقوا ماء حميما : فقطع أمعاءهم "(١)

وأخرج أحمد والترمذى ،وقال غريب ،والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : فى قوله سبحانه وتعالى :

" ويسقى من ماء صديد ،يتجرعه ولايكاد يسيغه "(٢) ،

قال يقرب الى فيه : فيكرهه ،فاذا أدنى منه : شوى وجهه ، وقعت فروة رأسه : فاذا شربه قطع أمعاءه : حتى يخرج من دبره ، قال الله عز وجل :

" وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم "

وقال جل ذكره :

" وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب "(٣) ،

وأخرج الترمذى : وقال حسن صحيح : أنه صلى الله عليه وسلم : قرأ هذه الآية :

---

(١) سورة محمد آية : ١٥ (٢) ابراهيم آية : ١٦ ، ١٧

(٣) سورة الكهف آية : ٢٩

" اتقوا الله حق تقاته : ولاتموتن الا وأنتم مسلمون " (١)

فقال صلى الله عليه وسلم : لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا : لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن يكون طعامه :

وفى رواية : فكيف بمن له طعام غيره ؟ "

وصح عن ابن عباس رضى الله عنهما : فى قوله تعالى " وطعاما ذا غصة " : شوك : يأخذ بالحلق : لايدخل ولايخرج "

أخرج الشيخان : مابين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام : للراكب المسرع : والمنكب : مجمع رأس الكتف والعضد :

وأخرج مسلم : ضرس : أوقال : ناب الكافر مثل أحد : وغلظ جلده مسيره ثلاث :

" والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا : وكان بين ذلك قواما " (٢)

لقد مدح الله فى الآية الماضية عباد الرحمن بأنهم يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ، وأنهم يرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه وهم يعتبرون هذه الدنيا وسيلة الى غيرها من نعيم الآخرة ، وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم لايهتمون بهذه الدنيا فلم يسرفوا فيها ، والمقصودون بالاسراف هنا جميع أنواع الاسراف فى الملذات الحلال أى حبها حبا شديد الدرجة الاسراف فيها .

---

(١) آل عمران آية : ١٠٢

(٢) الفرقان آية : ٦٧

" ولم يقتروا : الاقتـــار هنا يشمل حب الدنيا أيضا ، فان البخل حب للأموال ومحاولة الخلود فى الحياة الدنيا ،والابقـــاء عليها الى أبد الآبدين :

ولكنهم وسط بين هؤلاء وهؤلاء ،لم يسرفوا فى محرم ،ولا فى شهوات ،ولم يقتروا على حلال ولا على صدقةوزكاة ،

وتساعد على هذا المعنى الأحاديث التالية :

أخرج أحمد والطبرانى عن أبى الدرداء : عن النبى صلـــى الله عليهوسلم : قال : " من فقـه الرجل رفقه فى معيشته "

وأخرج بن ماجة فى سننه عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول اللهصلى الله عليهوسلم :

(ان من السرف : أن تأكل كل ما اشتهيت)،

ومما يساعد على المعنى قوله تعالى :

" ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط "(١)

" والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلـــك قواما "(٢) ،

ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا "(٣)

واذا كانت هذه الآيات فيها دلالة قوية ومبينة على أن الاسلام هو دين الوسطية ،فان الأحاديث التالية ،تبين معنى الآية التى فـــى

---

(١) الاسراء آية : ٢٩

(٢) الفرقان آية : ٦٧

(٣) الاسراء آية : ١١٠

أيدينا بتوضيح لايدع مجالا لشك ،وتبين النموذج الذى يجب أن يحتذى اسلاميا بالنسبة للفظ " قواما "

روى البخارى رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" أيكم مال وارثه أحب اليه من ماله ؟

قالوا : يارسول الله ،ما منا أحد الا ماله أحب اليه قال :

" فان ماله ماقدم ،ومال وارثه ماأخر "

وروى الشيخان عن عدى ابن حاتم رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" اتقوا النار ولو بشق تمرة "

وروى الشيخان عن جابر رضى الله عنه قال ماسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال : لا

وروى الشيخان عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من يوم يصبح العباد فيه الا وملكان ينزلان فيقول أحدهما :

" اللهم اعط منفقا خلفا ،

ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفا "

وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى :

انفق يابن آدم ينفق عليك " متفق عليه ،

وروى الشيخان ،عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الاسلام خير ؟

فقال : تطعم الطعام ،وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف "

وروى الشيخان عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" لاحسد الا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ،ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها " ،

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" يا ابن آدم ان تبذل الفضل خير لك وأن تمسكه شر لك ،ولا تلام على كفاف ،وابدأ بمن تعول ،واليد العليا خير من اليد السفلى "(١) .

والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ،ومن يفعل ذلك يلق أثاما ،يضاعف له العذاب يوم القيامة ،ويخلد فيه مهانا ،الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ،فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ،ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا "(٢) .

" والذين لا يشركون بالله سبحانه وتعالى الها آخر ،يجعلونهم شركاء له فى العبادة ،ولا يقتلون أحدا الا اذا كان يستحق القتل شرعا ،كما فى حالة الجهاد فى سبيل الله ولا يطؤون فرجا محرما عليهم ،والزنا فى عرف اللغة والشرع : ادخال المكلف الطائع حشفته فى قبل مشتهاة حالا أو ماضيا بلا ملك أو شبهته أو تمكينه من ذلك أو تمكينها فى دار الاسلام ،فعلم أنه لا زنا للصبى والمجنون ومن أكرهه السلطان ،ولا للمولج فى دبر أو فى فرج

---

(١) أخرجه احمد فى مسنده ،والطبرانى فى المعجم الكبير ،

(٢) الفرقان آية : ٦٩ ـ ٧١

صغيرة غير مشتهاة أو ميتة أو بهيمة ، ولمن كان فى دار الحرب ، ولا لمن زنى مع شبهة ، وهو من أمهات الكبائر ، ولذا قرنه الله بالشرك وقتل النفس فى هذه الآية ،

وقد جاء الله سبحانه وتعالى بنفى هذه الجملة من المعاصى عن المؤمن كمناسبة لما ذكره الله سبحانه وتعالى عن المؤمنين من الاعتدال فى النفقة فكان الاعتدال بالبعد عن المعاصى هو الأولى ذكره بعد ذلك ،

يقول العلامة زادة فى حاشيته على البيضاوى :

" كأنه جواب عما يقال : ما الفائدة فى نفى هذه القبائح عن الموصوفين بالخصال المرضية السابقة ، مع أنهم يبعد منهم ارتكاب هذه القبائح فلا وجه اذا لنفيها عنهم ، لأنه انما يحسن نفى صفة عن أحد اذا كانت الصفة المنفية مما يتوهم ثبوتها له ؟

وتقرير الجواب أن الاتصاف بالفضائل السابقة لا يستلزم الاجتناب عن هذه القبائح ، فان الموصوف بتلك الصفات قد يتدين بالشرك ويقتل النفس بغير الحق ويتلبس بالزنى ،

فبين الله أن المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يجتنب الكبائر أيضا ، الا أنه خص من الكبائر أمهاتها ، وأشعر بذلك أن الأجر المذكور فى قوله : " أولئك يجزون الغرفة " موعود للجامعين بين ذلك ،

" وفي هذا النفي تعريض بما كان عليه الكفار ، كأنه قيل وعباد الرحمن هم : الذين لا يدعون مع الله ، وأنتم تدعون ، ولا يقتلون نفسا بغير حق وأنتم تقتلون ، ولا يزنون وأنتم تزنون ويحسن النفي تعريضا وان لم يكن النفي عنه مظنة لثبوت المنفي له "

ويقول الامام الألوسي :

" والمراد من نفي هذه القبائح عنهم التعريض بما يكون عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم والافلا حاجة إلى وصفهم بالصفات المتقدمة من حسن المعاملة ، واحياء الليل بالصلاة ، ومزيد خوفهم من الله لظهور استدعائها واستلزامها نفي ما ذكر عنهم ،

ومن هذا يعلم حل ما قيل الظاهر عكس هذا الترتيب وتقديم التحليه على التخلية ، فكأنه قيل : الذين طهرهم الله وبرأهم مما أنتم عليه من الاشراك ، وقتل النفس المحرمة ، كالموءودة والزنى ،

وقيل : ان التصريح ينفي الاشراك مع ظهور ايمانهم لهذا ، أو لاظهار كمال الاعتناء والاخلاص وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما في سلكه ،

وقد صح في رواية الشيخين والترمذي عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي الذنب أكبر ، قال :

" أن تجعل لله تعالى ندا وهو خلقك ،

قلت ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ،

قلت ثم أي ؟ قال أن تزاني حليلة جارك ، فأنزل الله تصديق ذلك :

" والذين لايدعون الآية " ،

وأخرج الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ناسا من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا :

" ان الذى تقول وتدعو اليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت :

" والذين لايدعون الآية " ، ونزلت :

" قل ياعبادى الذين أسرفوا الآية " ،

وجاز أن يقال فى وجه تقديم التخلية على التحلية : كون الأوصاف المذكورة فى التخلية أوفق بالعبودية التى جعلت عنوان الموضوع لظهور دلالتها على ترك الأنانية ، ومزيد الانقياد ، والخوف والاقتصاد فى التصرف بما أذن المولى بالتصرف فيه ، ولا يأبى هذا قصد التعريض بما ذكر فى التخلية ويؤيد هذا القصد ،

التعقيب بقوله عز وجل " ومن يفعل ذلك الآية " ا ٠ هـ

فاذا فعل أحد هذه الأمور التى تقدمت يلاق عذابا عظيما فيضاعف له هذا العذاب ويخلد فيه مهانا ، بالذنوب التى اقترفها ، لأنه ضاعف الذنوب فضوعفت له العقوبة ،

ومن تاب عن الشرك ، وآمن بالله وبرسوله ، وكتابه ، وعمل عملا صالحا ، بدل الأعمال السيئة التى اقترفها ، فأولئك يتجاوز الله عن سيئاتهم التى عملوها ويغفرها لهم ، وكان الله غفورا يعفو عن السيئات ، رحيما بتبديلها بالحسنات ، ومن تاب عن جميع المعاصى وعمل صالحا

يكفر به عن سيئاته ،فانه يرجع الى الله والى عصمته وسبل هدايته ورشـــاده ، ينجيه من عقاب الله ومن عذابه ،

" التوبـــــــــة "

واذاكان لنا أن نتعرض بشيء من التفصيل لموضوع التوبـــة باعتبارها التي يكفر بها الله سبحانه وتعالى ،ارتكبه عباده العاصون مـــن الذنوب ،فاننا نذكر الآيات القرآنية التي تتعلق بهذا ،

التوبـة : كالتوب والمتاب ،مصدر تاب ،أي رجع الى الله تعالى ،وتحـول عن المعصية الى الطاعة : قال تعالى :

" غافر الذنب وقابل التوب "(١) وقال :

" قل هو ربي لا اله الا هو ،عليه توكلت واليه متاب "(٢) ،

وقال تعالى : " انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ،فأولئك يتوب الله عليهم ،وكان الله عليما حكيما "(٣) ، وهـــي واجبة على العبد الظاهر قوله تعالى :

" وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون "(٤)

وهي ماحية للذنوب :

" ياأيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكـــم أن يكفر عنكم سيئاتكم "(٥)

الأحاديث المتعلقة بالآيات :

الشرك : عن زيد بن أسلم رضي الله عنه أن رسول الله صلى

---

(١) غافر آية : ٣ (٢) الرعد آية : ٣٠ (٣) النساء : ١٧
(٤) النور آية : ٣١ (٥) النجوم آية : ٨

الله عليه وسلم : قال :

" من غير دينه ،فاضربوا عنقه " أخرجه مالك : قال :

" الأمر عندنا ،أن من خرج من الاسلام الى الردة : أن يستتاب فان تاب ،والا قتل "

قال : " ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم : " من ترك دينه فاقتلوه " ،أى من خرج من الاسلام الى غيره ،لا من خرج من دين غير الاسلام الى غيره ،كمن خرج من يهودية الى نصرانية ،أومجوسية ومن فعل ذلك من أهل الذمة : لم يستتب ولم يقتل "

وعن أنس رضى الله عنه : أن ناسا من عكل وعرينه قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم : وتكلموا بالاسلام وقالوا يارسول الله :

انا كنا أهل ضرع ،ولم نكن أهل ريف : واستوخموا المدينة فأمر لهم بذود وراع ،وأمرهم أن يخرجوا فيه : فيشربوا من ألبانها فأبوا لها : فانطلقوا حتى اذا كانوا بناحية الحرة ،كفروا بعد اسلامهم : وقتلوا راعى النبى صلى الله عليه وسلم ،واستاقوا الذود ،فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ،فبعث الطلب فى آثارهم فأمر بهم ،فسمروا أعينهم ، وقطعوا أيديهم ،وتركوا فى ناحية الحرة : حتى ماتوا على حالهم (١)

القتل :

وعند سعيد بن العاص رضى الله عنه ،عن بن عمر رضى الله عنهما ،قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" لايزال المؤمن فى فسحة من دينه مالم يصب دما حراما "

---

(١) أخرجه الخمسة "

وقال عمر رضى الله عنهما :

" ان من ورطات الأمور التى لامخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حل "(١)

وأخرج أبوهريرةرضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" الايمان قيد الفتك ، لايفتك مؤمن "(٢)

وعن ابن مسعود رضى الله عنه ،قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليس من نفس تقتل ظلما الا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها : لأنه أول من سن القتل "(٣)

وعن ابن مسعود رضى الله عنه ،قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" لايحل دم امرىء مسلم ،شهد أن لااله الا الله وأني رسول الله : مدى ثلاث :

" الثيب الزانى ، والنفس بالنفس،والتارك لدينه ،المفارق للجماعة "(٤)

الزنا : روى عن بعض الصحابة : أنه قال : اياكم والزنا فان فيه ست خصال : ثلاثة فى الدنيا ، وثلاثة فى الآخرة ،

فأما التى فى الدنيا : فنقصان الرزق ، وقطع الأجل ،وسواد الوجه ،

---

(١) اخرجه البخارى فى صحيحه

(٢) أخرجه البخارى فى التاريخ ،وأبوداود فى سننه ،والحاكم فى المستدرك عن ابى هريرة ،وأخرجه الامام احمد فى مسنده عن الزبير وعن معاوية .

(٣) أخرجه الخمسة . (٤) أخرجه الخمسة .

وأما التى فى الآخرة فغضب الله وشدة الحساب ،ودخول النار ،

وروى أن موسى عليه السلام قال يارب : مالى من زنى ؟ قال الله تعالى ألبسه درعا من النار ،لووضع على جبل شاهق لأصبح رمادا .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه قال :

" من لاط لايجدرائحة الجنة ،وان رائحتها التوجد من مسيرة خمسمائة عام .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

لاينظر الله تعالى الى رجل أتى رجلا أوامرأة فى دبرها (١) ،

وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه قال : من وجد تموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به (٢) ،

وجاء فى الحديث الشريف عن بن عمر رضى الله عنه :

قال : أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال يامعشر المهاجرين خمس خصال : اذاابتليتم بهن وأعوذبالله أن تدركوهن

" لم تظهر الفاحشة فى قوم فقط : حتى يعلنوا بها الا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا (٣) ..الحديث

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه

(٢) أخرجه أبوداود والترمذى فى سنيهما وابن ماجة وأحمد والحاكم والبيهقى .

(٣) أخرجه الحاكم والبيهقى .

" لعن الله سبعة من خلقه : من فوق سبع سمواته : وردد اللعنة على واحد منهم ثلاثا : " ولعن كل واحد منهم لعنة تكفيه قال :

ملعون من عمل عمل قوم لوط "ملعون من عمل عمل قوم لوط "ملعون من عمل عمل قوم لوط "ملعون من ذبح لغير الله "ملعون من أتى شيئا من البهائم " ملعون من عق والديه "ملعون من جمع بين امرأة وابنتها "ملعون من غير حدود الأرض "ملعون من ادعى لغير مواليه .

التوبة : عن أبي هريرة رضى الله عنه : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم :يقول :

" والله اني لأستغفر الله وأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة "(١)

عن أبي حمزة أنس بن مالك الأنصاري أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضل في أرض فلاه "(٢)

وفي رواية لمسلم : " الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب اليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاه "فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضجع في ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك : اذ هو بها : قائمة عنده "فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : " اللهم أنت عبدي وأنا ربك : أخطأ من شدة الفرح "(٣)

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه "

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما "

(٣) مسلم في صحيحه .

" والذين لايشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما "(١)

ذكر الله سبحانه وتعالى نوعين من الذنوب يجتنبهما المؤمن ويبعد عنهما عباد الرحمن بعد أن ذكر حكم التوبة من السيئات ،

هاتان الصيغتان هما : شهادة الزور ،وعدم الاهتمام باللغو والتجاوز عنه ،

وقد ركز الله سبحانه وتعالى على شهادة الزور نظرا لدخولها فى كثير من الأحكام الشرعية التى تحتاج الى الشهادة كالزنا والقتل والسرقة وغيرهم ،

وأيضا ركزت الآية على اللغو الذى يدخل فيه الكذب ،والقول الفاحش ،وانتهاك حرمات المسلمين .

والمعنى المراد :

والذين لايشهدون شهادة الزور ،على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامة لينصب على أنه صفة له

ولايحضرون مواضع الكذب أو الخنا ،مأخوذ من الشهود والأول من الشهادة :

لأنه مساعدة لأهل الباطل على ماهم فيه ووجودهم معهم دليل على استحسانه والرضا به ، وعلى المؤمن أن يترفع بنفسه عن مخالطة أهل الشر ومشاركتهم فى باطلهم ، لأن من حام حول الحمى : يوشك أن يقع فيه(٢)

---

(١) الفرقان اية ٧٢

(٢) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ان الحلال بين وان الحرام بين وبينهما مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس ،فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه الا وان لكل ملك حمى الا وان حمى الله محارمه الا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهى القلب

ببلوغ النهاية فى الطاعة ،واحراز شرف العبودية ،التى يجب أن يسعى اليها ويتنافس فيها مبغين ما أعده لهم من الجزاء ،وحسن المثوبة ،والكرامة فى الدار الآخرة ،على صبرهم عن الشهوات ،وعلى مشاق التكاليف ، لينبه على أن صفقتهم رابحة ،وأنهم لهم تجارة لن تبور ،وأنهم هم الفائزون ،

وقرأ حمزة ،والكسائى ،وشعبه ،عن عاصم :

" ويلقون فيها تحية وسلاما " بفتح الياء والقاف ،بينهما لام ساكنة ،

وقرأ الباقون : يلقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف مفتوحة ،

والمعنى فأولئك الذين تقدم نعتهم بها لامزيد عليه من الخلال الكريمة ،الدالة على منزلتهم ،وخضوعهم لله تعالى ،يجزون الغرفة بماصبروا ، أى يدخلون أعلى منازل الجنة ،جزاء لهم بسبب صبرهم على امتثال الأوامر واجتناب النواهى ،ورياضة النفس ،وجهاد الأعداء ،وأذى المشركين وغيرذلك ،،

والغرفة الدرجة العالية من المنازل ،وكل بناء مرتفع ،وهى اسم جنس قصد به الجمع ،ليوافق قوله تعالى :

" وهم فى الغرفات آمنون " (١) ،وقيل الغرفة اسم للجنة ،وأولئك مبتدأ ،ومافيه من معنى البعد للتنبيه على علو درجتهم ،وبعد منزلتهم فى الفضل ،ويجزون خبره ،والجملة لامحل لها من الاعراب مستأنفة لبيان أنواع احسان الله تعالى عليهم ،بعد وصفهم بما ذكروا على القول الثانى وهى فى محل رفع خبر لعباد الرحمن على القول الأول ، والباء سببية ،ومامصدرية ، وحذف

---

(١) سبأ آية : ٣٧

مفعول صبروا ليعم كل ماتقدم ،وغيره ليكون ذلك أبلغ فى مدحهم ،وأدل على مزيد انقيادهم له تعالى ،

وانما لم يقل فعلوا لأن مامعنا أدخل فى باب الثناء عليهم لأنهم عالجوا أنفسهم وراضوها على فعل الخير وترك الشر ،حتى ذللت لهم وانقادت ،

(ويلقون فيها تحية وسلاما) أى دعاء بالتعمير ودوام البقاء ، وسلاما من الآفات والعلل ،وأصل التحية من قولهم : حياك الله وأبقاك ، وهى مشتقة من الحياة ،والمراد : أن الله تعالى يجمع لهم بين سكنى الجنة والانتفاع بما فيها ،

وبين هذه المقالات السارة ،وفاعل التحية والسلام : اما الله عز وجل لقوله تعالى : (سلام قولا من رب رحيم)(١)

واما الملائكة كقوله تعالى :

" والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم "(٢)

" واما بعضهم مع بعض كما هو الظاهر من قوله تعالى :

" تحيتهم فيها سلام "(٣)

والغرض من هذا الكلام : ادخال الفرح على قلوبهم ،وتهنئتهم بما وصلوا اليه من الدرجات العلى ،لأن الداعى يطلب لهم ماليس حاصلا ، اذ بقاؤهم فى الجنة ثابت من غير تحية ولا دعاء ،ونعيمهم دائم خالص من شائبة الضرر " خالدين فيها " حال من فاعل يلقون مفيد : لأن ماهم فيه

(١) سورة يس آية : ٥٨ (٢) الرعد آية ٢٢ ، ٢٣

(٣) يونس آية : ١٠

من الخير والتكريم بدعاء الملائكة لهم بالسلام وتحيتهم أبدى لانقضاء له :

" حسنت مستقرا ومقاما " أى ما أحسنها وأحسنت بمن نعمت وفيها ضمير مبهم تفسيره هى والتأنيث باعتبار الجنة ومستقرا ومقاما نصبا على التمييز .

وهذه أحاديث فى ماأعده الله للمؤمنين فى الجنة .

وفقنا الله للعمل لها :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

" ان أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم : كما تراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أوالمغرب لتفاضل مابينهم

" قالوا يارسول الله تلك منازل الأنبياء لايبلغها غيرهم؟ .

قال بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين " (١)

وعن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

اذا دخل أهل الجنة الجنة ينادى مناد : ان لكم أن تحيوا فلاتموتوا أبدا .

وان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا .

وان لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا .

وان لكم أن تنعموا فلا تبتئسوا أبدا " (٢)

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه الامام مسلم

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" ان أدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له تمن ، فيتمنى ويتمنى ، فيقول له : هل تمنيت ؟ فيقول : نعم ،

فيقول له : فان لك ما تمنيت ومثله معه "(١)

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ان الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة : فيقولون لبيك : ربنا وسعديك ، والخير في يديك ،

فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لانرضى ، يارينا فقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ؟

فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟

فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا "(٢)

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه : قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : فنظر الى القمر ليلة البدر وقال : انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر : لاتضامون في رؤيته (٣)

وعن صهيب رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢) متفق عليه

(٣) متفق عليه .

قال : " اذا دخل أهل الجنة الجنة : يقول الله تبارك وتعالى : " تريدون شيئا أزيد بكم ؟

فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة ؟ وتنجنا من النار ؟

فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب اليهم من النظر الى ربهم (١)

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" ان أهل الجنة ليتراءون بالغرف فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء " (٢)

وعنه رضى الله عنه قال :

شهدت من النبى صلى الله عليه وسلم مجلسا وصف فيه الجنة حتى انتهى ثم قال فى آخر حديثه :

" فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " ثم قرأ :

" تتجافى جنوبهم عن المضاجع : الى قوله تعالى :

" فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين " (٣)

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢) متفق عليه

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه والآية رقم ١٦ ، ١٧ من سورة السجدة .

" انى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها ،وآخر أهل الجنة دخولا الجنة ؟ رجلا يخرج من النار حبوا ،فيقول الله عز وجل :

" اذهب فادخل الجنة ، فيأتيهما : فيخيل اليه أنها ملئ : فيرجع : فيقول الله عز وجل :

" اذهب فأدخل الجنة ،فان لك مثل الدنيا عشرة أمثالها ،أو أن لك مثل عشرة أمثال الدنيا "

فيقول : أتضحك بى ؟ أوتضحك بى ؟ ،وأنت الملك ؟

قال : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم : ضحك حتى ندت نواجذه ،فكان يقول ذلك أدنى أهل الجنة منزلة (١)

وعن أبى موسى رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

" ان للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة بحوفة طولها فى السماء ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن ، ولايرى بعضهم بعضا " (٢)

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ،عن النبى صلى الله عليه وسلم :اقال :

" ان فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام مايقطعها " (٣)

---

(١) متفق عليه (٢) متفق عليه

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده ،ومسلم فى صحيحه ،والبخارى فى صحيحه ، والترمذى فى سننه عن أنس ،وأخرجه البخارى ومسلم عن سهل بن سعد ،وأخرجه أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم والترمذى عن أبى سعيد ،وأخرجه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه فى سننه عن أبى هريرة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : لقاب قوسين فى الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أوتغرب "(١)

وعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" ان فى الجنة سوقا يأتونها كل جمعة : فتهب ريح الشمال فتحسر فى وجوههم وثيابهم فيزدادوا له حسنا وجمالا فيرجعون الى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا :

فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم حسنا وجمالا ، فيقولون : " وأنتم والله ،لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا "(٢)

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه .

" قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما "(١)

لما ذكر الله سبحانه وتعالى فيما تقدم جزاء المؤمنين ووصفهم قبل ذلك بالصفات المنبئة عن العبودية الحقة ، والاخلاص في خدمته تعالى ،وامتثال أوامره ، والبعد عما نهاهم عنه .

عقب ذلك بذكر أن مايدعوهم اليه من العبادة ، ليس لمنفعة ترجع اليه ،اذ هو الغني عنهم ،وعن طاعتهم بل وعن كل مخلوق كائنا من كان ،وانما يرشدهم بهذا الدين الى مايفيدهم ، ويحقق لهم السعادة الأبدية .

فعلى جميع الناس أن يعقلوا هذه النعمة ،ويقدروها حق قدرها ،فيعبدوه وحده ، لايشركوا به شيئا ،

ويتبعوا هذا النور الذى أنزل لهدايتهم وصلاح أمرهم في الدنيا والآخرة :

والمعنى : قل يا " محمد " لكل الناس متحدثا معهم عما حصل من جنسهم من خير وشر ،حتى يتبين لهم أن السبب في ظفر البعض بتلك الخيرات الكثيرة والمقامات الرفيعة ، هو تمسكهم بالاسلام وما يحث عليه من فضائل .

" مايعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم " ،أى أى شيء يعبؤا بكم ،

---

(١) الفرقان آية : ٧٧

وأى اعتداد يعتد بكم ،لولا عادتكم له تعالى ،فانكم انما خلقتم لطاعته ، والاقرار له بالألوهية والوحدانية .

كماقال تعالى :

" وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون " (١)

والا فقد شاركتم البهائم فى هذا الوجود الخسيس القاصر على جمع الطعام والشراب ، وتلبية الشهوات، وعواطف الشر ، ونبذ العقل والتفكير فى امر المعاش والمعاد ، على ضوء الحكمة والبصر بعواقب الأمور ، وأصل اللعبء الثقل :

" تقول ما عبأت بفلان ،أى ما أعددت له مايكون ثقلا على ،وماستفهامية منصوبة على المصدرية ،كما مر تقديره وذكر الرب مضافا الى ضميره عليه الصلاة والسلام لافادة ، أن هذا الكلام من جملة تربيته تعالى لعباده ،وأن الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور من قبله تعالى ،بأن يقول : وليس عليه الا الاتباع والدعاء بمعنى العبادة ، وهو مصدر مضاف الى الفاعل ،

وقال الزجاج : أى وزن يكون لكم عنده تعالى : لولا عبادتكم وجواب لولا محذوف ،والتقدير لولا دعاؤكم لما اعتد بكم لدلالة ماقبله عليه .

وقيل المعنى : مايصنع بكم ربى ،لولا دعاؤه اياكم الى الاسلام ،

---

(١) الذاريات آية : ٥٦

فالدعاء بمعنى الدعوة ،وهو مضاف الى المفعول ،

وقيل ما يصنع بعذابكم ،لولا دعاؤكم ،معه آلهة ،كقوله : تعالى :

" مايفعل الله بعذابكم ،ان شكرتم وآمنتم "(١) ،

وقيل : مايعبؤا بكم بعذابكم لولا دعاؤكم اياه ،وتضرعكم اليه في الشدائد ،كقوله :

" فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين "(٢)

ويصح أن تكون ما نافية ،أي لايعبأ بكم : (فقد كذبتم) هو بيان الحال من كفرين المخاطبين ،بعد بيان حال من آمن منهم ،

والمعنى : فقد كذبتم بما أنزلته عليكم أيها الكفرة ،وعصيتم أمري واتبعتم غير سبيل المؤمنين : ومثل ذلك من يقول الملك لمن خرج على أمره ،ان من عبادتي أن أحسن الى من يطيعني ، وقد عصيتني ،فسوف ترى ما سينزل بك من العقاب بسبب عصيانك ،

فانه تعالى قال :

" قد أعلمتكم بأن حكمي ألا أعتد بعبادي الا لعبادتهم ، فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي ،

---

(١) النساء آية : ١٤٧

(٢) العنكبوت آية : ٦٥

فسوف يكون لزاما ،أى يكون أثر التكذيب ،أوجزاؤه لازمـــا ، يحيق بكم ،فلا مفـر لكم منه ولا خلاص ،وذلك في الآخرة ، وقيل اســـم يكون هو العذاب وعدم التصريح بالاسم ،لتفخـيم شأنه والتنبيه علـــى أنه من الهول والشدة بحيث لايمكن وصفه :

وقانا الله أسبابه ونجانا من موجباته وعصمنا من الزيـــــغ بعد الهداية والضلال بعد الهدى ،

" نتائج البحـــــث "

١ = عمق الصلة التي تربط بـــــين سورة الفرقان وســورة النـــور التي قبلها ويظهر ذلك في وضوح في مطلع السورتين وأثنائهما ومختتمهما حيث نجد أن هناك ربطا قويا ومناسبة ظاهرة بـــين السورتين .

٢ = أن جميع التعريفات للدين حصرت وحصرت تعريفـــــه في نطاق الأديان السماوية ذات الإله الواحد ولم تشمل تعريف الديانات الوثنية وغيرها من الديانات الناتجة عن الخرافـــات والأساطير بل ان منها من لم يتعرض للألوهية في تعريفـــه على الاطلاق كما فعل اميل دوركايم في تعريفه عن الدين .

٣ = اذا خرجنا من نطاق التعريفات للدين ونظرنا في القرآن نجده يعبر عن جميع المعتقدات غير الاسلام بلفظ دين :

" ومن يبتغ غير الاسلام دينا "

بل انه يخاطب الكافرين بلفظ دين :

" لكم دينكم ولي ديـــن "

وفي الآية التي نحن بصدد دراستها يعبر عن معبـــودات الكافرين بلفظ آلهة :

" واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقـــون ولايملكون لأنفسهم ضرا ولانفعـــا ولا موتا ولا حياة ولانشورا "

ويؤيد كل ذلك : أن هذه المعبودات التى كان يتخذهـــا المشركون لم تكن تقيـد لذاتها بل كانت واسطة بينهم وبين الالـــه المعـبود :

" وما نعبـدهم الا ليقربونا الى الله زلفى "

ومن هنا فاننا نرتضى تعريف الدكتور محمد عبدالله دراز لأنه يشمل كل مامن شأنه أن يسمى دينا .

(الدين هو الاعتقاد بوجود ذات أوذوات غيبية علوية لها شعور واختيار ولها تصرف وتدبير للشئون التى تعنى الانسان اعتقادا مـــن شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية فى رغبة ورهبة وفـــى خضوع وتمجيد وعبارة موجزة هو الايمان بذات الـهية جديرة بالطاعة والعبادة)

هذا اذا نظرنا اليه من حيث هو حقيقة خارجية فنقول :

" هو جملة النـواميس النظرية التى تحدد صفات تلك القوة الالهية وجملة القواعد العملية التى ترسم طريق عبادتها .

٤ = بطلان قول الذين قرروا بأسبقية الوثنية على التوحيد وثبوت قول الذين قرروا بأن التوحيد هو الأصل وأن العقيدة الوثنيـــة جاءت طارئة على هذا الأصل فى بعض أوقات الضعف والتهاون .

" وماكان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا "

" فطرة الله التى فطر الناس عليها "

" كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أوينصرانه أو يمجسانه "

٥ = ان عقيدة التوحيد ، كانت كامنة فى أعماق نفوس المشركين تطهرها الشدائد ثم ينسيها طول الأمد وأنهم كانوا يجعلون الأصنام وسائط لتكون لهم سندا عند الله يوم القيامة ولتقربهم الى الله زلفى ،

٦ = هل تتمثل عظمة الاسلام بالنسبة للتوحيد بمعنى نفى الشريك فقط ،

ان سورة الفرقان ينبثق عنها فيض من المعانى الكريمة يمكن اجمالها فى :

أن معنى التوحيد أن يلقى الانسان بقياده فى استسلام مطلق الى الله سبحانه وتعالى وأن يخلص له وجهه اخلاصا كاملا فان من يجعل خصائص الألوهية الحقة وهى الملك والخلق والتقديس والاستغناء عن الولد والشريك :

" تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ،

الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا "

ينبغى أن يوحد فى كل شىء واذاكان الطابع الاسلامى الأصيل

هو التوحيد فان خصائص الألوهية يترتب عليها التوحيد فى العقيـــدة والتوحيد فى العبادة ،والتوحيد فى الأخلاق .

٧ = تعريف النبوة : بأنها سفارة بين الله وخلقه يقصد بهـــا اصلاح أمرهم وهبه من الله سبحانه وتعالى يمنحها لمن يصطفيهـــم من عباده بعد أن يربيهم التربية الصحيحة التى بها يكونون مؤهلين لتلقى الوحى من الله سبحانه وتعالى فى أى وقت.

٨ = نرتضى رأى الامام بن تيميـة فى الفرق بين النبى والرسول لأنه يتفق مع المنهج القرآنى وهو :

" النبى هو الذى ينبئه الله وهو ينبىء بما أنبأه الله بـــه ، فان أرسل مع ذلك الى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله اليه فهـــو رسول ،وأما اذا كان يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو الى أحد يبلغـــه عن الله رسالة فهو نبى وليس برسول" .

ونحن نضيف الى كلام ابن تيميـة أن مهمة النبى تتناول التبليـــغ عن الله عز وجل فى أمور تتعلق بمصلحة المؤمنين والفصل فى قضاياهـــم العامة كما قال تعالى :

" انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذيـــن أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبـــار "

كما تتناول الاشراف على سياسة الدولة وتولية المناصـــب من لدن الله عز وجل كما قال تعالى :

" ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله " ،

كذلك وتتناول التشريع فى مسائل جزئية فيها صفة تشريعية مؤقتة كما قال تعالى على لسان ذلك النبى :

" انّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى " ،

أما مهمة الرسول فهى شاملة لكل التشريعات القديمة ، أو الجديدة على أن تخصيص الرسول بانزال كتاب جديد عليه قضية لم يقم عليها دليل ونحن نؤمن بأن جميع الأنبياء والرسل لا بد أن يكون معهم كتاب يكون دستورا للشريعة التى يحكمون بها ،قال تعالى :

" كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه "

١٩ = سبب حاجة البشر الى النبوة هو أن علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الآتية اليهم عن طريق الوحى المعصوم هى الوسيلة الصحيحة للوصول الى الايمان المطلق والعقل الانسانى قاصر فى هذا المجال ولو ذهبنا الى استقراء جهود العقل الانسانى فى هذا المجال لسطرنا آلاف الصفحات ولكن كل تلك الجهود ثبت تخبطها ولم نستطع الوصول بنا الى الحقيقة الكاملة ،

ومن هنا ثبتت حاجتنا الى الوحى الالهى المعصوم ليهدينا

طريق الرشاد ،

١٠ = أن الجزيرة العربية كانت تموج بأفكار كثيرة تبشر بظهور الاسلام وتمهد الطريق له ولم تكن بيئة يسودها التوحش وانعدام الأمن وسوء الخلق كما يحاول ذلك كثير من الكتاب فى كتابتهم على بيئة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

١١ = ظهور كثير من لوائح الهداية ومظاهر الخصوصية على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة تحدثنا عنها فى الرسالة وهى كرم أصله وطيب منبته وتبشير الكتب السماوية السابقة به صلى الله عليه وسلم وما وقع فى مولده الشريف من أحداث وتحقيق صحتها وكذلك فى حال رضاعه عليه الصلاة والسلام مثل حادث شق الصدر ،

وتحقيق رأى بحيرا الراهب فى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذ كثير من الدلائل منه على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ،

اجتناب الرسول صلى الله عليه وسلم للأصنام وتحقيق ذلك واثبات صحته ،

اطلاق لقب الأمين على الرسول صلى الله عليه وسلم وانطباق هذا اللفظ عليه صلى الله عليه وسلم فى جميع أمور حياته وأنه كان أمينا على نفسه فلم يدنسها بأى سوء وأمينا على غيره فلم يعتد على أحد ولم يظلم أحدا وكان يحتكم اليه فى المنازعات وأخيرا تحنثه صلى الله عليه وسلم وتحقيق الروايات التى جاءت بذلك ،

١٢ = اثبات كذب المشركين والمستشرقين فى ادعائهم على الرسول صلى الله عليه وسلم تأليف القرآن بأنه افك افتراه أوأنه من أساطير الأولين وغير ذلك والرد عليهم بما يناقض قولهم وبيين كذبهم بنقد رواياتهم وبيان اعجاز القرآن من أوجهه المتعددة التى لايستطيع بشر الاتيان بأقصر سورة من مثله .

١٣ = الرد على دعاوى المشركين من سخريتهم بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل قولهم :

" وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أويلقى اليه كنز أوتكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا " .

ودحض هذه الشبهات والرد عليها ردا علميا يبين تهافتها وسقوطها هى وغيرها من شبهاتهم .

١٤ = الاستدلال على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ببيان عظمة خلقه وقوة جهاده فى الحق وتحقيق معجزاته الحسية وبيان بعض أمور حياته التى تدل على صدق نبوته .

١٥ = اثبات البعث والجزاء من الكتاب والسنة مع تعريف الحياة والموت وحقيقة الروح وكيفية البعث ونفخة الصور والحشر واثبات الحساب والميزان وبيان حقيقتا الجنة والنار وأنهما موجودتان الآن .

١٦ = اثبات أننا اذا أردنا مدخلا للأخلاق الاسلامية فاننا نجد

أساس هذا المدخل موجودا فى صفات عباد الرحمن ،فيقول الله تعالى فى صفات عباد الرحمن :

" وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذاخاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " .

ان لله عبادا ينتسبون اليه باسم الرحمن انهم عبادالرحمن ولهم صفات تتناسب مع اسم الرحمن وأول هذه الصفات أن ارتباطاتهم بالأرض هينة لأن قلوبهم معلقة برب الأرض واذاماجعل بعض الناس كل همه جمع المال فى جشع وتكالب فانهم متجهون على العكس الى العمل فى حقل الخير والحق والفلاح .

وهى أسس جامعة ينتج عنها صفات أخرى كريمة محببة مطلوبة منها : أنهم :

لايقتلون النفس التى حرم الله قتلها الا بالحق ولاينتهكون الأعراض والمحرمات ولاشك أن من ينتهك اعراض هذا القبيل فانه يلقى سوءا يسوء وان الله سبحانه لايهمل وان كان يمهل أحيانا وعبادالرحمن لايأتون الزور والزور هوالباطل على أى وضع كان انهم لايأتونه ولايمينون عليه ولايجلسون فى مجالسه واذا مروا بأهل اللغو مروا معرضين عنهم يقول تعالى فى سورة القصص :

" واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلين "

ومن دعاء عبادالرحمن : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا

امامـــا وجزاء عباد الرحمن هو ما عبر عنه الله سبحانه وتعالى بقوله " أولئك يجزون الغرفة " أى الدرجة العليا والمنزلـــة السامية (بماصبروا ..... مقاما "

وتكون نتيجة ذلك كله أيضا : أن الله سبحانه وتعالـــى يتكفل لكل من التجأ اليه بالنصر والتأييد وتكفل بالرعاية والعنايـــة لكل من أمن وعمل صالحا يقول تعالى :

" من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤ من فلنحيينه حياة طيبة وليجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون "

ويقول تعالى :

" ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه " ،

والصفة الثانية التى تلازمهم أنهم سلام أينما ساروا وحيثما حـلوا وحتى اذا ماخاطبهم الجاهلون وهم الذين لم تستنر قلوبهـــم بنور الايمان فانهم يقولون مايؤ دى بالجاهلين الى السلام من كلمـــات الخير والمعروف ،

وصفتهم الثالثة أن قلوبهم معلقة بالرحمن فهم يبيتـــون له سجدا خشوعا خاضعين وقياما عابدين متبتلين يدعونه سبحانـــه أن يصرف عنهم عذاب جهنم فان عذابها هلاك أليم ،

وصفتهم الرابعة هى الاتزان فى اعمالهم فهم مثلا اذا انفقـوا

لم يسرفوا فى الانفاق ولم يستول عليهم شح مهلك وانما كانوا وسطا بين الاسراف والتقتير ،

أما الصفة الخامسة : فهى أن أعمالهم خالصة لله تعالى انهم لا يشركون به ولا يعبدون ربا سواه والله سبحانه وتعالى لا يغفر أن يشرك به ،والله سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك فاذا عمل أحد عملا وأشرك غير الله فيه فان الله سبحانه يترك العمل للشريك ، أى لا يجازى عليه ولا يثيب فاعله ،

هذه هى الأسس الأصيلة التى يتصف بها عباد الرحمن ،

نسأل الله أن يجعلنا من متبعيها وأن يوفقنا لصالح الأعمال ،

" بسم الله الرحمن الرحيم "

من أهم المراجع

١ = القرآن الكريم

٢ = تفسير الألوسى

٣ = تفسير القاسمى

٤ = تفسير الفخر الرازى

٥ = تفسير القرطبى

٦ = تفسير البيضاوى

٧ = تفسير الزمخشرى

٨ = تفسير الطبرى

٩ = حاشية الصاوى على الجلالين

١٠ = كتاب الدين للدكتور محمد عبدالله دراز

١١ = سير أعلام النبلاء

١٢ = الله للأستاذ عباس محمود العقاد

١٣ = كتاب الأصنام لأبى المنذر هشام بن محمد السائب الكلبى

١٤ = فتح البارى للحافظ ابن حجر

١٥ = البخارى

١٦ = مسند الامام أحمد ابن حنبل

١٧ = سنن الترمذى

١٨ = سنن أبى داود

١٩ = صحيح مسلم بشرح النووى

٢٠ = مختصر صحيح مسلم تحقيق محمد ناصرالدين الألبانى

٢١ = الجامع الصغير

٢٢ = المستدرك للحاكم

٢٣ = الأديان فى القرآن للدكتور محمود بن الشريف

٢٤ = السيرة النبوية للدكتور محمد بن محمد أبوشهبة

٢٥ = الفلسفة الحديثة فى الميزان للدكتور محمدبن فتح الله بدران

٢٦ = أديان العرب فى الجاهلية لمحمد نعمان الجارم

٢٧ = تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد على

٢٨ = حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل

٢٩ = تفسير مجمع البيان للطبرسى

٣٠ = تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم حسن

٣١ = الأوائل لأبى هلال العسكرى

٣٢ = جواهر القرآن للامام أبى حامد الغزالى

٣٣ = تاريخ الفلسفة اليونانية للدكتور يوسف كرم

٣٤ = تاريخ الفلسفة اليونانية لألبير /يقو ترجمة الدكتور عبدالحليم محمود وأبوبكر ذكرى ٠

٣٥ = الرسالة القشيرية للامام القشيرى تحقيق دكتور عبدالحليم محمود والشريف

٣٦ = المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى

٣٧ = تفسير البحر المحيط لأبى حيان التوحيد ى

٣٨ = المقصد الأسى فى شرح أسماء الله الحسنى للامام أبى حامد الغزالى

٣٩ = التخيير فى التذكير للامام القشيرى

٤٠ = الاحتجاج بالقدر مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية

٤١ = موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لابن تيمية تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد

٤٢ = النبوات لابن تيمية

٤٣ = نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن الدكتور حسنين ضياء الدين عنترين محمد

٤٤ = لسان العرب

٤٥ = القاموس المحيط

٤٦ = المفردات فى غريب القرآن

٤٧ = شرح المقاصد على المواقف لعضد الدين الأيجى

٤٨ = رسالة التوحيد للامام محمد عبده

٤٩ = التوحيد الخالص أوالاسلام والعقل للدكتور عبدالحليم محمود

٥٠ = الاسلام والايمان للدكتور عبدالحليم محمود

٥١ = تهافت الفلاسفة للامام أبى حامد الغزالى

٥٢ = خقوق الانسان فى الاسلام للدكتور على عبدالواحد وافى

٥٣ = الموسوعة فى سماحة الاسلام للشيخ محمد صادق عرجون

٥٤ = الأدب المفرد للبخارى

٥٥ = الدين والعلم للمشير أحمد عزت باشا

٥٦ = صفوة الصفوة لابن الجوزى

٥٧ = النبوة والأنبياء لأبى الحسن الندوى

٥٨ = التمهيد لتاريخ الفلسفة للشيخ مصطفى عبدالرازق

٥٩ = التفكير الفلسفى فى الاسلام للدكتور عبدالحليم محمود

٦٠ = السيرة النبوية لابن كثير تحقيق الدكتور مصطفى عبدالواحد

٦١ = الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى " "

٦٢ = الطبقات الكبرى لابن سعد

٦٣ = انجيل برنابا

٦٤ = انجيل يوحنا

٦٥ = خاتم المرسلين حيا ورسالة للدكتور يوسف عبدالهادى الشال

٦٦ = محمد رسول الله للأستاذ محمد رضا

٦٧ = التوراة

٦٨ = قصص الأنبياء للشيخ عبدالوهاب النجار

٦٩ = الخصائص الكبرى للسيوطى

٧٠ = الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته الشريفة للدكتور عبدالحليم محمود

٧١ = سيرة بن هشام

٧٢ = الوحي المحمدي للسيد محمد رشيد رضا

٧٣ = دلائل النبوة للبيهقي

٧٤ = تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبدالجبار

٧٥ = دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة تحقيق السيد أحمد صقر

٧٦ = ارشاد الساري الى شرح صحيح البخاري للقسطلاني

٧٧ = النبأ العظيم للدكتور محمد عبدالله دراز

٧٨ = البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم

٧٩ = ثلاث رسائل في اعجاز القرآن تحقيق الأستاذ محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام

٨٠ = بديع القرآن لأبي الاصبع المصري

٨١ = اعجاز القرآن للباقلاني

٨٢ = بيان اعجاز القرآن للخطابي

٨٣ = المعجزة الكبرى القرآن العظيم للشيخ محمد أبوزهرة

٨٤ = خاتم النبيين للشيخ محمد أبوزهرة

٨٥ = أسباب نزول القرآن للواحد تحقيق السيد أحمد صقر

٩٦ = أسباب النزول للسيوطي

٨٧ = الاتقان في علوم القرآن للسيوطي

٨٨ = تحقيق ما المسند من مقولة مقبولة في العقل أرمرذولة

٨٩ = قضية الألوهية لعبد الكريم الخليب

٩٠ = مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية

٩١ = تفسير لطائف الاشارات للامام القشيرى تحقيق دكتور ابراهيم بسيونى

٩٢ = الأحوال الشخصية للشيخ محمد أبوزهرة

٩٣ = اعجاز القرآن البيانى بين النظرية والتطبيق للدكتور حفنى محمد شرف

٩٤ = محمد رسول الله وخاتم النبيين للشيخ محمد الخضر حسين

٩٥ = العقيدة الاسلامية وأسسها للدكتور عبدالرحمن حبنكه الميدانى

٩٦ = القرآن العظيم هدايته واعجازه فى أقوال المفسرين لمحمد الصادق عرجون

٩٧ = السفينة الناخرة الى البرزخ والدارالآخرة للشيخ حامد بن محمد العبادى

٩٨ = كتاب الروح لابن القيم

٩٩ = تفسير ابن كثير

١٠٠ = النهاية لابن كثير تحقيق الدكتور طه الزينى

١٠١ = مختصر شعب الايمان

" محتويـــــــات الرسالـــــــة "

الموضـــــــــــــــوع	الصحيفـة
مدخل الرسالة	١
مقدمة الرسالة	١٧
البـــــاب الأول	
" الفصـــــل الأول "	
"العقيدة الوثنية"	٣٤
نشأة العقيدة الوثنية	٤٠
القائلون بأن أهل الدين التوحيد	٤٤
تقييمنا للآراء السابقة في نشأة العقيدة الوثنية	٤٦
مقصد المشركين من عبادة الأوثان	٥٥
" الفصـــــل الثاني "	
التوحيد جوهر الشريعة الاسلامية	٥٩
دلائل السورة على التوحيد	٦٣
مع سورة الفرقان في خصائص الألوهية	٦٨
التوحيد في العقيدة	٦٨
التوحيد بمعنى العبادة	٧٧
التوحيد في الأخلاق	٨٠
تحديد الايمان الصادر عن التوحيد في الأخلاق	٨٣

الفصل الثالث

فضل الله على العباد وتنزهه عن المعاملة

موقف المشركين من عبادة الأوثان ١٠١

الباب الثاني

الفصل الأول

تحديد معنى النبوة وبيان حاجة البشر اليها ١٠٧
الفرق بين النبي والرسول ١١٧
" " " على أشهر الآراء ١١٨
منهج القرآن في تحديد كل من النبي والرسول ١٢٢
حاجة البشر الى النبوة والحكمة في ارسال الرسل ١٢٥
حاجتنا الى تشريع النبي في المعاملات ١٣٠
الحاجة الى الأخلاق القائمة على الوحي الالهي ١٣٢

الفصل الثاني

اثبات النبوة المحمدية عن طريق النظر في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة

بيئة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ١٣٧
الحالة الروحية للجزيرة العربية ١٤٦
كرم أصله وطيب منبته ١٤٨
لوائح الهداية ومظاهر الخصوصية فيه صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ١٥٢

خصوصيته صلى الله عليه وسلم بما وقع في مولده الشريف ١٦٣

لوائح الهداية ومظاهر الخصوصية فيه صلى الله عليه وسلم في حال رضاعه ١٦٧

معالم الهداية والخصوصية في رسول الله صلى الله عليه وسلم في رأي بحيرى الراهب ١٧٥

الأمين ١٨٧

الأمين على غيره ١٨٩

من مظاهر هداينه صلى الله عليه وسلم : "التحنث" ١٩٢

الفصل الثالث

شبه على دليل الرسالة وهو القرآن والرد عليها

الشبهة الثانية والرد عليها ٢٠٠

اعجاز القرآن ٢٠٨

الاعجاز البيان للقرآن ٢١٠

الاعجاز القرآني في الأسلوب ٢١٣

تحقيق القول بالصرفة ٢١٩

الاعجاز التشريعي والأخلاقي للقرآن الكريم ٢٢٥

اعجاز القرآن في اخباره عن أمور الغيب ٢٣١

الشبهة الثالثة على دليل الرسالة والرد عليها ٢٣٦

الفصل الرابع

شبهات المشركين على صاحب الرسالة والرد عليها ٢٣٩

الفصـــــل الخامس

خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم	٢٥٥
الرحمة	٢٦٠
أحاديث للرسول صلى الله عليه وسلم في الرحمة	٢٦٥
هدية صلى الله عليه وسلم في الجهاد	٢٦٨
المعجزات الحسية لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم	٢٧١
بعض المعجزات الأخرى	٢٧٤
معجزاته صلى الله عليه وسلم في الحفنة التي أطعم منها أربعين رجلا من نومه	٢٧٥
تتمـــة تتعلق بالجزاء	٢٧٧
الحيـاة	٢٧٩
الموت	٢٨٢
حقيقة الروح	٢٨٢
البعـــث	٢٨٥
النفخة الأولى	٢٨٧
النفخة الثانية	٢٨٩
الحشر	٢٩٠
النفخة الثالثة	٢٩٢
الحســـاب	٢٩٣
المـــيزان	٢٩٥

حقيقة الجنة ٢٩٨
حقيقة جهنم ٣٠٠
وجود الجنة والنار ٣٠٠

الباب الثالث

الفصل الأول ٣١٧
عباد الرحمن (مدخل الى الأخلاق الاسلامية) ٣١٨
فضيلة الاخلاص ٣٢٤
التوحيد ٣٢٨

الفصل الثاني

صفات عباد الرحمن على ضوء الكتاب والسنة ٣٦٣
التوبة ٣٨١
القتل ٣٨١
نتائج البحث ٤٠٧
من أهم المراجع ٤١٧
محتويات الرسالة ٤٢٣